كنعان مكية

الفتنة



منشورات الجمل

رواية

كنعان مكية

الفتنة

رواية

منشورات الجمل

ولد كنعان مكية في بغداد، وهو الآن أستاذ يُدّرس في الجامعات الاميركية. صدر له: جمهورية الخوف، ١٩٨٩؛ النصب، ١٩٩١؛ ما بعد الكلاسيكية الإسلامية: دراسة في فكر المعماري محمد مكية، ١٩٩١؛ الحرب التي لم تكتمل، ١٩٩٢؛ القسوة والصمت، ١٩٩٣؛ الصخرة: حكاية عن القدس في القرن الاول الهجري، ٢٠٠١.

كنعان مكية: الفتنة، رواية

الطبعة الأولى ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٢٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى ولادة ومصطفى

الجزء الأول

٣٠ كانون الأول ٢٠٠٦

كان يا ما كان في قديم الزمان...
كان هناك طاغية
بعيون صفراء وفك مفترس،
يعيش في قصر مليء بالتماثيل والشرطة.
اعتاد أن يستيقظ ليلاً ويصرخ عالياً.
لم يكن بين الناس أحد يحبه.
كان الحاكم مولعاً بألعاب الصيد والرعب،
غير انه كان يتظاهر بالطيبة،
وكان يلتقط الصور مع الأطفال والورود.
وعندما مات، لم يجرؤ أحد على رفع صوره.
ألقِ نظرة حولك،
ربما ستجد انك تحتفظ بقناعِه في بيتك.

زبغنيو هيربرت

الإعدام

صباحاً

دققت في ساعتي كثيراً. صممتُ على أن لاتفوتني تلك اللحظة بالذات، وأعني بها اللحظة التي يتم فيها تحريك العتلة التي ستفتح باباً في الأسفل كي يتدلى منها المشنوق. مع ذلك، كادت أن تفوتني. سمعت صرير الباب وهو ينفتح قبل أن يُكمِل المشنوق صلواته.

«تم شنق الطاغية في يوم السبت المصادف الثلاثين من كانون الأول من العام ٢٠٠٦، في الساعة السادسة وتسع دقائق صباحاً»، تلك هي الكلمات التي كتبتها مساء ذلك اليوم في دفتر مدرسي ذي خطوطٍ زرقاء، وكانت أمي، رحمها الله، قد وضعت له غلافاً وردياً عليه أزهار من القرنفل الأبيض. كانت تمنعني عن رمي دفاتري القديمة التي كنت أستخدمها في مدرستي الثانوية في النجف.

هكذا أصبحت الملاحظات التي كتبتها في تلك الدفاتر تحديداً بين العامين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦، الأساس الذي استندُ عليه الآن وأنا أكتب عن تلك السنوات.

قبل شنقه، تحديداً في الساعة الثانية وتسع وخمسين دقيقة، تم تسليم الطاغية إلى الحكومة العراقية للمرة الأولى منذ إلقاء القبض عليه، كتعبير عن الاعتراف باستقلالنا عن الاحتلال الأمريكي.

«المحتلون ماكانو ليسلموه لنا الا بعد صراعٍ مريرٍ بيننا وبينهم»، قال لي عمي ومعلمي.

«هل وافق المحتل على تسليمه؟» سألته.

«ليس في البداية. ظلّوا يماطلون لفترة، حتى سقطت جميع ذرائعهم»، أجاب عمي، «وتنازلوا كعادتهم.»

•••

أراد رئيس الوزراء أن يحصل الشنق في اليوم الذي يصادف بدء عيد الأضحى لدى المسلمين السنة، وهو اليوم الذي اختاره أيضاً لزواج ابنه. فضّل الجميع في الحكومة انتظار سلطة عليا لتحديد الموعد، وهذا ما حصل.

علماؤنا الشيعة أفتوا بجواز تنفيذ حكم الإعدام قبل العيد بيوم واحد، ولكن ليس في يوم العيد. للتخلص من تلك المعضلة، استقر رأي رئيس الوزراء على أن يجري الإعدام فجر يوم العيد وقبيل طلوع الشمس. رفض رجال الدين السنة هذا التفسير، وقالوا ان الطاغية، وهو سني، قد أُعدم فعلياً في يوم العيد، ما أفسد احتفالهم به. في المقابل، احتفلنا نحن الشيعة بعيدنا وبإعدام عدونا الأكبر، مما جعل العيد عيدين.

هكذا تجلت إرادة الخالق، عبر ظهور هلال العيد، لتعطينا الحق بإعدام واحد منهم في يوم عيدهم، على الرغم من انه كان عيداً لكل المسلمين، سنتهم وشيعتهم.

حملت المروحية جثة الطاغية نحو بيت رئيس الوزراء حيث كان يجري الاحتفال بعرس ابنه. هبطت وسط هتافات حشد أصيب بالهذيان، وحُملت الجثة نحو الباب الخارجي لبيت رئيس الوزراء الذي كان مقر سكن لاثني عشر عقيداً في الجيش الأمريكي قبل إخلائه كي يشغله

ساكنه الجديد. وهناك تم تمزيق الكفن ليظهر وجه الطاغية، ولتظهر معه الكدمات والرقبة المكسورة، ولترتفع هتافات الحشد المتهستر تعبيراً عن النشوة بهذا المنظر.

قادتنا الجدد، بما فيهم رئيس الوزراء، الذين كانوا في المنفى وقدموا إلى العراق من مدن مثل لندن وطهران ودمشق، لم أعرف بالضبط ما هو دافعهم من اختيار هذا التوقيت، هل هو رغبة بالانتقام أم روح العصبية المستعصية فيهم، أم استعجالهم للتخلص من الطاغية، القائد الأعلى للتمرد المنتشر في البلاد. ليس هناك أي شيء يثبت صحة أي من هذه الاحتمالات. ظلت الحكومة والمحكمة المختصة تؤكدان على التزامهما بتطبيق حكم القانون، وان الإعدام جاء كتعبير عادل عن هذا الالتزام.

جرى تنفيذ الحكم في أقدم ضواحي بغداد الشيعية، الكاظمية، حيث يقع مبنى لجهاز المخابرات السابق، محاطاً بأذرع لنهر دجلة من ثلاثة اتجاهات، ومعزولاً عن المارة بجدار كونكريتي تعلوه أسلاك شائكة تم نصبها حديثاً. كان المسؤولون الحكوميون بالانتظار هناك، وكنا نحن حراسهم الشخصيون نحيط بهم حين حطّت مروحية الـ «بلاك هوك» وهي تحمل الطاغية إلى محطته الأخيرة، حيث سيجري إعدامه في المبنى الذي شيّده هو بنفسه في الحقبة السابقة لأغراض التحقيق والتعذيب والإعدام.

لقد زرت هذا المبنى بصحبة عمي وأصدقائه في صيف العام ٢٠٠٣. لذلك قال لي الضابط المعمم المسؤول في جيش الامام، «أنت خبير بهذا المبنى، ربما سنحتاجك ان حصل شيء ليس بالحسبان.» لذلك اتخذ قراراً بضمي للوحدة التي وكِلَ إليها حراسة السجين من لحظة نقله للسلطات العراقية وحتى لحظة إعدامه.

• • •

نزل الطاغية من على سلم المروحية التي قد هبطت على فناء البناية على بعد ثلاثين متراً من المدخل. توقف قليلاً اثناء نزوله ليتطلع إلى الأعلى، ملقياً نظرة على المشهد الممتد بين انحناءات دجلة والقبة الذهبية لضريح الإمام الكاظم، ثم نظر إلى الأسفل، وربما رأى المبنى الخرب الذي عرف أياماً أفضل في عهده. عندما وطأت قدمه المدرج، توقف مجدداً، ثم استأنف المشي باسترخاء مبالغ فيه ليمر بجانب صفوف الحراس والأطباء الأمريكيين وغيرهم من مسؤولي الاحتلال الذين حضروا التسليم. بدا شديد الاعتداد بنفسه، يسير بخطى واثقة وقامة منتصبة، تعلو شفتيه ابتسامة بين الحين والآخر. شكر وودّع أعضاء الفريق الأمريكي واحداً واحداً، وبدا انه يعرف أسماء بعضهم، بادلوه بدورهم الاحترام وكأنه مازال رئيساً للدولة. تم اقتياده إلى المبنى الكونكريتي المكون من ثلاثة طوابق والذي لا يوجد له مدخل محدد، فدخلنا من الفتحة الموجودة في الجدار والتي حلت محل الباب للمبنى. تبادل المسؤولون الأوراق، وجذب نظري أحدهم بسبب بطنه الكبيرة التي تدلت من فوق حزامه الضيق، وكان أصلعَ بشارب غليض، وقد بدت عليه علامات التوتر.

بهذا تم رسمياً تسليم الطاغية إلى السلطات العراقية. وبذلك إستلمنا، أنا ورفاقي، مهام حراسته بدل الوحدة الأمريكية التي كانت برفقته.

لقد نشأت على صوره، من جداريات تملأُ شوارع وساحات بغداد إلى صوره المؤطرة التي تعلو جدران المنازل ومؤسسات الدولة. تارةً يظهر كفارسٍ عربي وأخرى مثل كردي أو فلاح حامل منجله، أو كأبٍ يمسح على رؤوس أطفاله. كانت تلك أول مرة أرى الطاغية أمامي بلحمه وشحمه.

كان يرتدي معطفاً أسود منسوجاً من وبر الجمال، صنعه له خياطه الأرمني المفضل. شعره مصبوغ حديثاً بلون أسود داكن، ووجهه هادئ يخلو من التعبير، أما شاربه التاليني الذي ظل رجال العراق يقلدونه لربع قرن، فقد تم تقليمه ولم يعد غليضاً كما كان في السابق. وعند نقطة التسليم، علت وجهه علامات الازدراء رغم انه لم يقل كلمة واحدة حتى للوزراء والمسؤولين الحكوميين الذين اصطفوا هناك. أما هم، فلم يحاولوا أو يجرؤوا على التطلع إلى عينيه، وظلوا يغيرون طريقة وقوفهم بين الحين والآخر. حينما كان أحدهم يقرأ عليه ما كتب في الأوراق، ظل الطاغية واقفاً باعتداد يشبه تماثيله التي كانت منتشرة في كل مكان، متغاضياً عن النظر إليهم وكأنهم غير موجودين أصلا. بدون أن ينطق كلمة واحدة أو يظهر أي نوع من المشاعر، نجح الطاغية باذلال سجانيه الجدد.

امتلك هذا الرجل سلطة مطلقة في يوم من الأيام، لم يعد يمتلك شيئاً منها الآن. اما مسؤولو الحكومة الجديدة التي أسسها المحتل فلم تكن لديهم أي سلطة في السابق، وماكانوا ليفهموها حتى لو كان لديهم شيء منها. بالطبع، هم كانوا يسعون وراء السلطة، لكنها بالنسبة لهم ارتبطت أكثر بامتلاك سيارة مدرعة وعدد كبير من الحراس الشخصيين وبمقدار الضوضاء والازعاج الذي تسببه تلك القافلة من السيارات وهي تشق طريقها بعجرفة لا مبالية بالناس العاديين في الشوارع. وقد يلتفت هؤلاء الناس نحوهم ويحدقون فيهم بطريقة يعتقد هؤلاء المسؤولون خطأً انها تنم عن الإعجاب والاحترام لهم. امّا الطاغية فكان يفهم السلطة بالفطرة. فهو يدرك ان السياسي الحقيقي هو الذي يلعب لعبة السلطة جيداً، ويعرف كيف يتحكم بملامحها وتعبيراتها في كل ثانية

ولحظة من كل يوم. كان يعرف أيضاً ان لا مخرج من سلطةٍ كالتي امتلكها، الاّ الموت.

***

تعود إلى ذهني بأستمرار ذكريات ذلك اليوم الذي سبق العيد.

طوال السنوات العديدة التي تلت الإعدام، عاودتني في احلامي وكوابيسي مشاهد مفصلة، منها نزول الطاغية من المروحية وملامح وجهه وهو يبتسم بازدراء موجهٍ لمن حوله. لقد انفقت تلك السنوات وأنا اصارع شكوكي، حاملاً دفاتر ملاحظاتي في حقيبة ملابس قديمة، آتياً وذاهباً إلى العديد من الأماكن التي كانت مجهولة بالنسبة لي في ذلك التيه الكونكريتي الذي نسميه بغداد. طيلة هذه الفترة لم يكن الكتاب الذي بين أيديكم الآن غير ملاحضات متناثرة وصور متفرقة لا غير. أحمل تلك الدفاتر معي حيثما ذهبت لأنني أقسمت أمام الله ونبيه، أن أسجل الحقيقة التي بدأت برؤيتها منذ ذلك اليوم، منذ تدّلى جسد الطاغية معلقاً من حبلٍ طوله مائة وعشرون سنتمتراً.

حينها أدركت ما يجب أن أفعله مهما كان وقعه مؤلماً على الآخرين، بما فيهم أصدقائي الذين كنت أدرك جيداً انهم لم يكونوا راضين عني، ويتحدثون بسوء خلف ظهري. كل ذلك جعلني أترك مدينتي النجف لأضيع في مدينة الأشباح بغداد.

مشهد جسده المتدلي لا يأتيني في النوم فقط، بل انني استعيده في لحظات صحوي أنّى شاءت. كل تلك الصور تأتيني كهلوسات أو فيلم قصير يدور شريطه في رأسي، من السهل إعادته لكن من المستحيل مسحه. أكثر تلك الصور وضوحاً وأغناها تفصيلاً هي تلك التي تعود ليوم الثلاثين من كانون الأول ٢٠٠٦.

أرى الطاغية يهبط من المروحية، أراه يتدلى من الحبل كدمية قماش تحركها ريح ناعمة ببطء، ولكنها تتحرك حقيقةً من قوة قدميه المشدودتين وهما ترفسان رافضةً ومحتجّة... ثم أرى ما تبقى منه يتأرجح، يشده الحبل إلى بكرة حديدية مزرية معلقة بالسقف الكونكريتي.

كانت البكرة الحديدية قد جلبت من موقع قريب للبناء. اما غرفة الإعدام فكانت غرفة اجتماعات تم تحويرها على عجل. احتوت على كراسٍ بلاستيكية، وفي أحد جوانبها كانت هناك منضدة طويلة مصنوعة من الفورميكا. على الجانب الآخر منصة الإعدام المرتفعة التي نصبت على هيكل من القضبان الحديدية وملحقٌ بها سلّم تم تركيبه على عجل. وفي وسط المنصة توجد الباب المربعة التي سيتدلى منها الجسد. أما البكرة فكانت مثبتة بالسقف منحرفة عن مركز المنصة، كأن من ثبتها أخطأ القياس.

بعد تكليفنا بحراسة صدام في ساعاته الأخيرة، قمنا بزيارة غرفة الإعدام وتفتيشها، وكان علينا أن نتذكر بدقة الطريق بينها وبين غرفة الانتظار التي جلس فيها الطاغية لعدة ساعات قبل أخذه إلى المشنقة.

أكاد أراه يصعد منصة المشنقة بدون تردد ولكن ببطء، حاملاً القرآن بيديه المقيدتين، وأتذكر كيف أن الغرفة غرقت بصمت مطبق حين كان يصعد السلم، وكأن مجرد حضور هذا الرجل قد أصاب الجميع بالشلل.

على المنصة، كان بانتظاره ثلاثة حراس يرتدون أقنعة سوداء أخفت ملامحهم وسترات بنية كالحة كتلك التي يرتديها سواق الدراجات النارية. أساء الحراس منذ البداية معاملته، كمحاولتهم إجباره على وضع غطاء الرأس، لكنه رفض ذلك باشارة قاطعة من رأسه. كان المسؤول ذا

البطن الكبيرة على منصة الإعدام، وطلب من الحراس عدم الالحاح بوضع الغطاء.

هكذا ذهب الطاغية إلى الشنق برأس مكشوف.

في تلك اللحظة، بصق أحد الحراس على الطاغية وشتمه بصوتٍ عالٍ، ولم يظهر من الأخير أي رد فعل وكان البصاق ينزل ببطء من على خده... وفجأة تلاشى السكون الذي كان يعم الغرفة، وكأن صعقة كهربائية أصابت جميع مَن كان فيها وأيقظتهم من غيبوبتهم.

بدأ الحاضرون بالصراخ المتهستر، وأخذ بعضهم برمي أشياء كان يحملها باتجاه المنصة، وتصاعد الضجيج ليتحول بشكل غامض إلى ما يشبه النبضات العالية. لم يعرف المسؤول ذا البطن الكبيرة، التي كانت تهتز حينها، ما الذي عليه فعله. بدت عليه علامات الارتباك حين أخذ يشير بيديه من أجل اسكات الحضور، لكن لا أحد أصغى إليه. أصابت الهستيريا ذلك الحشد من الرجال المتجّمعين تحت المشنقة، وهم يقذفون بشتائمهم نحو الطاغية وسط ايقاعٍ متوالٍ لصرخة... «ياسيد... ياسيد.»

كانوا يقصدون «سيدي» و«سيدنا» وسيد الجميع... السيد الذي بناءً على أوامره أرتديت زي الجيش النظامي الجديد الذي اسسه المحتل... وأصبحت جندياً فيه ليوم واحد فقط.

أرى إلى هذا اليوم الطاغية وسط هدير الجموع الذي يصم الآذان، واقفاً باستقامة، بكل ثقة وتحدٍ، وعيناه تظهران خليطاً من اللامبالاة والتحدي مزمجراً أمام تلك الجموع التي بدت وكأنها كلابٌ مسعورة. همس المسؤول ذو البطن الكبيرة بشيء ما في إذن الجلاد، فوضع الحبل، ذا العقدة الخاصة بحبال الشنق البريطانية، حول عنق الطاغية.

في تلك اللحظة، نطق الطاغية بصوت عالٍ وهو ينظر إلى الفراغ فوق رؤوس المحتشدين، صوته كصفارة باخرة آتية من بحر مليء بالضوضاء:

«الله أكبر. ستنتصر الأمّة، فلسطين عربية.»

•••

كلمات هائلة!... تجانست تماماً مع حياته. هل اختار تلك الكلمات مسبقاً؟ هل فكّر بكلماته الأخيرة خلال الوقت الذي قضاه في زنزانته؟

تخيلو: «ستنتصر الأمّة.»

أي امّة تعتقدون انه كان يقصد وهو على منصة الإعدام ينظر نحو أبناء بلده من تحته؟ هل هي الأمّة التي كانت في الماضي، أم الأمّة التي أصبحت ماهي عليه اليوم؟ أو ربما الأمّة التي مازال علينا انتظار مجيئها؟ من الواضح ان الأمّة لم تعد تعني «الطاغية» نفسه. الأمّة الوحيدة التي كان يمكن إدراكها هي تلك التي تواجدت في الغرفة، غاضبةً وساخطةً. وان كان لهذه الأمّة ان تصبح «منتصرة»، فعلى مَن ستنتصر؟ ألم يكن الأمريكيون الذين سلّمونا الطاغية بهدوء وانتظام هم المنتصرون؟ ربما كان يقصد أن الأمّة المهزومة ستنتصر لاحقاً، وربما كان يشير إلى المتمردين، نواة الأمة التي ما زالت تنتظر وراء الكواليس كبخار يتجمع لينفجر يوماً.

خلال فترة سجنه، كان الطاغية يقول للأمريكيين أنّ بوسعه إيقاف القتال في غضون اسبوع واحد. هل كان يعتقد ان بإمكانه أن يصدر بياناً، كما أعتاد في السابق، يصغي إليه المتمردون فيعودوا إلى صوابهم

ويتوقفوا عن القتال؟ ويبرم مع المحتل اتفاقية بوصفه رمز الشعب الذي يقاوم الاحتلال؟

«انا الرئيس»، تلك كانت أولى كلماته التي نطقها بالإنكليزية حين أخرجه جنود الاحتلال من الحفرة التي كان يختبئ فيها والواقعة في مزرعة صغيرة بالقرب من محل ولادته... ليتبعها بعبارة: «أريد التفاوض.»

كان يريد التفاوض!

تخيّلوا مدى إذلاله من قبل المحتلين. «مسكناه كجرذ»، هذا ما قاله جنرال أمريكي بتبجح. ظهر الطاغية في شريط لل (سي أن أن)، حيث كان الأطباء يتفحصون أسنانه، ويعبثون بشعره متظاهرين انهم يبحثون عن القمل. ربما كانت تلك الحركة مدروسة بعناية، لأنها كانت أفضل نجاح في المجال الأعلامي أحرزه المحتلون في فترة بقائهم القصيرة. انتشرت الصور في عموم العالم العربي والإسلامي كالنار في الهشيم. لكنها كانت آخر نصر يتمتع به أعداء الطاغية.

تخيّلوا، هذا الإذلال تبعه إذلالٌ آخرٌ من رئيس سلطة الاحتلال الذي جلب حفنة من السياسيين العراقيين ممن صنعهم، كانوا جميعاً من المنفيين العائدين من لندن، أثرياء يرتدون ساعات ذهبية ثمينة. جلسوا يحدقون بالرئيس المخلوع بعد يوم واحد من إلقاء القبض عليه. أحدهم وكان قد وضع دهاناً على شعره البني المتدلي على كتفه كنجوم السينما، صرخ نحو الطاغية:

«أنت ملعون من الله، كيف ستقف بين يدي خالقك؟»

«بضمير مطمئن وكمؤمن»، أجاب الطاغية.

«يا لك من جبان! لماذا لم تقاتل وتموت وانت تقاوم؟ على الأقل، إبناكَ قاتلا قبل أن يقتلا؟»

كان الطاغية يفهم هذا النوع من الكلام جيداً. أتخيله يقول لنفسه «من أي بالوعة أجنبية أخرجوا هذا الشخص» وهو يتطلع إلى السياسي الجديد ذي الشعر الأسود القادم من لندن، والذي كان يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً مردداً مع نفسه «لم يتعلم شيئاً... لا شيء.» كان الطاغية يراقبه، جالساً على سرير الزنزانة ومرتدياً بجامته، وأظافر قدميه المتسختين تبرزان خلال النعل البلاستيكي الرمادي الرخيص الذي زودته به وزارة الدفاع الأمريكية.

ما علاقة «التعلم» بما كان يدور في هذه الغرفة في هذا الوقت؟ أو الجبن باستسلامه للمحتلين يوم الثالث عشر من كانون الأول ٢٠٠٣؟

الغريزة الوحيدة التي ينصاع إليها الطاغية هي ضرورة بقائه حيّاً من أجل مواصلة القتال يوماً آخر. لهذا السبب غيّر الطاغية مكان إقامته عدة مرات بعد سقوط بغداد، من أجل «تنظيم المقاومين» حسب قول محاميه. هذا التوق لمواجهة الخطر ما كان سيشبعه الخروج من الحفرة ميتاً بعد تبادل لإطلاق النار. هذا الطاغية بحاجة لرؤية عدد كبير من الرجال يموتون كمقاتلين تحت قيادته، من أجل أشباع شهواته العالية. كان يظنُ انه هو من صنع المقاومة ضد المحتلين، هو من امتلك تلك المقاومة، وهو الوحيد المخول للتفاوض عليها. لم يدر بخلده أن هذه المقاومة ستستقل عنه وتعيش بدونه. يُقال انه في لحظة القبض عليه، كانت معه مجموعة وثائق تحتوي على تحضيراته المبكرة للمقاومة، وتعود إلى الشهور التي سبقت الاحتلال. ليس لدي شك بصحة ذلك.

أظهرت جلسة محاكمته الأولى انه كان يفهم تماماً الطابع الدرامي

لوضعه الجديد. أراه في أحلامي وكوابيسي التي لا تغادرني أبداً، يقف هناك، بعينين لامعتين، صارخاً: «هذا كله عرض مسرحي!»

أراه يخبر رئيس القضاة: «انا لن أتجاوب مع هذه التي تسمونها محكمة، احتراماً للحق، ولإرادة الشعب العراقي.»

لقد آمن بذلك فعلاً، واعتقد انه كان صادقاً باعتقاده انه وحده يحترم «الحق» و«إرادة الشعب العراقي.»

ثم مضى إلى القول «أنا دائماً وضعت مصلحة الشعب أولاً... حتى هذه الساعة أستطيع أن اذهب وأنام بطمأنينة في أي بيتٍ أو مدينة في هذا البلد! هل تستطيعون أنتم أن تفعلوا ذلك؟» موجهاً سؤاله إلى المحكمة.

ظهر ان رئيس القضاة، الذي كان كردياً صدفةً، كان في حيرةٍ من أمره، لا يعرف كيف يتعاطى مع فوضى قاعة المحاكمة. تم إعفاؤه من مهمته لاحقاً لكونه مهذباً ومتساهلاً أكثر من اللازم. الحق يقال، ان كل واحد من العراقيين الذين عينهم المحتل، المهذبون منهم وغير المهذبين، أدركوا ان مظهر الطاغية كان يوحي بسلطة وثقة بالنفس أكثر من كل القضاة والمدعين والمحامين المتواجدين أمامه. لقد أصابهم الرعب وجعلوا من القاضي كبش فداء لأنه خاطب الدكتاتور بـ «السيد صدام حسين» وليس «المتهم» أو «الطاغية»!

تمسّك الطاغية بفكرة انه حقيقةً ما زال يمثل الأمّة. وكان يدرك ذلك عن إيمان وليس فقط أملاً في المستقبل، عارفاً في نفس الوقت انها الورقة الوحيدة التي تبقت لديه كي يلعبها في لعبة يسيطر سجانوه عليها. امّا المحكمة التي وقف أمامها والتي جرى تدريب أعضائها وتوجيههم خطوة خطوة من قبل المحتل، فانها لم تعرف من تمثل ووفق أي قانون

يمكنها أن تحكم على هذا الرجل الذي صنع جميع القوانين، تلك القوانين التي كرس هؤلاء القضاة حياتهم لدراستها وتطبيقها.

أضاف العالم الخارجي لهذا الخليط مجموعة جديدة تماماً من الكلمات ـ العدالة الكونية، القانون الدولي، حقوق الإنسان، الجرائم ضد الإنسانية، وغيرها ـ كلمات معسولة تم فرشها على طبق من الوعود الفارغة التي لم تعنِ شيئاً لمن يعيش في داخل البلد. وحدها كلمات الطاغية، سواء كانت وهماً أم حقيقة، كانت تعني شيئاً للجمهور.

لقد كانت لحظةً لا يمكن التخطيط لها، لحظةً فرضت نفسها ولم يصنعها أحد.

فكروا فيها كمسرحية تُعرَض على أكبر مسرح، مسرحية افتعلها وكتبها وعدّلها ونمّقها بطلها الرئيسي، الممثل الكبير، صدام حسين.

عند ذلك اليوم، الثلاثين من كانون الأول ٢٠٠٦، عندما نزل الطاغية من سلّم المروحية الأمريكية، وجرى تسليمه للسلطات العراقية، أدرك ان المسرحية أوشكت على الانتهاء، وتخلى عن فكرة أن الأمريكيين سيأخذون بالاعتبار عرضه للتفاوض معهم.

ولكن السلطة العراقية هي ليست سلطة الأمة، ولذلك، حتى في هذه المرحلة المتأخرة، لم يستسلم الطاغية. هنا يكمن معدن هذا الرجل، القائد الحقيقي المخلص لمعنى القيادة التي آمن بها دوماً. أراد إثبات أن وصوله إلى هذه النهاية المزرية لم يأت نتيجة أوهام زائفة، ولا هي الآمال وحدها قابلة أن تضمن النجاح الذي يرتئيه.

اختار الطاغية لحظته، مغيراً مساره عند الضرورة. فعل هذا مراراً وتكراراً في الماضي. فعندما كان مصيره بيد المحتل، كل ما كان يفكر به هو البقاء على قيد الحياة ليقاوم ويقاتل ليوم آخر، سواء بالسلاح أو

بالتفاوض. ولكن عندما قامت قوات الاحتلال بتسليمه لحلفائها المحليين الذين جرى ترقيعهم على عجل، فكل ما كان يشغله خلال ساعاته الأخيرة هو كيف يجسد تضحيته كي تبقى الأمة على قيد الحياة. لذلك اختار أن يموت بطريقة ستقلب الطاولة على الموت نفسه. قد حان الآن المشهد الأخير من المسرحية، وكان الطاغية على أتم الاستعداد، كما هو حاله دائماً.



فكروا في الجملة الثانية التي ألقاها الطاغية على مسامع الحشود التي أصابتها الهسترية في غرفة الإعدام: «فلسطين عربية.»

بالتأكيد «فلسطين عربية»، ما الذي يمكن أن تكونه غير ذلك؟ ما عناه ان «الأمة ستنتصر» لأن «فلسطين عربية». جميع المتواجدين في الغرفة فهموا ذلك، ولهذا السبب ضرب الطاغية على الوتر الحساس. أراد أن يقول لهم إنكم جميعاً تؤمنون بأن فلسطين عربية، لكنكم منافقون، خُنتم عروبة فلسطين التي تدّعون إيمانكم بها، أمّا هو، فوحده الذي كان مستعداً للموت من أجلها. لايمكن لعروبتنا ان تصمد أمام الاختبار ان لم نؤمن صدقاً بعروبة فلسطين. إمّا أن نتردد، كما قد يفعل الكرد، أو إن لم نظهر الحماس اللازم، كما قد نفعل نحن الشيعة (خوفاً من الهيمنة السنية)، فإننا سنقع حالاً في موضع الشك والاتهام.

فلسطين هي الاختبار الحقيقي، كما كانت على الدوام.

صفة العروبة عند صدام تربطه وتجمعه مع الحشد المتهستر في القاعة، وهذا معنى «الرسالة الخالدة» التي طالما تحدث عنها حزبه. هم عرب وإن لم يدركوا عروبتهم. الدم والأرض والدين والتاريخ كلها

تصب في معنى الأمة الواحدة، لكنها جميعاً غير كافية. هناك شيء أكثر جوهريةً في اعتقاد الطاغية: فالامة أولاً وآخراً هي الروح. لهذا كل من تواجدَ في غرفة الإعدام يوم الثلاثين من كانون الأول ٢٠٠٦، كان عربيّ اللسان وعربيّ الاصل ولكن ليس عربيّ الروح. تجسدت العروبة في ذلك اليوم في صدام وحده.

هل سيفهمه أولئك المتواجدون في قاعة الإعدام؟ هل سيفهمون ما قصد الطاغية بالعروبة؟ فكروا معي بطريقة مختلفة. استبدل كلمة «الروح» بكلمة «الإيمان». حينها سيفهم المسلمون المتواجدون في القاعة كافة ما كان يريد أن يقوله الطاغية. ما هو الإسلام إن لم يكن أمة من المؤمنين؟ وما هي العروبة ما لم تكن أمة من المؤمنين وبنفس الروح؟ الإيمان صلب العروبة كما أن الإيمان صلب الإسلام. بالطبع فلسطين عربية وإسلامية.

كان على الطاغية أن يتبع عبارة «فلسطين عربية» بالشهادة الإسلامية التي قيلت لأول مرة على لسان سيدنا ومولانا وأول أئمتنا، أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، عندما صلّى مع النبي في مكة وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره... الكلمات التي ظلّ المسلمون يرددونها عدة مرات يومياً منذ ذلك الحين.

لكل إنسان، رجلاً أو أمرأة أو طفلاً، الحق بقول الشهادة، حقّ لايمكن أن يُمنع حتى على الكفرة وغير المؤمنين، ولا حتى على الزنادقة. كان من المنطقي أن تأتي هذه الشهادة بعد التأكيد على عروبة فلسطين، التي فتحها المسلمون العرب في القرن الأول للهجرة. كأنما أراد الطاغية بالطريقة التي أنهى فيها خطابه ذا الكلمات الست أن يؤكد عمق تمسكه بالإسلام.

عقود من الغرائز المصقولة والتجارب تجسدت في كلمات وأداء الطاغية في المشهد الأخير من مسرحية حياته، الذي قام أحد الحمقى بتصويره بكاميرا هاتفه النقال. لم يفقد الطاغية الكبير، لربما أكبر طاغية في العالمين العربي والإسلامي، هدوءه حتى عندما انفتح الباب تحت قدميه ليتدلى من الحبل وهو لم يكمل شهادته بعد.

• • •

لماذا قوطع الطاغية قبل ان يكمل كلمة الشهادة؟ على الأغلب كان أمراً متعمداً، محاولة أخيرة لإذلاله لا يقوم بها الا صغار الرجال الذين تحركهم غرائز واطئة، وعلى الأرجح ان الذي قام بذلك إستجاب لردة فعل تلقائية ولم يتبع أوامر من الأعلى. لقد خرجت الأمور عن السيطرة في غرفة الإعدام. لماذا يقوم الجلّاد بتدوير عتلة الباب في الوقت الذي كان هناك رجل مسلم يردد الشهادة ولم ينهها بعد؟ هل نسينا انها كلمات ذات قدسية كبيرة حتى وان كان الناطق بها كافر بربري؟

بإعدام الطاغية على عجل، أرادت الحكومة تقديمه للعالم كانجاز كبير للعدالة. وفي الوقت نفسه، كانت تستهدف طعن مواطنيها من السنة، الذين أفسدت عليهم عيدهم. ربما كانا الهدفان متناقضين أساساً، مما يصعب تحقيقهما معاً، ولكنهم نجحوا في الهدف الثاني لأن الحكومة التي أرادت تحقيق كل هذه الأهداف كانت غائبة في غرفة الإعدام، كغيابها عن البلد بأكمله، غيابٌ ملأه الطاغية بحضوره.

ملأها كنذيراً قاتماً للموت...

أتذكر معطفه الثمين المصنوع من وبر الجمل وهو يطغي بسواده على المشهد، مخففاً من التجاعيد العميقة التي أظهرتها الشيخوخة على

وجهه. كان يقف هناك مجبداً الموت، موت الجميع وليس موته وحده. لقد ملأ حضوره المكان. سيبقى حاضراً، وحده فقط، حتى ويداه موثقتان والحبل حول عنقه، وحتى مع وجود غوغاء يشتمونه وهم متعطشون لرؤيته معلقاً.

في هذا المكان حضرت نفايات الأمة التي كان الطاغية يحاول تذكيرنا بها، الأمة التي قد لخصها بستْ كلمات، وكلها كلمات سمعها الحاضرون من قبل مئات المرات. في عيونهم وأنا أقف على المنصة وأتطلع إلى الحضور الهائج، رأيت غضب رجالٍ مذعورين أصابهم العمى، كانوا عمياناً حتى وهم يظنون انهم مبصرون، ومذعورين وهم يظنون أنه لم يعد هناك ما يخيفهم. كلما كبرت ضحيتهم، كلما أصابهم الذعر أكثر، حتى وإن كان مصدر ذعرهم رجلٌ يقف في أصفاده على بعد نفسٍ واحد من نهايته.

الحبل

مساء

لم أكن الوحيد الذي لم يشعر بالارتياح في ذلك السبت، كان هناك آخرون يشاركونني الشعور نفسه، الا انهم لا يعترفون بذلك اليوم. كان صديقي حيدر تواقاً للحديث معي عمّا حصل.

حيدر هو أفضل أصدقائي، كنّا جيراناً نعيش في الحي نفسه في النجف، كما اننا تشاركنا العيش في شقة واحدة في حي القاهرة ببغداد خلال الأشهر القليلة التي سبقت الشنق. كان طويلاً ذا بنية قوية تنم عن جذوره العربية البدوية، منحته عضلاته الرشيقة قدرة على الحركة المتناسقة، وكنت أحسده على ذلك دائماً. جمعتنا منذ الطفولة صداقة أساسها الاختلاف لا التطابق.، هو كان رياضياً وأنا كنت منكفئاً على الدراسة، وكلُّ منّا تمّمَ الآخر. فكنا نشعر دائماً بأننا قادران على تخطي أي عقبات تواجه طريقنا. الولد الذي في داخلي وجد في صديقه خصائص كان يتمناها لنفسه، امّا هو، فأظنه أعجب بقدرتي على التعامل مع الأرقام والكلمات. كذلك أمه، التي لم تكف عن المقارنة بيننا، مما كان يزعجه. انتمينا معاً إلى صفوف جيش الإمام في العام ٢٠٠٣، وحاربنا المحتل كتفاً إلى كتف في النجف خلال صيف العام ٢٠٠٤. لا يمكن أن يحصل المرء على صديق أوفى وأشجع منه.

كان حيدر واقفاً مع الحشد الذي شهد إعدام الطاغية، لكنه كان ساخطاً بسبب عدم اختياره ليكون ضمن الحرس أو بين الواقفين على المنصة. مع ذلك، كان مهتمّاً جداً بالحديث عندما سنحت لنا الفرصة ذلك المساء.

«أعرف أنك غير موافق على ما حصل»، قال لي بعد أن رأى الأثر الذي تركته فيّ أحداث ذلك الصباح.

«غير موافق على ماذا؟»، أجبته بدون رغبة بالكلام.

«إعدام الطاغية طبعاً.»

«ليس للأمر علاقة بموافقتي أو عدمها»، أجبته متجنباً النظر إليه وشاغلاً نفسي بتوظيب زيّي العسكري استعداداً لإعادته إلى مسؤولي الحكومة في اليوم التالي.

«لماذا تبدو كئيباً إذن؟»

«عزيزي حيدر، لا أريد التحدث عن ذلك. مشاعري في فوضى. مازلت لا أفهم ما جرى جيداً.»

«إن شكليات العملية افتقرت إلى التنظيم بدون شك»، استمر حيدر حديثه متجاهلاً طلبي ومضى يقول، «وهذا أمر سيء، سيء جداً. لكن علينا أن لا نبالغ كثيراً. مع الوقت سيتعلمون كيف يتصرفون بطريقة صحيحة. هذه المرة الأولى التي نشنق فيها طاغية!» قال جملته الأخيرة مبتسماً، ثم أردف «الأمر المهم انه ميت، أعتقد انك تتفق معي في ذلك، كان يجب أن يموت، أليس كذلك؟ لا أظن أنك غيّرت رأيك بهذا الشأن.»

«بالطبع لا، أنا أردت إعدامه مثلك تماماً»، أجبته بشكل قاطع، «لكن، ألم تشعر بالاحراج مما رأيت... حراس بأقنعة حول عيونهم!

منصة ضيقة لا يمكنها استيعاب الجميع! بكرة لشد الحبل تم الإتيان بها من موقع البناء المجاور قبل يومٍ واحدٍ وليست جاهزة للتشغيل بشكل صحيح! مجموعة من الغوغاء فيّ محل الشهود! أرجو أن لا تكون أنت من كان يصرخ بشماتة بين المتجمهرين! هل تريدني أن أستمر؟ لقد كان أمراً محرجاً من بدايته إلى نهايته. ما حدث كان عاراً ولم يبدُ أبداً كعملية إعدام وفق القانون...»

«لا تخلط بين المظهر الذي جرى فيه تنفيذ الإعدام وبين الإعدام نفسه»، أجاب حيدر بنبرة مسالمة لتهدئتي.

«الإعدامات تدور حول المظهر قبل أيّ شيء آخر»، رددت عليه. «أصلاً عملية الإعدام هي عملية مظهرية.»

«إننا أولاً وأخيراً لا نختلف عن الحيوانات التي يمثل القتل غاية بالنسبة لها. أفهم ذلك يا عزيزي، وانسَ الموضوع»، أجاب حيدر. «لقد مات الطاغية وانتهى، لنفتح صفحة جديدة.»

«ما تقوله يا حيدر غير منصف بحق الحيوانات، هم لا يقتلون من أجل الإذلال أو للاستمتاع بالقتل، بل للضرورة.» أجبته بنفس النبرة المسالمة بعد أن جلست إلى جانبه على السجادة.

«حسناً، لننسَ موضوع الشكليات، كان ذلك اختياراً غير صحيح للكلمة منّي. ليس مهماً كيف نموت، ولا كيف نولد، لا الموت ولا الولادة يحتلان حيزاً كبيراً من حياتنا، لكن بينهما، هنالك يكمن المعنى الحقيقي للحياة. مايهم هو كيف نعيش حياتنا بين ولادتنا وموتنا. لقد شنّ الطاغية حروباً، وقتل الملايين، وعذّب آلافاً من البشر، وترك بلدنا خراباً. هذه هي الأشياء المهمة.»

«صحيح...»، قلت وأنا أحاول إجابته، لكن حيدر واصل الكلام.

«هنالك مشاكل أكبر بكثير تواجهنا في بلدنا وعلينا أن نتعامل معها يومياً. وكأنك لا ترى اننا في حالة حرب، لقد اذعى الطاغية قيادة جماعة من القتلة لتفجير مساجدنا وأسواقنا وأحيائنا.»

«هو لم يقل أبداً انه يقود حرباً ضدنا نحن الشيعة. بل قالها الوهابيون التكفيريون الحاقدون على أهل البيت. لقد اذعى أنه يقود حرباً ضد المحتل، تماماً كما فعل سيدنا في الستين الأولى والثانية للاحتلال.»

«كلها كلمات!» أجاب حيدر، «كلام فارغ. الطاغية رأس الأفعى التي كان يجب قطعها بسرعة قبل أي شيء آخر. لقد ظل الطاغية يلاعب المحكمة ويقودها إلى متاهات باسم الإجراءات. أهدرت المحكمة ثلاث سنوات على اجراءات لا طائل منها. مع ذلك، قبلناها وأعطيناها وقتها الكافي حتى أدركنا أن القائمين عليها ضعفاء وبلا إرادة. الآن وقد مات الطاغية، يمكننا أن نشعر بالاطمئنان ونمضي قدماً.»

«هل تقول أن الإرهاب سوف يتوقف؟»

«لن يجد أعداؤنا زعيماً مثله، ليس هناك من يمكنه أن يحل محلّه، وسيغرقون في الفوضى. غداً، لن يتذكر أحد الطريقة التي أعدمناه بها. المهم هو أنه لم يعد موجوداً.»

«حيدر... يا عزيزي حيدر... هل إن موت إمامنا وحبيبنا الحسين عليه السلام في كربلاء منذ عدة قرون كان شأناً وقتياً؟ يمكن لأي أحمق أن يقتل إنساناً، أنا وأنت فعلنا ذلك عدة مرات في السنوات الأخيرة. القتل سهل، لا يحتاج إلى ذكاء.»

كان ذلك خطأً مني. ما كان عليّ أن أقارن ما حصل للإمام ذا التاريخ العظيم والذي يعني الكثير لنا نحن الاثنين. قد فات الأوان. ما إن خرجت الكلمات من فمي، لم يعد بالإمكان اصلاح هذا الخطأ. إشتد

غضب حيدر وصرخ بي، «أنت تكفر، ما تقوله تجديف. لا تدع أحداً يسمعك وأنت تهذر بهذا الكلام! الإمام عليه السلام اختار الشهادة من أجل الحق، بينما صدام شنق بسبب ذنوبه. الفرق بينهما هو كالفرق بين الجنة والنار!»

«أتفق معك. ما تقوله صحيح. لكنني أقصد ان الكيفية التي يموت فيها الرجال تؤثر على الكيفية التي ستعيش فيها ذكراهم بعد موتهم. الإمام عليه السلام تعرض للخيانة وقُتل شهيداً على يدْ أعدائه. أجدادنا طلبوا منه أن يعبر الصحراء ويأتيهم إلى أرضهم لينقذهم من طاغيتهم، وعندما فعل ذلك، تخلّوا عنه ليُذبح وحيداً في الصحراء، وتموت نساؤه وأطفاله أمام عينيه عطشاً. نحن نستذكر الإمام الشهيد في كل عام ونظهر الحزن في ذكرى شهادته لأننا نشعر بالذنب والخجل لطريقة موته. هو مات مؤمناً، أمّا إيماننا ففي حالة يُرثى لها...»

«أنت على حق»، قاطعني حيدر، «مات الطاغية بالطريقة التي يستحقها. ما الذي ستقوله الأجيال القادمة عنا، نحن الذين سمحنا لأنفسنا بأن نُحكم لثلاثة عقود من قبل رجل ضعيف يفتقر حتى إلى الشجاعة واحترام الذات! كلا، كان أكبر طاغية في تاريخ الأمم ولكنه مات كما يموت الرجال. ما الذي كنت تتوقع منه غير ذلك! لماذا لا تقول بالمقابل انه مات بنفس القدر من العنف والذل اللذين طبعا ممارساته المزرية تجاهنا. هذا رجل يستحق أن تكون ميتته مهينة! هنالك نوع من العدالة في ذلك.»

«هل نحن مثله يا حيدر؟ هل نقيس أنفسنا بمعاييره؟ وما الذي يمكن أن يقال عنا نحن الذين تركنا الإمام عليه السلام يموت وحيداً؟ ما الذي تقوله هاتان الميتتان عنا نحن؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن نوجهه لأنفسنا.»

«ها أنت تفعلها مجدداً... تقارن الطاغية بالإمام عليه السلام. الشيطان هو الذي ينطق بلسانك الآن!»

«توقف عن هذه النبرة، حيدر... سواء كان الإنسان قديساً أو شريراً، سوف تُكتب حياته بشكل مختلف عند موته، سيبدأ فصل جديد ينطق بلغة جديدة. أخشى أن هناك فصلاً آخر في حياة الطاغية سيستبدل ذلك القديم.

«كفاك هذه المزايدات حيدر! عندما يموت الرجال، الشرير منهم أو القديس، لا يعني أن سيرة حياتهم ستمحى، بل ستعاد كتابتها من جديد وبلغة مختلفة. بعد أحداث اليوم، أخشى ان الفصل الجديد من سيرة الطاغية سيكتب بما لا يروق لنا.»

أخذ حيدر يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وينظر اليّ نظرة غريبة. كان حانقاً، لكن أوان التراجع قد فات بالنسبة لكلينا. مع ذلك، حاولت أن أشرح أكثر:

«انا أجلُّ الإمام عليه السلام بنفس قدر إجلالك له... ومستعدٌ أن أضحي بحياتي من أجله لو كانت الفرصة قد سنحت لي، وأعرف أنك ستفعل الشيء نفسه. كذلك، أنت تعرف أكثر من غيرك مدى كرهي للطاغية. هل نسيت أن والدي اختفى بسببه؟ لكن ما حصل اليوم في غرفة الإعدام ليس النهاية... أخشى أن يكون بداية لشيء مرعب لم يكن بالحسبان.»

«قلّ لي ما الذي تخشاه تحديداً؟» قال حيدر وعلامات استفهام على وجهه.

«أخشى أن الطاغية سيظل يحكمنا حتى وهو ميت. أعدمناه بطريقة بشعة حرمتنا من التخلص منه، وهذا ما كان يريد. استحلفك بكل ما

خسرناه نحن الشيعة، أنت وأنا وكل المظلومين في هذا البلد، لماذا منحناه الكلمة الأخيرة؟»

«الحبل، هل جلبت لي قطعة من الحبل كما وعدت؟» قال حيدر محاولاً تغيير الموضوع.

•••

الحبل... ذلك الحبل اللعين! كنت أتمنى لو أنه نسيه... أو أنني لم أعده بقطعة منه.

قبل الإعدام بيوم واحد كنت مأخوذاً بشعور مبالغ بأهمية دوري. واستدرجني ذلك الشعور إلى طرح صفقة غبية على رفاقي في جيش الإمام الذين لم يكونوا محظوظين مثلي بمرافقة الطاغية إلى منصة الإعدام. قلت لهم انني سآخذ جزءاً من حبل المشنقة وسأبيع كل بضعة سنتمرات منه بآلاف الدنانير. بالطبع لم يكن في نيتي أن آخذ أي مال من حيدر لقاء قطعته، بل نويت أن أهديها له اعتزازاً بصداقتنا الطويلة.

بيع الحبل كانت فكرتي ولكنني سرعان ما أدركت أنّ هناك آخرين كانوا ينوون عمل الشيء نفسه. احتدمت المنافسة على الحبل، ورفع سعره عشرات الأضعاف. عندما غادرت المبنى كانت المساومات في أوجها، وحتى الوزراء وكبار المسؤولين كانوا يريدون انتزاع حصصهم منه، ليحتفظوا به ويتفاخروا بوجودهم في قاعة الإعدام في ذلك اليوم.

أكتظت بغداد بالسياسيين الجدد الذين كان حيدر يسميهم بالعراقيين الأجانب، أولئك الذين جاءوا مع دبّابات المحتل إلى مواقعهم الجديدة. كان همّهم يرتكز على السلطة والمال، مبتكرين طرقاً جديداً للسرقة ومفاهيم جديدة لما هو حق أو باطل، ومستغلين مناصبهم في عراقهم

الجديد. تخيل! قبل يومين فقط قرأت في الجريدة أن أعضاء البرلمان صوتوا على مشروع قانون لزيادة رواتبهم بأربعة أضعاف! الأسوأ بينهم هم أولئك الذين عادوا من الخارج، فقط من أجل أن يملأوا جيوبهم ثم يعودوا من حيث أتوا لكي يقبضوا صكوك الرعاية الاجتماعية من تلك الدول ويعطوها لنسائهم وأولادهم الذين تركوهم هناك.

هكذا بدأت قضية الحبل.

سويعات قليلة فصلت ما قبل الشنق عن ما بعده. قبل الشنق، كنت أتباهى بالكلام عن الحبل، وبعد الشنق، لم أشعر أن هناك أي شيء يستحق التباهي. بدلاً من ذلك تملكني شعور بالعار. لحسن الحظ لم يكن والديَ على قيد الحياة ليشهدا مدى شعوري بالعار في ذلك اليوم. لا أعرف ماذا كان أبي سيفعل لأنني لم أعرفه أبداً. لقد كبرت ونضجت في ضل أبٍ اختفى منذ عام ١٩٩١. لم يعثر أحد على أثرٍ لجثته. لقد بحثت كمهووس عن أثر له بعد سقوط النظام، ولم أتمكن من العثور على شيء. وحتى الآن، مازلت أشعر بأن جسده موجود في مكان ما، وكأنه حقيقة وليس حقيقة في الوقت نفسه، كالغبار الذي كانت أمي تجاهد لطرده من البيت يتسرب إلى الزوايا والدهاليز المعتمة في رأسي.

أمي ما كانت ستنطق كلمة واحدة عن الحبل. أعرف كيف كانت تفكر، فهي التي زرعت في داخلي حب النجاح والتفوق على أقراني في الصف، وهي التي طالما أشعرتني بأن العالم الخارجي هو عالم قذر، ملوث ويجب أن نتجنبه... نظراتها وحدها كانت تقول كل شيء. كانت عيناها ستخترقاني عميقاً وتفهمان ما في داخلي. كانت أمي تفعل ما تفعله الأمهات الطيبات في أرض ابتلت بالطغاة والثورات والحروب. بالنسبة لهن، السياسة هي الخيانة، والجنود كلهم قساة، والساسة كاذبون.

أمّا نحن، أبناء الطاغية الكبير، فقد كنا نتصرف وكأن العالم الملموس هو الواقع والدائم في الحياة؛ لم تكن الحرية ونهاية الحروب وعالم بلا طغاة هي الحقيقة... وحده الحبل هو الحقيقة.

مفتاح عالم جديد ـ نهاية الطغيان ـ قد أُختُزِلَ بأتفه أثرٍ له: الحبل الذي شنق به الطاغية. وعيت كل هذا متأخراً. أدركت بعد فوات الأوان اننا أصبحنا نسجد لأصنام جديدة، مثل تلك القطعة من حبل المشنقة.

عندما تدّلى جسد الطاغية من الباب السفلي، راكلاً الهواء بقدميه في محاولة يائسة للبقاء على قيد الحياة حتى آخر لحظة، رأيت نفسي على حقيقتها للمرة الأولى... وكأن شيئاً قد تعفن فيّ تلك اللحظة، وانبعثت من أعماقي رائحة نتنة لا يمكن إيقافها، ولا حتى صديقي حيدر، أو عمي الذي أدين له بكل ما كنت عليه، أو سيدي الذي آمنت به بحماس وصدق. أخذني هذا الشعور بعيداً، في حالة تيهان وبلا اتجاه، أضعت نفسي وغدوت ضائعاً بالنسبة للآخرين، لا أعرف مَن كنتُ أو من أين اتيتُ أو إلى أين أمضي. تلك كانت اللحظة التي فيها نفضت يديّ وتبرأت من ذلك الحبل المشؤوم.

الجزء الثاني

نيسان ٢٠٠٣ إلى تشرين الثاني ٢٠٠٦

دِقةُ الدراسة
قد تكشِفُ الجريمةَ كاملةً
من محمدٍ وحتى الآن
التي دفعت ثقافةً بأكملها
الى الجنون.
إكتشف ما حدث في البلاد،
أيَّ وَهم جِملاق هذا الذي خَلَقَ
إلهاً غاضِباً حاقِداً وقاسياً:
أنا والناس نعلمُ
ما تعلِّمه الأطفالُ في المدارسِ كافةً،
من وقَعَ عليه شراً
قابل الشر بالشر.

وينستون أودن

٢٠٠٣

النجف: ١٠ نيسان

«لا إله إلا الله»، ثم بعد ثوانٍ «لا إله إلا الله»، ثم مرةً أخرى، «لا إله إلا الله...» على إيقاع هذا النداء جرت مراسيم نقل الجنازة عبر زقاق بيتنا وتحت الشباك الخشبي المطلة على الزقاق والتي اعتدنا انا وأمّي أن نستخدمها كغرفة نوم.

كان تصميم ذلك الشباك المطل على الزقاق مفيداً لتضليل الشارع وإبقائه بارداً، وكذلك للحفاظ على خصوصية البيت وراحة من فيه، لكنه لم يقلل من الضوضاء القادمة من خارج البيت، بل بالعكس، هذا التصميم كثف الضوضاء بحيث إن موجات الصوت ظلّت تعبر من فتحات المشبك الخشبي أو ترتد بشدة بين الجدران الأربعة لغرفة نومنا.

قضيت طفولتي في النجف، ألعب وألهو وأحلم في شوارعها وأزقتها التي أَلِفَت الحزن وجنائز الموتى تمر عبرها. هنا يرقد موتى بأسماء معروفة منذ قرون، إلى جانب آخرين مجهولين جيء بتوابيتهم من كل أصقاع الأرض إلى المدينة لتمر من خلال محلتي، محمولةً على أكتاف الرجال المنتحبين وهم ينادون «لا إله إلا الله» من أجل أن ينتبه المارة ولا يعترضوا طريقهم.

يرغب كل شيعي في العالم أن يُدفن في المدينة التي ولدت فيها، أيّاً كان المكان الذي يموت فيه. انها الرغبة الأخيرة التي يفرضها الموتى

على أبنائهم الأحياء، وقد دفعتُ مع أمي ثمن ذلك... ضوضاء لا تنتهي من تحت شباك غرفتنا!

كان بيتنا يقع في محلة المشراق، على الجانب الشمالي الشرقي من المدينة، وتحتوي محلتنا على ضريح العالم الكبير وشيخ الطائفة، أبو جعفر الطوسي، الذي يمثل المصدر الأول لكل المدارس الدينية والفقهية الشيعية.

غادر الطوسي بغداد إلى النجف في القرن الحادي عشر، ليؤسس المدرسة الدينية التي تخرج منها منذ ذلك الوقت وحتى اليوم عدد كبير من العلماء، بعضهم ينتمي إلى أسر دينية معروفة في النجف مثل بيت الصدر، وبيت الحكيم، وبيت الخوئي.

وتحتضن محلتنا الكثير من الأضرحة الأخرى لشخصيات بارزة، فضلاً عن بيوت الزوار وخدام مرقد الإمام علي بن أبي طالب، أول أئمتنا وابن عم النبي وزوج ابنته، ووالد الإمام الشهيد الحسين الذي استشهد في أرض كربلاء القريبة والذي تأسست حول ضريحه مدينة بذات الأسم. وهذا المرقد هو صرح كبير يقع في مركز المدينة تُتَوجه قبة ذهبية تغطي الشباك الفضي الخاص بقبر الإمام. يسمع الزوار قصة المدينة وهم يؤدون مراسيم الزيارة: كيف طُعن جسد الإمام في الكوفة، وكيف وُضع على جمل وتُرك هذا الجمل ليسير على هداه في الصحراء ليلاً، ثم توقف في المكان الذي أصبح قبر الإمام الذي بني المرقد الكبير عليه، والذي كبرت المدينة من حوله.

ان عدد الناس المدفونين في النجف يفوق بكثير عدد الذين يعيشون فيها، لكن ليس هناك من يعرف العدد بدقة. ومقبرة المدينة الكبيرة المسماة بوادي السلام، والتي قاتلنا على أرضها المحتل في العا

٢٠٠٤، وصمدنا لشهور عديدة، تتصل بالمرقد وتمثل أكبر مقبرة في العالم. يأتي الزوار إلى المدينة بمئات الآلاف، لا يفوقهم في العدد سوى الحُجّاج الذين يذهبون إلى مكة في موسم الحج. وخلال زيارتهم، يبكون ويستذكرون موت الإمام، الذي كان موتاً للعدالة نفسها. يفعلون ذلك رغبةً في أن يلقوا الاثنين، الإمام والعدالة، في يوم الحشر. وأولئك الزوار الذين يدخلون المرقد من الشمال، يدخلون عبر بوابة الطوسي المسماة باسم عالمنا الكبير، والتي تفصلها عن بيتنا عشر دقائق من المشي.

يحتاج هؤلاء القادمون الجدد إلى المدينة إلى من يطعمهم ويسكنهم ويغسلهم ويدفنهم ويخبرهم بكل القصص الطويلة، ويبيعهم الحلي الرخيصة أيضاً. أضف إلى ذلك ما نسميه نحن الشيعة بـ«حصة الإمام»، وهي خمس دخلهم الذي يدين به الشيعة إلى رجال الدين في غياب الإمام الثاني عشر. اذن، ليس مبالغة القول إن اقتصاد مدينتي يعيش على الموت والموتى.

يشتهر سكان النجف بكونهم أذكياء وفطنين، وأيضاً بكونهم يخادعون ويشاكسون الغرباء، ويعاملونهم كفرائس يجب الانقضاض عليها. وهم يكرهون بشكل خاص طلاب الدراسات الدينية الذين يأتون إلى المدينة للدراسة، ويحظى الطلاب القادمون من إيران بالحصة الأكبر من هذه الكراهية. أن أهالي المدن المقدسة عامةً هم في العادة أقل اهتماماً بأظهار الإيمان واحترام قدسية المكان من زوارها الأتقياء المبهورين والقادمين من شتى أنحاء العالم.

الموت هو الحاكم الوحيد الذي عرفته النجف، ولذلك كانت أمي تسميها «مدينة الموت» وتنصحني دائماً، حتى وأنا طفل صغير، أن لا

اترك أطفالي يكبرون في هذا المكان الذي يعمه الفأل السيء، وهو ما كان يغضب عمتي التي وجدت أن كلمات أمّي تخلو من الاحترام للإمام إن لم تكن تقترب من الكفر.

لم تكن أمّي، بالطبع، تملك الكثير من الخيارات عندما اختفى والدي في عام الانتفاضة ضد الطاغية. لكنهم أخبروني انه كان إلى جانبها وهي تلدني في عام وصول الطاغية إلى السلطة، وانه كان يحملني بين ذراعيه لساعات قبل أن تبتلعه الحرب مع إيران. فمنذ ذلك الحين، لم نره الاّ فيما ندر. وقد إحتضنني عمّي، الذي كان متزوجا من شقيقة أمّي، وتربيت في بيته الذي كان في الأصل بيت جدّي، والد أبي، وقبل ذلك أبيه وجده.

تُطوق البيت ثلاثة بيوت أخرى، أحدها كان يشاركنا الجدار الخلفي. ويمر المدخل الوحيد للبيت عبر الفناء الواقع على الجانب الغربي، وفي وسطه نمت شجرة الرمان التي كان عمّي يفخر بها. ويبلغ طول هذه الشجرة القديمة ثمانية أمتار ولديها فروع متشابكة تمتد فوق الفناء، وهي على هذا الحال منذ كان جدّي طفلاً صغيراً، حيث اعتاد أن يسقي الشجيرة يومياً عند بداية المساء. ومن الفناء هنالك فتحة تؤدي إلى الممر القصير الذي يقود إلى أزقة ملتوية تمر من جانب كلية الدين التي أقامتها عائلة الصدر، وتنتهي تلك الأزقة عند باب الطوسي الذي يمثل المدخل الشمالي لمرقد الإمام.

بسبب القرب من المرقد، واللغط الذي سمعناه عن الهياج الذي كان يحدث في فناء المرقد، رأيت ما رأيته في ذلك الخميس النيساني الذي صادف اليوم الأول لسقوط بغداد واحتلال الأجنبي لبلدي.

رجل في الزقاق

حينما كنت أعبر الزقاق المؤدي إلى باب الطوسي، وجدتني أمام حشد من الرجال المتجهمين من أهل المنطقة وقد قطع اكتظاظهم الطريق. كانوا حوالي عشرين أو ثلاثين رجلاً ملتفين بصمت حول ما بدا لي انها كومة ملابس مرمية على الأرض، متربة ومتسخة ومدمّاة. ألقيت نظرة من بين فتحات دشاديشهم البيضاء، وأدركت حينها أن كومة الملابس تلك كانت تحتوي على جسد رجل.

«من هو؟» سألت عمّي الذي كان ينظر إلى المشهد عابساً.

«عمّيل أمريكي»، أجابني. «هؤلاء العملاء موجودون في كل مكان، لقد سقطت بغداد بيد الأمريكيين، ويجب أن نكون متيقظين.»

«أين صدام؟»

«تمت رؤيته هذا الصباح في مسجد أبو حنيفة في الأعظمية. دخل حرسه الخاص في مناوشات مع القوات الأمريكية المتقدمة ثم اختفى معهم. أنا متأكد انه سيقود مقاومة ضد المحتلين.»

نفذت برأسي في الحيز الضيق بينه وبين الرجل الواقف على يمينه، واندفعت قليلاً للأمام من أجل رؤية المشهد على نحوٍ أفضل.

«إنه يبدو كواحد منّا، كيف تعرف أنه عمّيل أمريكي؟»

«كان يحمل الكثير من الدولارات معه.»

كانت جثة الرجل تضطجع على أحد جانبيها، أطرافه تشابكت، وأصابعه متربة تنتشل بعض الأنقاض، وكان الدم في كل مكان، وقد غطّى قميصه تماماً. أحصيت ست عشرة طعنة في جسده لكنني لم استطع مواصلة العد، وفيما بعد اكتشفت انه طُعن أكثر من مائة طعنة، لكنني لم أعثر على اثرٍ لدولار واحد.

حينما عدت إلى البيت، وجدت أن والدتي قد عرفت ما حصل في الزقاق. كان وجهها شاحباً وكأنها قد رأت شبحاً. رفضت أن تتحدث عما حصل وبالكاد استطاعت أن تكتم غضبها لأنني بقيت طويلاً في مكان الحادث. لم تكن تصغي لي، ويبدو أنها قد عرفت، بطريقة ما، الشيء الكثير عما حصل هناك.

«لقد كان عميلاً أمريكياً»، قلت لها محاولاً دفعها للإصغاء اليّ بجدّية.

«ما الذي يجعلك تعتقد ذلك»، قالت بغضب وبلا رغبة في الإسراف بالكلام.

«لأن الأمريكيين دخلوا بغداد يوم أمس وهو كان يحمل دولارات»، أجبتها بطريقة غير مقنعة.

«رجلٌ يذبحه في عز النهار عدد كبير من الرجال وأمام آلاف الشهود، ثم تأتي وتلقي الاتهامات عليه جزافاً. كيف لا يرى ابني وابن أبيه في هذا القتيل ضحية، مثله مثل الكثير من الضحايا الذين لدينا كفاية منهم؟ هل رأيت الدولارات بعينيك؟»

«لا، لكن عمّي قال...»

«قال! الناس يقولون أشياء كثيرة.»

«ولماذا سيقول عمّي ذلك إن لم يكن الأمر صحيحاً؟»

«ما يقوله الناس مصدره الألم الذي كابدوه والذي يجعلهم لا يتعاطفون مع الآخرين، بل يتمنون لهم ألماً مماثلاً.»

كان ذلك أقوى نقد سمعت أمي توجهه نحو الأخ الأكبر لأبي، هذا الرجل الذي اعتمدنا دائماً على حمايته وكرمه. لم أفهم حينها ما الذي يجري ولماذا تحدثت بهذه الطريقة.

«هل تعرفين من هو الرجل القتيل؟» سألتها.

لم تجب، ولم تُصغِ لكل محاولاتي لأقناعها بالإفصاح عن اسم القتيل.

الزحف إلى كربلاء

في اليوم التالي، انضممت إلى عمّي وأصدقائه، من دون أن اخبر أمّي، في مشية لمدة ثلاثة أيام إلى كربلاء، دعا إليها السيد ابن عائلة الصدر في أول خطبة جمعة يلقيها من مسجد والده في الكوفة، في ١١ نيسان. اغتال عملاء الطاغية أباه في عز النهار، قبل أربع سنوات، ولذلك حضر الجميع إلى خطبة السيد للاستماع لما سيقوله. لكنه لم يدعونا للاحتفال بسقوط الطاغية في ١٠ نيسان، بل دعانا للذهاب مشياً على الأقدام معه إلى مدينة كربلاء المجاورة، حيث مرقد الإمام الحسين بن علي، في ذكرى أربعينية استشهاده على ضفاف الفرات في القرن الأول للإسلام.

رأيت الجموع في ذلك اليوم يبكون الإمام الشهيد وكأنه قد مات بالأمس. وعند الوصول إلى الضريح كانوا يلطمون على صدورهم ووجوههم، ويجلدون ظهورهم بزناجيل حديدية حتى يخرج الدم منها ويغطي قمصانهم البيض. وهي طقوسٌ كان يرفضها الكثير من علماء الحوزة.

لم يكن عمّي راضياً عما يحدث، «هناك من علمهم ان ذرف الدموع ونزف الدماء عند استذكار شهادة الإمام هي فضيلة كبيرة»، قال وهو يشعر بالغضب على نفسه لأنه أظهر شيئاً من التأثر. سحبني بعيداً وهو يقول «استيقظوا في منتصف الليل على معجزة، حلموا أنهم شاهدوا

الإمام وقد شفيت جروحه بدموعهم. أغبياء! حمقى! كيف يمكننا أن ننتصر بهذا النوع من الأتباع.»

هل كان يقصد حقاً ما قاله، أم أنه أراد فقط أن يغطي على مشاعره؟ لا أعرف. حينها آمنت بأن لدى السيد نواياه التي يدركها وحده وراء الدعوة للمشي إلى كربلاء في هذا اليوم ليربط بين حدثين: سقوط الطاغية والقتل البشع لإمامنا الشهيد على يد طاغية زمانه، يزيد بن معاوية، قبل ألف وثلاثمائة وثلاثة وعشرين عاماً. لكنني لا أعرف كنه تلك النوايا تحديداً.

كنت أسير مع عمي وسط حوالي مليون زائر من الرجال والنساء والأطفال الذين حثوا الخطى إلى كربلاء استجابة لنداء السيد، وكانت المروحيات الأمريكية تحلق فوقنا وكأنها حشرات سوداء، حينها ملأني شعور بالفخر وأنا أحمل الراية وسط المعزين بموت الإمام. كان ذلك الماضي حاضراً حينها، وكأن العدالة التي سعى إليها الإمام قد تجسدت فينا. ذبتُ وسط أمواج البشر وهم يسيرون ببطء وينتحبون، وكأنني حبة ملح في محيط هائل.

لقد منحني السيد الشعور الذي كان من المفروض أن أشعر به منذ وقت طويل، خصوصاً المشاركة في طقوس عاشوراء والأربعينية التي حرمتني منها والدتي في سنوات سابقة بسبب خوفها من عملاء النظام الذين كانوا يراقبون الزوار وخصوصاً الشباب منهم. كانت تقول «يمكنك أن تحزن وتبكي الإمام بمفردك، وعندها سيسكن الإمام قلبك.» لكن مع سقوط الطاغية لم يعد هنالك من داعٍ لكي يتخوف الشباب الشيعة من المشاركة في تلك الطقوس. بالخلاصِ من الطاغية وُلد إمامنا الشهيد من جدّيد وحانت لحظة الاحتفال. حظيت بشرف الزحف إليه، إلى جانب

الفقراء والمحرومين الذين بدأت أشعر الآن وللمرة الأولى انني جزء لا يتجزأ منهم. اذن، لم يكن الأمر مجرد عزاء، بل كان إظهاراً لقوتنا عندما نسير جميعاً كصفٍ واحدٍ.

مشيت إلى جانب عدد كبير من الأطفال والرجال والنساء من كل صنوف المجتمع، بينهم المريض والمعوق والأعمى، وما أن اقتربنا من كربلاء حتى بدأوا ينتحبون ويبكون ويلطمون، وبعضهم راح يضرب صدره بقبضته أو يجر خصلات شعره بقوة. مَلأني هذا المشهد بشعور بالقوة، أصابتني دموعهم بالعدوى، فرحتُ أبكي أيضاً دون أن أعرف لماذا ومن أجل مَن.

هذه المرة، مسك عمّي رأسي بهدوء لا يشبه صرامته السابقة، مسح دموعي بكفيه ونظر في عينيّ عن قرب قائلاً:

«لا بأس أن تبكي ابني. أبكِ بسبب الظلم الذي تعرض له الإمام الحسين، ابكِ لعطشه بعد أن حُبس الماء عنه، لمقتله مع أفراد عائلته بوحشية من قبل جيش عدده أضعاف عددهم بعشرات المرات. تلك هي قصة المظلومين، تعبر عن ما يختلج في داخلهم، وهي تجسد وضع المحرومين والفقراء في كل مكان من العالم. هؤلاء المظلومون، ليس لديهم أسماء أو قبور أو أوطان. لهذا السبب علينا أن نبكي لأجلهم.

«ولكن عندما تبكي، تمعن في كل هذا البكاء. فهو ليس فقط مواساةً لآل البيت وإنما نفعل ذلك لأننا قطعنا عهداً بالولاء له ولآل بيته، لقد طلبنا منه أن يقطع مئات الكيلومترات عبر الصحراء، وحين استجاب لندائنا، تخلينا عنه. معظمهم ينسون أننا تركنا حفيد النبي وعائلته يُقتلون على أيدي أعدائنا. ابكِ طلباً للمغفرة عن ذلك الذنب الذي اقترفناه يا ابني. ابكِ لأن ذلك هو عبئنا نحن الشيعة. أبكِ لأنه مات لأجلنا ونحن

وُلدنا محملين بالذنب لذلكَ.» وفجأة توقف عن مسك وجهي، وقبض على يدي مشيراً نحو الرصيف عند نهاية الطريق.

«انظر هناك! هل ترى ذلك الرجل الحافي الذي يجلس على حافة الطريق، يبكي دون أن يواسيه أحد... وهناك، تلك المرأة المغطاة بالسواد وهي تتطلع إلى السماء، تناجي الحسين بدموعٍ منهمرة! انهم يبكون الإمام، وهم أيضاً يبكون حظهم السيء في هذه الدنيا... ابكِ معهم، ولكن قبل ذلك، ابكِ لأجلهم... ثم اسأل نفسك ما الذي يمكنك عمله لأجلهم!»

• • •

غيّر سقوط الطاغية شعباً بأكمله، كل ما كان ينقص حينها هو شرارة التغيير، وجاءت دعوة السيد إلى الزحف نحو كربلاء لتشعل هذه الشرارة.

لكن، مازالت في مخيلتي صورة تلك الجثة في زقاقنا، تضطجع على بعد «شمرة عصا» من ضريح أمير المؤمنين. بقيت أسأل عنه، عن اسمه، بالتأكيد كان لديه اسم وعائلة ونسب، سألت كل من صادفته، لكن كل من سألته أجابني بهمس «لا أعرف» ـ كانوا جميعهم يهمسون، وجميعهم لا يعرفون، ولكن بدا لي في إجاباتهم الهامسة انهم كانوا يقولون «لا نريد أن نعرف. لاتسألنا.»

غير أن عمّي كان يعرف، وأمي كانت تعرف، والكثير من الناس كانوا يعرفون. رغم ذلك، لا أحدَ قَبِل أن يتحدث لي عن ما حصل، وكأن شيئاً لم يحصل، أو كأن ما حصل لم يكن أكثر من خيال. وكشابٍ شارك أهل منطقته الاعتقاد بأن أربعة آلاف يهودي تغيبوا عن العمل يوم

١١ ايلول ٢٠٠١ لمعرفتهم بالهجمات التي ستقع على مبنى التجارة العالمي، والتي نفذها الموساد الإسرائيلي لأنه ليس هناك عربي يمكنه القيام بفعل كهذا، فقد كان كافياً بالنسبة لهذا الشاب ان يصدق بأن الرجل صاحب الجثة في زقاقنا كان عميلاً أمريكياً حتى يصبح كذلك.

امي

لدى أمّي قواعدها الخاصة حول ما يجب وما لا يجب قوله. لطالما حاولتُ أن أسترق السمع لأحاديثها الهامسة في آخر الليل، لكنها كانت دائماً تشعر بوجودي خلف الباب أو في أعلى السلم وتنهرني عن عمل ذلك. لا أحد في عائلتي كان يناقش الأمور المهمة بصوت عالٍ، كانوا يهمسون دائماً. في الحقيقة، عندما ترى أحدهم يهمس يمكنك الافتراض بأن الموضوع الذي يناقشونه هو موضوع مهم. شعرت بوحدتها من حديثها الهامس لا من نقاشاتنا العادية. قالت لي مرة اننا نحن العراقيين نتكون من نوعين من الهامسين. النوع الأول هم أولئك الذين يهمسون خشية من أن يسمعهم المتطفلون، وهو النوع الجيد. والنوع الثاني هم الذين يهمسون للسلطات من خلف ظهور الناس. علّمتني انني يجب أن لا أكون أبداً من النوع الثاني، وأن لا انتصت على النوع الأول. لم تثق بأحد، حتى عمّي وشقيقتها. وبسبب مخاوفها وشكوكها، فقد عزلتني عن العالم الخارجي كثيراً، وسيّجت عزلتي بجدار من الصمت، نفس الصمت الذي طبق على شفتيها وأنا أسألها عن الرجل القتيل في الزقاق.

ولدى أمّي قوانينها الخاصة الأخرى. فمثلاً، حدّدت السبت باعتباره اليوم الوحيد الذي يمكن فيه غسل الملابس، وحرّمت السفر خارج المدينة يوم الاثنين، أو شراء شيء جديد بعد ظهيرة يوم الثلاثاء،

والأربعاء هو اليوم الذي تطبخ فيه السمك حتى لو كان الوضع الاقتصادي لا يسمح بأكثر من قطعة صغيرة، امّا الجمعة فكان اليوم الوحيد الذي يُسمح فيه بقص أظافر اليدين والقدمين، حيث يتم بعدها جمع بقايا الأظافر ودفنها في الحديقة. سألتها مرة «يمّة، لماذا علينا أن ندفنها؟»، وكنت أريد أن أرميها في الزبالة واختصر الموضوع. أجابتني: «لأنها جزء من جسدك الذي صنعه الخالق من هذه التربة، والى هذه التربة يجب أن تعود.»

كانت قواعدها عملية، صنعتها المعاناة والآلام، وصارت تعطي نوعاً من الانتظام لحياتها.

كانت شخصاً لا يتردد في التضحية من أجل الآخرين، لكنها لم تكن تفصح عن ذلك أبداً، بل وكانت تنكره أحياناً. تحول حزنها إلى نوع من المرارة، ومن ثم إلى شكٍ عميق بالنوايا. عندما تشعر أن هناك حماقة، حتى لو كانت بنية سليمة، ترد عليها بكلمات لاذعة، وكانت تتصرف بدراية مَن علّم نفسه بنفسه، وتعرف جيداً كيف تسيطر على كلماتها وأي كلمات تختار.

أحياناً كانت تدخل شجارات صغيرة مع أختها لكن يردعهما الخوف من تسرب ما تقولانه عبر جدران البيت التي لا تعزل الضوضاء. أحد أسباب التوتر داخل البيت كان فقدان الخصوصية، فغرفة نومنا في الطابق الثاني أصبحت أيضاً غرفة للدراسة خلال فترة مراهقتي، أو عندما كان المطبخ مشغولاً. كانت الغرفة مكاناً للنوم وللدراسة ولاستقبال الأصدقاء، مجهزةً بمطبخ صغير جداً تضع أمّي فيه قناني الماء وهناك رفّان صنعتهما بنفسها لتخزن عليهما البسكويت والشاي. أما مطبخ البيت، فكان مكاناً للشجار الذي قد ينفجر في أي لحظة، ويؤدي إلى

قطيعة بين أمّي وأختها، تنتظر عمّي كي يحلها. حاول عمي كثيراً أن يهديء مخاوف أمّي، لكن لا يبدو لي أنّها سامحته أبداً على الأمر الذي كان لغزاً محيراً بالنسبة لي.

أصعب محنة كابدتها أمّي هي فقدانها لأبي، زوجها، ابن عمّها، وحبيبها منذ الطفولة. فقدته بعد عامين من الزواج. فإن كان البقاء يعني تعلم النسيان، فإن أمّي لم تكن قادرة على ذلك وبقيت سجينة ذكرياتها.

هنالك الكثير من الأشياء التي لم تعرفها عن أبي منذ لحظة اختفائه. لم تعرف ما إذا كان ميتاً أو أنه محتجزٌ في معسكرٍ ما، أو أنه مسجون، وان كان كذلك فما هي جريمته. معرفة مثل هذه الأشياء مهمة لأن الطريقة التي يختفي بها شخص بهذا القرب، أو السبب الذي يسجن لأجله، يرتبان طريقة حياة المقربين من هذا الشخص بعد ذلك. لم تدري أمّي ما الذي يمكنها أن تقوله لي، فكلما عرفتُ أقل كانت حياتي أسهل. هي لم تعرف أيضاً ما الذي يعرفه الآخرون عن اختفاء أبي، ان كانوا يعرفون شيئاً، فلا أحد تحدث إليها حول هذا الشأن، ولم تحض حتى بفرصة دفنه والنحيب عليه لو كان ميتاً.

ظلت ترتدي الأسود منذ اليوم الأول الذي تلا اختفاءه وحتى وفاتها. وحين كانت تشتري قطعة ملابس سوداء جديدة، فقد كانت تنتظر حتى مجيء عاشوراء، ذكرى وفاة الإمام الحسين، من أجل ارتدائها. أخبرتني بأنها لن تتوقف عن لبس السواد حتى يعود أبي أو يتم العثور على جثته.

لم يكن هناك شيء يضفي على حياتها البهجة سوى تفوقي في المدرسة. فبعد ذهاب أبي لم يعد هناك من يواسيها أو يظهر لها العطف، لذلك كانت تحتاج إلى أشياء صغيرة وبسيطة بل وحتى تافهة لتحيا. لكن لا أحد أعطاها هذه الأشياء التي كانت تجعل وجهها يضيء فرحاً،

فالعلاقات كلها كانت تتمحور حول العمل والواجب والالتزام. أشعر بالندم لأنني لم امنحها مثل هذه الأشياء، وإن كانت بسيطة، مثل ان اشتري لها شيئاً عملياً، قوري شاي جديد بديلاً عن القوري المكسور.

قَبلت أمي بصداقتي لحيدر لأنها كانت تعرف ان هناك الكثير من الأشياء المشتركة بيننا، فنحن نعيش في المحلة نفسها وبجوار الشارع نفسه وكذلك الجامع. الأهم من ذلك، اننا نحن الاثنين ولدنا في ذات العام الذي صعد فيه الطاغية إلى سدة السلطة، وكبرنا بدون أب بسبب الطاغية، وبفعل الحرب الكبيرة التي تلت صعوده. الشيء الوحيد الذي أقلقها فيما يخص حيدر هو شعورها بأنه كان يفتقر إلى التوازن، قلقاً لم ألمسه منها عندما كنا أولاداً صغاراً. كانت متعتها الكبرى حينذاك ان توقظني من النوم صباحاً وتراني اندفع إلى الجامع لاداء صلاة الفجر مع حيدر ثم نذهب كلانا إلى المقهى المجاور لتناول فطورنا المكون من الصمون الحار والقيمر الذي يؤتى به طازجاً من مدينة الحلة المجاورة.

حين كبرت، أصبحت الكتب سلوتي الأولى. أتذكر قراءة كتاب لديستويفسكي، لأن أمي قالت أنها مع أبي كانا يعشقان الكُتّاب الروس، وكانا يعرفان مدرساً عجوزاً درس في الاتحاد السوفيتي وهو الذي اعطاهما نسخة عربية من الرواية. كنت أرى الرواية في البيت طوال سنوات لكنني لم أنهِ قراءتها الا خلال زحفي نحو كربلاء، الذي لم اخبر أمي عنه.

لتخفيف شعوري بالذنب بسبب غيابي وكذبي عليها بشأن الذهاب إلى كربلاء، سألتها ان كانت راغبة بسماع السطور الافتتاحية من الرواية. في البداية، شعرت أمي بالسعادة لانني أقرأ كتاباً من مكتبة أبي، ولكن حين بدأت بقراءة السطرالاول على لسان بطل الرواية، ويتحدث عن

رجلٍ غاضبٍ وحاقدٍ على مجتمعه يعيش في الهامش ويقول لنفسه: «أنا رجل مريض... أنا شرير وغير جذاب...»

صرخت «كافي»، ثم سألتني «لماذا تريد أن تقرأ عن رجل من هذا النوع؟»

«لأنه كتاب رائع. انا أريد أن أكتب شيئاً يشبه هذه الرواية، أريد أن أصبح مثل ديستوفسكي»

«والدك كان يحبه، كما كان يحب كل الأدباء الروس الكبار. لقد حفظت كتباً أخرى لهذا الكاتب في مكان آمن، انه الوقت المناسب لك كي تقرأها.»

«لكن ما أريده حقاً هو أن أعرف من هو الرجل المقتول في الزقاق»، سألتها محاولاً انتهاز فرصة مزاجها المرتاح والحميمية التي نمت بيننا ونحن نتحدث عن أبي وكتبه. لقد سألتها هذا السؤال مراراً وتكراراً من قبل، فعمّي لم يقبل الحديث في هذا الموضوع أبداً، لكن أمّي كانت أكثر تفهماً لما يثير قلقي واهتمامي. مع ذلك، حتى في تلك اللحظة، لم تستدرج أمّي للاجابة على سؤالي، لم تجب لا حينها ولا في أي وقت آخر، وكان ردّها على الدوام:

«هنالك أشياء من الأفضل أن لا نعرفها.»

«أقرأ هذه، وربما سنتحدث لاحقاً»، قالت وهي تعطيني كتاباً آخراً، ثم واصلت «اشتريته لأبيك خلال إحدى اجازاته. كان أمراً كبيراً بالنسبة له. لقد اعتاد أن يقرأه ويعيد قراءته لأصدقائه في الجبهة.»

أعطتني كتاباً مجلداً لكاتب مصري، وعنوانه «مأساة الحلاّج». عند فتح الكتاب بصفحاته القليلة البالية من كثرة تصفحه، وجدت على

صفحته الأولى أسم أبي وقد خَطّهُ بحروف واضحة ودقيقة وتحتها عبارة «النجف، ١٩٨٨.»

سألتها «لماذا ١٩٨٨؟»

«أنه اليوم الذي تم تسريح أبيك فيه بعد خدمته ثمانية أعوام في الحرب مع إيران. كنّا سعداء في ذلك اليوم، واعتقدنا أنّه بداية حياة جدّيدة أفضل من التي مضت. في ذلك اليوم أتلف أبوك ملابسه العسكرية وكل ما له صلة بتلك السنين في الجبهة عدا هذا الكتاب الذي بين يديك.»

«وهل كانت كذلك فعلاً؟»

«كانت سعادة قصيرة، فبعد فترة وجيزة استدعوه مجدداً لصفوف الجيش.»

«ولماذا لم يعد والد حيدر في العام ١٩٨٨؟»

«سمعنا أنّه قد أُسِر... والبعض يقول أنه هرب من الجيش خلال الحرب. كل ما أعرفه أنّه استقر في إيران، وعاد لفترة قصيرة في العام ١٩٩١، ثم هرب مجدداً بعد الانتفاضة... هل تتذكر أباك؟»

«هنالك بعض الصور المتناثرة في ذهني عنه، أتذكر محادثات قصيرة... أتصوره جالساً على الكرسي في غرفة النوم، يدخن لساعات ولا يفعل أي شيء آخر سوى التطلع من شباك الغرفة. كأن جسده موجود هنا وعقله في مكان آخر.»

«الحرب كانت تشغله، الحرب شيء يصعب تحمله.»

«ثم... اختفى أبي مجدداً.»

«قرر الاختباء بعد أن رفض الخدمة في الجيش مجدداً... قال أنه لن

يحارب مجدداً من أجل الطاغية، حتى وأن كانوا قد منحوه علة أنواط شجاعة خلال الحرب السابقة. ألم تعرف عن هذه الأشياء؟»

«لا. أين اختبأ؟»

«هنا، في النجف، اختبأ في سراديب البيوت العتيقة. هنالك شبكة كبيرة من تلك السراديب تحت أقدامنا. لم يخبرنا أين كان يختبئ تحديداً من أجل حمايتنا، لكننا التقينا سراً عدة مرات. كان يقف أحياناً عند زاوية الشارع ليراقبك وأنت تذهب إلى المدرسة...»

«لم أره يفعل ذلك أبداً...»

«لم نستطع المخاطرة بإخبارك، لم نكن نريد خروج أي كلمة بالخطأ قد تودي بحياته.»

«لكنني أتذكره بعد احتلال الكويت.»

«نعم، لأن الأمور تغيرت. كان لدى الطاغية مشاكل أكبر تشغله عنّا حينها، فالأمريكيون كانوا يحشدون قواتهم في السعودية ويستعدون لمهاجمته. أبوك انتهز الفرصة وجاء إلى بيتنا على نحوٍ غير متوقع، وأنفق ساعات طوال معك حينذاك.»

«وخلال انتفاضة ١٩٩١؟ أتذكره في تلك الأيام؟»

«بقيّ في البيت لمدة ثلاثة أسابيع»، قالت والدموع تخرج من عينيها، «تلك كانت أطول فترة قضيناها معاً تحت سقف واحد... ثم اختفى...»

«ما الذي حصل؟»

لم تجبني.

إعدام في بغداد

الصفحات المطعجة والمصفرة للكتيب الذي أعطتنيه أمي، وعددها خمس وسبعون، تساقطت حين فتحته للمرة الأولى. تحكي تلك الصفحات قصة قديمة تعود إلى أكثر من ألف عام مضت. القصة عن اعتقال ومحاكمة وصلب معلم صوفي، اسمه الحلاج، بتهمة الهرطقة. تم بتر أطرافه، ومن ثم تعليقه حياً على شجرةٍ في مكان عامٍّ في بغداد، وأخيراً، قُطع رأسه وعُلّق على حائط السجن قبل أن يتم ارساله إلى الأقاليم المختلفة لإقناع أتباعه بأنه قد مات. تم إحراق ما تبقى من جسده، ورمي رماده في نهر دجلة، فارتفع منسوب المياه غضباً على الصلب وكاد يغرق بغداد. وعندما هدأت مياه النهر، يقول البعض ان رماد الحلاّج طاف فوقها، وتحوّل إلى كلمات مكتوبة فوق سطح الماء: «أنا الحقيقة المطلقة»، تلك كانت الكلمات التي صُلب الحلاّج لأجلها.

قراءتي الأولى للكتاب أربكتني، لكنني أنجذبت لسطورٍ كان أبي قد وضع خطوطاً تحتها بقلم فاتح. من بين تلك السطور واحد ينطق عن لسان الحلاّج: «من يقتلني سوف يصنع من رمادي قصة وأمثولة». كانت هناك جملٌ أخرى عن الحب والوجد، فالحلاّج أحبَّ الله إلى درجة لم يعد معها قادراً على مواصلة الحياة العادية، وكان هذا الحبّ يدفعه للبكاء بلا توقف. هل أحبَّ الحلاّج الله إلى الحد الذي جعله يسعى للذوبان تماماً فيه؟ أم تلك كانت هرطقة؟ استغربت لقوله أنّه أحبَّ الله

بهذه الشدة لأنه أراد أن يهرب من الموت، لكن في اللحظة التي بلغ فيها حبُه حدّ الكمال، حُكمَ عليه بالموت، وكأنّه هرب من الموت إليه. ملأتني رغبة بفهم ذلك اللغز.

تخيّلت أبي وهو يجلس في الخنادق إلى جانب زملائه من الجنود الشيعة، وهم يتصدون لأمواج الجنود الإيرانيين في شبه جزيرة الفاو، وكل واحدٍ منهم مستعد للشهادة. وبين جولات القتال، يقوم أبي بقراءة فقرات من هذا الكتاب القديم، وبعد ذلك يقوم بطيّه ودسه في جيوب لباسه العسكري وهو يستعد للهجوم القادم. وضع أبي تحت كلمات الكتاب التي تتحدث عن الحب خطوطاً غامقة، وكأنه كان مصراً على تمييزها عبر الضغط بقوة على القلم إلى الحد الذي أخذ الخط يحدث شقوقاً في ورقات الكتاب. أتخيل أبي يقرأ، وربما يبكي، مأساة الحلاّج، وهو يقضي لياليه في الجبهة وبين الخنادق. ثم بعد ذلك رأيت الرجال والنساء الذين كنت أسير بينهم نحو ضريح الحسين، يمشون بملابس رثة، ويضربون صدورهم حزناً على الحسين. هل كانوا نفس الناس الذين بكى الحلاّج لأجلهم قبل قرون؟ لقد بكيت، وكل من كان متواجداً بكى أيضاً... قرون مضت... والبكاء بسبب الظلم لم يتوقف أبداً.

لكن على الرغم من كل تلك الدموع، لا بد ان قصة الحلاّج قد ارتقت بروح أبي ورفعت معنوياته وهو يكابد الوضع المزري للعيش في خنادق تلك الحرب الطويلة، كما ارتقت روحي وأنا أندمج بالجموع الماشية نحو كربلاء. كم كان رائعاً لو كان بإمكاني العيش في داخل روح رجل كهذا.

اتجهتُ بنظري نحو صورة ذات إطار فضي على منضدة الزينة

الخاصة بوالدتي، وظهر فيها أبي وهو شاب في يوم زفافه، يقف إلى جانب عروسه. شعرت حينها أن تلك المسافة التي فصلت بيننا كأب وأبن قد تلاشت. بقيت تلك الصورة في هذا المكان منذ رأيتها أول مرة، وفيها يرتدي أبي سترة أنيقة وربطة عنق موضوعة بعناية وحذاءً جلدياً أسود. أما أمي فكانت ترتدي ثوب زفاف مطرزاً شديد البياض. كان يتطلع إلى وجه أمي، وهي تبادله نفس النظرة... كأن هناك سراً في نظراتهما... كم أشتاق لأبي في مثل هذه الظروف.

سيارة مفخخة

حصل الانفجار في يوم الجمعة من شهر آب، أشد أشهر الصيف حراً. اهتزت جدران بيتنا من شدة العصف الذي سبّبه الانفجار. كأن ماحصل هو صدى لما جاء به القرآن:

إذا زلزلت الأرض زلزالها

وأخرجت الأرض أثقالها

وقال الإنسان مالها

يومئذٍ تحدث أخبارها

بأن ربك أوحى لها

يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم

اندفعت أمي نحو رفوف المطبخ المهتزة بينما سقط قوري الشاي من فوقها وتهشم على الأرض.

أمّا أنا فقد ركضت نحو مصدر الصوت والدخان، وبلغته بعد ١٥ دقيقة. بدا وكأنه مشهد من جهنم: أحجار متساقطة من واجهات المباني المجاورة، أكشاك الباعة المتجولين تحولت إلى خشب محترق، ملأت الدماء والسخام الأرصفة، وتناثرت الاجساد المحترقة والمتفحمة والمقطعة في الشوارع. كان الناس يركضون بلا غاية، وبعضهم يجلس على الطريق ويبكي بحرقة. ليس هناك إنسان يمكنه نسيان هذا المشهد.

انبعث من السماعات صوت يقول «انّا لله وانّا إليه راجعونَ.»

بعد انتهاء صلاة الجمعة، بينما كان المصلون يغادرون مرقد الإمام، انفجرت سيارة محملة بالمتفجرات على بعد أمتار من مدخل ضريح الإمام علي، لتقتل مائة وخمسةً وعشرين من المصلين الذين أدّوا صلاتهم خلف السيد الكبير من عائلة الحكيم. لقد وضعوا القنبلة تحت مقعد سيارة السيد. يا ترى من كان بإمكانه الإقدام على مثل هذا الفعل؟

كان السيد الذي أطلق عليه البعض لقب آية الله، قد وصل حديثاً من إيران، وتولى في ذلك اليوم إمامة الصلاة. كانت تلك أول مرة يلقي فيها هذا السيد خطبة الجمعة في العراق منذ هروبه من بطش الطاغية قبل ثلاثة وعشرين عاماً. قبل هذا الانفجار، انفجرت سيارة مفخخة أخرى بالقرب من السفارة الاردنية، ثم أخرى أدّت إلى انفجار هائل دمّر مكاتب الأمم المتحدة وقتل ستة عشر شخصاً وجرح مائة آخرون. لكن تلك الانفجارات حصلت في بغداد، ولم يتوقع أحد أن تلك الأيدي يمكنها الوصول إلى أكثر المدن الشيعية قداسة، وتقتل زعيماً عاد من المنفى، ومثّل حينها رمز السلطة الدينية في العراق، وكان يحظى بحراسة مشددة.

ومن أجل التمهيد لعودة السيد، كان والد صديقي حيدر قد عاد من إيران التي لجأ إليها مرتين: المرة الأولى حين انشق من الجيش خلال الحرب الكبيرة مع إيران. اما الثانية، فكانت في العام ١٩٩١ بعد الانتفاضة التي تلت الهزيمة المذلّة للطاغية في حرب الخليج الأولى، عندما تسلل آلاف الرجال من من أتباع بيت الحكيم حاملين صور آية الله الخميني، إلى مدن الجنوب للمشاركة في الانتفاضة. يتذكر حيدر الفوضى التي حلّت في البيت حينها والرجل ضخم الجثة ذا اللحية الكثة

والجلد الداكن الذي كان يصارعه على الأريكة... وكيف كان يستمتع بتلك المصارعة. لكن تلك الحالة استمرت لثلاثة أسابيع فقط.، بعدها اختفى أبو حيدر مجدداً، عائداً إلى إيران في الوقت الذي كانت دبابات الحرس الجمهوري تندفع إلى النجف وتدمر كل شيء في طريقها.

كان ذلك أحد الأشياء المشتركة بيني وبين حيدر: اختفاء الآباء. الفرق الوحيد هو أن أباه عاد، بينما أبي لم يعد أبداً. كانت العودة الثانية لأبي حيدر في العام ٢٠٠٣ مختلفةً جداً، وأحاط بها جو احتفالي كبير. عاد أبو حيدر كقائد بارز في فيلق بدر ومسؤولٍ عن أمن النجف، لكنه فشل في واجبه تجاه بيت الحكيم كما كشفت عملية السيارة المفخخة.

تبخر جسد آية الله. عثروا فقط على خرزة واحدة من مسبحة الصلاة الخاصة به، وهي كانت الإثبات الوحيد على موته في الانفجار. أصرّ أتباع بيت الصدر على ان ذلك كان دليلاً كافياً على موت الحكيم. بينما كان أتباع الحكيم، وجُلُّهم من العائدين من المنفى في إيران، مقتنعين أنه لم يمت. زعموا أن هناك من رآه يخرج من المكان بصحبة اثنين من حراسه في سيارة زرقاء صغيرة. وادّعوا انه سيعود في الوقت المناسب، تماماً كما سيفعل صاحب الزمان المنتظر.

علّمتني أمي أن انظر إلى العالم كما هو وأن أراه على حقيقته وأن أقول الحقيقة دون النظر لمن لا يعجبهم سماعها، أياً كانوا. في يوم انفجار السيارة المفخخة، رأيت الشر، رأيت الحق ينفصل تماماً عن الباطل بلا أي مجال للشك. رأيت أي شرٍّ ذلك الذي تسلّل إلى النفوس، نفوس المجرمين ونفوس الضحايا على حد سواء. عرفت ان هناك شباباً في منطقتي، من بينهم أصدقاء لي، سيقولون ان آية الله لم يمت، وآخرون سيقولون أنّه استحق الموت لأنه ظل يعمل مع العدو

خلال فترة الحرب مع إيران، ثم تواطأ مع الاحتلال الأجنبي في سبيل الحصول على السلطة والمنفعة الشخصية. كل هذا الجدل لم يعنني كثيراً حينذاك، لكنه سيعنيني لاحقاً.

تذكرت الجثة المدّماة التي رأيتها في زقاقنا على بعد مسافة قصيرة جدّاً من موقع انفجار السيارة التي قتلت السيد الحكيم. تساءلت مع نفسي عن الفرق بين رجل لم يترك الانفجار قطعة من جسده وآخر مَلأتْ جسده الثقوب بفعل طعنات السكاكين. لقد رأيت أشياء لم أرها من قبل. جزء منّي كان يموت بينما الجزء الآخر كان يتماهى مع الفوضى التي أحاطت بي.

تواجد عمّي في موقع الانفجاربصحبة الرجال أنفسهم الذين كانوا معه في الزقاق يوم ١٠ نيسان. وقفوا على جانب الطريق كي لا يعترضوا عمليات الإسعاف ولكنهم لم يشتركوا في انقاذ أو مساعدة أحد. كانوا يتحاورون ببرود بحيث انني فوجئت حينها لأنني لم أرَ أي صدمة أو شعور بالغضب على وجوههم. تظاهرت بأنني منشغل بعمل شيء معين بالقرب منهم، محاولاً استراق السمع لما كانوا يقولونه.

كانوا يتحدثون عن قصص مختلفة، إحداها عن رجل تم إطلاق سراحه حديثاً من سجون الطاغية، وأخرى عن أولاد استجابوا لنداء سيدنا لحمل السلاح، وعن شباب رفضوا الانضمام إلى جيش الإمام وكانوا يوصفون بالخونة لأنهم باعوا خدماتهم كعمال أو مترجمين إلى المحتل. قصصاً عن شهداء ومخبرين، عن سياسيين طامحين بالسلطة ومغانمها يتبخترون كطواويس، وهم ليسوا أكثر من مخبرين سريين أو متعاونين مع المحتل. والكثير من القصص عن المحتلين ونقاط قوتهم وضعفهم، وهل جاءوا من أجل النفط أم للانتقام...

إحدى القصص التي جذبت انتباهي كانت عن روميو نجفي سلب

العشق عقله، فهرب سرّاً مع معشوقته إلى بغداد لأن والديها رفضوا تزويجها له. كانوا يخططون للوصول إليه عن طريق بعض أقاربه، وتحدّثوا عن الذي سيفعلونه للعشيقين عندما يمسكونهما.

تناولوا أيضاً قصةً عن مصري غامض أعطى لسائق تاكسي شاب من مدينة الكوت ثلاثمائة دولار ليرمي قنبلة (رمانة) على أي رتل عسكري أمريكي يراه ومن ثم يفر بين أوساط المارة في السوق. كل ما عليه أن يفعله هو أن يرمي الرمانة ويهرب! تركز النقاش حول مدى أخلاقية القيام بعمل ذلك طالما كان الدافع الوحيد هو الطمع وخصوصاً ان سائق التاكسي الشاب هذا كان قد احتفى بدخول الأمريكيين إلى العراق. سأل أحد المتحدثين سؤالاً رفع من حرارة النقاش مع عمّي الذي كان يعرف سائق التاكسي ذاك: «ما هو الوازع الأخلاقي لرجل من هذا النوع... كيف يمكن أن تثق برجل كهذا في القتال؟»

«ليس للأمر علاقة بالثقة. أنت تعرف الآن ما الذي يدفع رجلاً كهذا إلى القتال.»

لكن القصة الأكثر أهمية التي تناولها هؤلاء الرجال هي قصة اختفاء أبي خلال انتفاضة ١٩٩١. قال عمّي، آخر مرة رآه أحدٌ فيها كانت في يوم جمعة من شهر آذار، في فناء حضرة الإمام علي، حين كانت دبابات الحرس الجمهوري تعلوها شعارات «لا شيعة بعد اليوم»، تندفع من كل الاتجاهات وترمي نيرانها بدون تمييز. أصابت إحدى القاذفات القبة الذهبية للضريح. كان عمري حينها اثني عشر عاماً فقط. كانت تلك المرة الأخيرة التي رأى أحدهم فيها أبي.

«لكن يقال انه شوهد في كل عام يوم ذكرى الانتفاضة في قم»، قال أحدهم.

«لكنني سمعت أن هناك من رآه في قم كلما حلّت ذكرى الانتفاضة خلال الاعوام الثلاثة عشر التي تلتها»، قال أحدهم.

غير ممكن، ردّ آخر، «هو لم يكن مؤمناً»

«ما كان ليذهب إلى إيران»، أضاف ثالث.

«لقد مات شهيداً، تمزقت أشلاؤه بقذيفة دبابة كان يحاول التصويب نحوها»، وقال رابع، مضيفاً «أعرف رجلاً شهد ما حصل.»

تلك كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذه القصص. تطلعت إلى عمّي لأنظر ما هو رد فعله، لكنه كان هادئاً ومبتسماً، متوجهاً بنظره نحو الحشد المتزايد من الناس الذين تحلّقوا حول موقع الانفجار، كمن لم يكن مهتماً بما يقال، دون أن يؤكد أو ينفي أي مما قيل.

ظلّ أصدقاؤه يناقشون النظريات المختلفة حول ما حصل لأخيه، متوهمين أنّه سوف ينجر للنقاش، لكنه بقي محافظاً على صمته، الأمر الذي حوّله تدريجياً إلى مركز اهتمام المجموعة.

فجأة، التفت عمّي نحوي وسألني: «أبني، هل أنت وطني؟»

«بالطبع»، أجبت وقد أخذتني المفاجأة لأنني لم أفهم علاقة السؤال بمقتل الحكيم الذي اجتمعنا بالقرب من موقع الانفجار الذي أودى به.

«ان بيت الحكيم الذين تراهم يتراكضون هناك تحالفوا مع عدونا إيران. أبوك رحمه الله قاتل فيلق بدر في آخر سنوات الحرب الكبيرة دفاعاً عن الفاو»، ثم أشار بحركة برأسه نحو مشهد الحطام والهيجان وسيارات الإسعاف قائلاً «هؤلاء الناس كانوا سيقتلون أباك لو ظفروا به.»

«لكن من الذي لديه مصلحة بقتل الحكيم والقيام بهذا العمل المروع؟» سألته،

«وحدهم الإيرانيون يُمكنهم فعل ذلك، ليس هناك عراقي لديه هذه الإمكانيات.»

«لكن لماذا يريدون قتله، هو كان يعتمد عليهم ومنظمته كانت تسعى لنشر الثورة الإسلامّية في العراق.»

«لأن الحكيم أخذ يبتعد عنهم في خطاباته، ويصبح حليفاً للمحتل. لم يكونوا راضين عن ذلك.»

«أذن هل كان وطنياً»، سألته وأنا أشعر ان الأعداء والأصدقاء أخذوا يختلطون عليّ ولم أعد أميزهم.

«طبعاً لا»، أجابني بشكل قاطع، «لكن أباك كان وطنياً لأنه قاتل من أجل العراق وليس صدام.»

«لكن ألم يكن صدام هو من هاجم الجمهورية الإسلامّية؟»

«لم يكن لأبيك خيار في ذلك. كان عليه أن يقاتل من أجل وطنه وحسب. هذا معنى الوطنية.»

«وماذا لو أنه رفض أن يقاتل لصالح أي من الطرفين؟»

«كان سيغدو جباناً وعاراً على وطنه وعلى دينه.»

عمّي

عمي كان كخصلة خيوط اشتبكت بها كل مراحل حياتي. لعب دور الراعي، والممول، والمعلم، وفي الأخير، القائد الميداني. تربيت في بيته، واحتميت به عند الضرورة. كان بمثابة أبي الحقيقي الذي وقف إلى جانبي، والناصح الذي أخذ بيدي في سنوات نشاطي، بديلاً عن أبي الذي لم يكن يحضر الاّ في خيالي. كان عمي، هذه الشخصية الاستثنائية، رجل أسرار، يتلذذ بحفظها ونشرها كفتات الخبز بين المقربين له تاركهم يركبون جزيئات تلك الأسرار مع بعضها لتصبح أكثر إقناعاً من إخبارهم بالقصة كلّها، حتى أنّهم لم يتمكنوا أن يفصلوا بين ما هو الحقيقة والخيال.

اتهمه أعداؤه، وحتى بعض المقربين له بأنه كان متعجرفاً، بل وحقوداً. أتذكره وهو يخرج سيارته من المكان المعتاد لوقوفها بالقرب من مبنى البلدية. لاحظ أنّ هناك سيارة أخرى بانتظار خروجه لاحتلال المكان، فقرر البقاء هناك، مهدراً وقته ووقت السائق الآخر، فقط ليثبت أنه صاحب الكلمة النهائية.

شخصية عمي المعقدة هذه جعلته بلا أصدقاء حقيقيين، لكنه ما كان ليكترث أصلاً بامتلاك مثل هذه الصداقات. عندما بدأت العمل معه، ادركت ان الصورة السائدة عن عمّي خارج البيت اعتمدت على مايقوله عنه المحيطون به، لا ما يقوله هو عن نفسه. في عمله، أحاط نفسه

بتوابع كان يسيء معاملتهم أحياناً، ثم يغدق الهدايا عليهم في أحيانٍ أخرى. كان من الممتع مشاهدته بصحبة الآخرين، فأحياناً يكون ظريف الطبع بشوشاً، وفي أحيانٍ أخرى يبهرهم بسعة اطلاعه وذكائه الذي يستعرضه مستهدفاً تصغيرهم.

بدون شك أنا كنت الابن الذي لم تستطع عمتي أن تمنحه اياه. لكنني لم أعرف أبداً مدى حبّه لي. هل كان يحبني بمعزل عن أي شيء آخر؟ لسنوات اعتقدت ذلك. أم أنني كنت جزءاً من خطة معقدة لا أحد يدرك غايتها سواه هو. حين أنظر إلى الوراء، أتذكر كيف كسبني إلى جيش الإمام، متغلباً على اعتراضات أمي بالاصرار والإقناع. قرّبني كثيراً خلال فترة خدمتي إلى الحد الذي أصبحت معه مطّلعاً على الخفايا التي كان يحب أن يرمي بعضها في طريقي وأنا كنت أحب التقاطها.

خلال سنواتي الأولى في جيش الإمام، لم يدر بخلدي للحظة واحدة أنّ عمّي كان يستغلني، فلقد كنت محظوظاً أكثر من غيري من أعضاء الجيش لأنني كنت تحت اشرافه. حتى عندما ساءت علاقتي بجيش الإمام منذ ذلك اليوم اللعين حين شنق الطاغية في العام ٢٠٠٦، وصار لزاماً على عمّي أن يتبرأ منّي لأنه هو من تكفل بي في المقام الأول، بل وأن يعتبرني خائناً لقضية السيد، فأنّه فعل ذلك برفق والى الحد الذي يمكنه معه «أن يبيض وجهه» بين رفاقه في الدائرة الضيقة المحيطة بالسيد، ولكن ليس إلى الحد الذي يظهره وكأنه انتهازي أو متملق.

كان عمّي وطنياً عراقياً ملتزماً، ورغم أنّه أخفى عني أشياء كثيرة، اعتقدت أنّه يفعل ذلك لاهدافٍ سياسية كبيرة ليس بوسعي ادراكها حينها وقد أفهمها في المستقبل. في تلك السنين كانت ثقتي به مطلقة لا علاقة للايديولوجية بها.

الفضيلة والمبادئ الاخلاقية لم تكن مهمة في تعامل عمي مع العالم الخارجي، بل كان يعطي الأفضلية لمن يمتلك الدهاء والنباهة ويعرف لغة وأساليب الشارع. وكان عمّي يحتقر البليدين وأشباه المثقفين. ليس هناك شيء لم يقرأه عمّي، أو على الأقل كان يجعلك تظن انه قرأ كل شيء. كثيراً ما وجدت على مكتبه كتاباً أو اثنين في الفلسفة أو عن شخصية سياسية عراقية كان معجباً بها، يتركها مفتوحة على صفحة معينة، وفي كل مرة أغادر مكتبه أشعر بالدهشة من هذا الرجل وأتساءل مع نفسي، هل هناك سياسي عراقي آخر قرأ أو سمع عن هذه الكتب؟

كنت أحياناً أتساءل ما إذا كان قد ترك هذه الكتب كي أطّلع عليها، وحتى لو كان قد فعل ذلك، فما هو الفرق الذي ستصنعه؟ كان اختياره للكتب جيداً، كما أنّه عرف نوعية الكتب التي يجب أن يتركها لشخص معين ويمنعها عن شخص آخر، فقد كان يعرف الناس ويقرأ شخصياتهم جيداً. مثلاً، لم يولِ صديقي حيدر أي اهتمام بالكتب في مكتب عمّي، فقد استعاض عن القراءة بالقوة الجسمانية والشهامة. أتذكر مرة ان حيدر كان يتحدث إلى عمّي، وقال انه يعتقد بأن العراقيين أطيب بكثير من غيرهم، خصوصاً من الإيرانيين الذين كان يحتقرهم نتيجة الفضيحة التي أحاطت بأبيه.

«بالتأكيد نحن أطيب»، أجاب عمّي وقد برقت عيناه بوميض لافت. «لكننا أطيب لأننا عاطفيون نعيش بدون قواعد. تلك طريقتنا.»

الطيور المنحوسة

مرةً، رأت عمتي سرباً من الغربان فوق شرفة غرفتنا في الطابق الثاني، فصرخت وهي تضرب صدرها بقبضتها، مشتكية من وجود هذه المخلوقات النحسة.

أرادت أمي ان تخفف من غلوائها وشكواها من هذا الفأل السيء، فذكّرتها بهدوء انها «طيور ذكية جداً، تعيش أطول منّا»، وخاطبتها قائلة «ان الغربان تبحث عن أفضل الفواكه لتأكلها، وقد وجدتها في بيتكِ العامر بالبركة.»

لكنّ عمّتي ظلّت متخوفة من الفأل السيء وراحت تقول «رأيت اثنتين منها تطيران بعيداً وتحومان حول محلتنا، ثم تعودان إلى بقية السرب بعد دقائق قليلة»، قالت منتحبة، «هذه الطيور اختارتنا، يبوو علينة، يبوو علينة، شنو اللّي سوّيناه...»

كان اليوم التالي بارداً. استيقظت أمي صباحاً وهي تشعر بصداع غير اعتيادي. طوال اليوم وحتى مجيء الطبيب وأحد معارفنا لرؤيتها، ظلّت عمّتي وجاراتها يتجادلن حول أي نوع من أنواع عصير الرمّان الستة المتوفرة في النجف، يمكنه أن يخفف من أعراضها: العصير الحلو الذي يريح الأحشاء، أم المرّ الذي يعطي مفعولاً معاكساً. ربحت عمّتي الجدل حين اختارت واحداً من أنواع الرمّان الثلاثة المتوفرة في فنائنا،

لأنه لم يكن حلوا أو مراً جداً، وقالت إن له أثراً جيد على التهابات الأعضاء وعموم الجسم.

كنت أجلس على سريري في الطرف الآخر من الغرفة المشتركة حينما كان الطبيب يقوم بفحوص روتينية لها، كشفت عن كدمات في ظهرها لم تستطع أمي أن تشرح أسبابها، وتغاضى الطبيب عنها سريعاً، مؤكداً انه لا يوجد ما يدعو للقلق، وانها ستكون بخير في اليوم التالي مع قليل من الراحة وكوب من الحليب المغلي قبل النوم.

كبرت الكدمات خلال ذلك الأسبوع، ثم اختفت فجأة تاركة آثاراً غريبة على جلدها، ثم عادت بشكل مفاجيء. تحولت لثتها إلى اللون الأبيض، وسرعان ما أصبحت غير قادرة على الوقوف على قدميها، فاضطرت إلى الزحف حين احتاجت إلى الحركة. مع ذلك، ظلّت ترفض الذهاب إلى المستشفى لأنها «قذرة وسوف تقتلها»، وبأي حال، لم تكن لديهم أدوية لعلاجها ومعظم أدويتهم من السوق السوداء وما كان بالإمكان الوثوق بها. تلك كانت من المرات النادرة التي اتفق عمّي مع أمي فيها.

اتضح لي، بحلول نهاية الأسبوع، انها أدركت بأنّ الموت يدنو منها. أولئك الذين يدنو الموت منهم يدركون ذلك قبل أي أحدٍ آخر.

«جدك، ابني...»

«نعم أمّي، ماذا عن جدّي؟»

«تحدث له، تعّرف عليه أكثر. لقد كان طيباً معي... وكان يحب أباك حباً جمّاً.»

لم تتسنّ لي معرفة جدّي عن قرب أبداً، فقط كان حادّ الطباع مع

الجميع عدا أمي، وكان يشاكس عمي بكثرة. ولكن لماذا تذكره أمي الآن تحديداً، «لا تقلقي أمي، بالتأكيد سأتحدث إليه.»

«عمك...»

«ماذا عنه، أمي؟»

لكنها لم تستطع أن تتغلب على تعبها لتقول ما كانت تريد قوله.

«نعم...» قلت ملّحاً لأجعلها تكمل ما أرادت قوله، ولكن بأكبر قدر أستطيعه من الهدوء.

«أنه رجلٌ... غير سهل»

«أعرف أمي» قلت وابتسامة تعلو وجهي، محاولاً أن اخفف من وقع كلامها، «أنه منهمك بالسياسة، لا أعرف ماذا يدور برأسه في معظم الوقت. قبل عدة أيّام ضغط عليّ كثيراً ليعرف مدى وطنيتي، وكان يتحدث عن التدخل الإيراني في العراق.»

لم تحب ما سمعت، فإحدى قواعدها كانت رفض العمل في السياسة. علت معالم القلق والحيرة وجهها وهي تفكر على الأرجح عن السبب الذي جعل عمّي يسألني تلك الأسئلة.

قالت، «كان أبوك يخاف الله ويحبه، ابني.»

«طبعاً.»

«لاتسمح لأحد أن يقول لك شيئاً مختلفاً.»

«وما الذي سيدفع أي أحد لقول شيء مختلف؟»

«لأنه كان يعبد الله بشكل مختلفٍ عن الآخرين. الله الذي كان يعبده لم يكن نفسه الذي يعبده عمّك.»

«أمي، هناك إله واحد فقط، لقد أثرت الحمّى عليكِ.»

«أبوك كان مختلفاً.»

«مختلفاً عن منَ؟»

«عن بقية الرجال. تحدث لجدك...» وتلك كانت آخر جملة نطقتها قبل أن تغرق بالنوم.

في الليلة التالية، طلبت مني الاقتراب وأخذ سلسلة كانت تحيط بعنقها، وتحتوي على مفتاح صغير لفتح الجارور الأعلى في خزانتها.

«من الآن فصاعداً، أصبح محتوى هذا الجارور ملكاً لك» قالت لي. «هنالك بعض الحليّ العائدة لي أريدك أن تأخذها ربما تعطيها لزوجتك في المستقبل، وهنالك رسالة تنتظر منك أن تقرأها منذ ثلاثة عشر عاماً.» بالطبع، أردت أن أفتح الجارور في الحال لكنها لم تسمح لي.

تحدثنا مجدداً في وقت متأخر من الليل. قالت أننا نحن العراقيين شعبٌ غير محظوظ، فقدنا الحب، وبدلاً منه حلّ بيننا الخوف. كلما داهمتنا أزمة، صغيرة كانت أو كبيرة، تحولت إلى مناسبة جديدة كي يطغى الخوف علينا. اعتادت أن تقول أنّ هناك هوة عميقة لا تردم فصلت بين الذين نشأوا على هذا الخوف من الذين ترعرعوا في أحضان المحبة

هي كانت خائفة أيضاً. فرغم أنّها فهمت الطغيان وتعلّمت كيف تعيش في ظلّه، وتعلّمت كيف تتكيف مع الألم والحزن، فقد وجدت طريقة للتعامل مع ما خسرته ومع ما يخفيه القدر من نكبات. الاّ ان الفوضى التي حلّت باسم الحرية بعد ٢٠٠٣ كانت شيئاً غريباً ومخيفاً لها. كانت تقول انه لم تعد هناك قواعد وقوانين، والوحش الكامن فينا قد أطلق له العنان. شعرت بالرعب وهي ترى سقوط بغداد، وهروب الطاغية، وبداية التمرد، وقبل كل شيء، ظهور عدد لا يحصى من

الأحزاب التي تتنافس على قلوب الشباب، خصوصاً من يتأثرون بسرعة مثلي.

الخوف هو الذي جعلها تطبخ السمك في يوم الأربعاء، فقد كانت تردد ان مزيج السمك والأربعاء يمنحنا جميعاً البركة. وقبيل الغروب في أيّام الأربعاء أيضاً، كانت تشعل الحرمل في إناء معدني لطرد العين الحاسدة، وحينما يخرج الدخان محملاً برائحة الحرمل المميزة، كانت ترفع الإناء وتحركه حول رأسي لثلاث مرات، وبينما يندفع الدخان بهدوء نحو وجهي، كانت تقرأ سورة الناس من القرآن الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قل أعوذ برب الناس

ملك الناس

إله الناس

من شر الوسواس الخناس

الذي يوسوس في صدور الناس

من الجنة والناس

• • •

جاءنا زائرون من أبناء محلّتنا متظاهرين بأنهم يريدون الاطمئنان على صحّة أمّي، لكن غرضهم كان مجاملة عمّي. تعاملوا مع مرض أمّي وكأنه حالة مؤقتة، وعكة عابرة، وكرّروا تطمينات الطبيب الذي زارنا مرتين أو ثلاث في الأسبوع، ليقيس درجة حرارتها، ويقيس نبضها

وضغطها، في الوقت الذي كانت عمّتي وجاراتها يواصلن جدالاتهن حول وضع أمّي ويكررن التطمينات بقرب الشفاء.

جميعهم كانوا يعيشون في كذبة، كذبة أن أمّي سوف تُشفى بمجرد أن يرددوا أنها ستُشفى. كان عليهم ان يواصلوا الكذب، عمّتي والزوار والجيران وحتى جدّي، وكأنه كان واجباً يقومون به لغرض التظاهر بأن كل شيء طبيعي، رغم انهم في قرارة أنفسهم كانوا يدركون ان الأمر ليس كذلك. كنت أشعر بالكآبة والغضب عليهم جميعاً، لكن الحياة الاجتماعية عندنا محكومة بقواعد غير مكتوبة، لايجوز بموجبها قول الحقيقة للمريض أو المحتضر، بل مواصلة التظاهر بأن كل شيء سيكون على ما يرام. ولكن حتى في الكذب كانت هنالك بعض القواعد التي ينبغي الالتزام بها.

أبلغ الطبيب عمّي بحقيقة وضع أمّي، تلك كانت إحدى القواعد غير المكتوبة، وكلاهما فهما أن لا حاجة لإخبار أي شخص آخر. كان يجب إخباري أيضاً لأنني كنت الرجل الثاني في العائلة بعد عمّي، لكن ذلك لم يحصل. أمّا البقية فكل ما عليهم أن يعرفوه هو ان الوضع سيتحسن قريباً. بهذه الطريقة، حين تموت أمّي سيقول الطبيب أنه كان يعرف منذ البداية بأنها تحتضر لكنه لم يشأ إعلان ذلك كي لا يخيفها. وان حصلت المعجزة وتحسنت أمّي، حينها سيتفاخر الطبيب في أنه كان متأكداً من شفائها طوال الوقت.هل فكّر هذا الطبيب الأحمق بأن يقوم بفحص دمها، أو يأخذ عيّنة من الدم ويرسلها إلى المختبر. ربما فكّر بذلك الاّ أنه كان متأكداً من أنّها حالة ميئوس منها ولم يشأ إهدار وقته بذلك.

توفيّت أمّي عصر يوم الثلاثاء، بعد معاناة شهر مع الألم، وقد شخّص الطبيب الموجود في المشرحة حالتها بأنها لوكيميا حادّة.

مازلت أراها كل يوم، حتى بعد أن غادرتنا. نفس الحلم يعاودني باستمرار: أراها وقد غزا البياض شعرها رغم انها مازالت شابة، تجلس في غرفتنا المشتركة في الطابق الثاني من بيت عمّي، على كرسي قديم متداعٍ كانت ترفض التخلي عنه رغم أنه كان بالكاد يحمل جسدها النحيف. فهمت بعد ذلك انه يعود إلى أبي الذي لم يخلّف لها سوى هذا الكرسي ومكتبته وبعض الملابس القديمة التي قامت أمي بتنظيفها وتوظيبها.

في ذلك الحلم، لا تراني أمي أبداً. وجهها يبدو متعباً وتعلوه مظاهر الحزن، وأنا أناديها «أمي، أمي... أمي»، لكنها لا تسمعني. أواصل النداء عليها وقد ازددت قلقاً، ونبرة صوتي تتصاعد حتى يستيقظ جميع من في البيت. وفي ليلة سيئة، تبدأ جدران الغرفة بالاهتزاز وكأن هناك وحشاً رهيباً قبض على البيت وراح يهزه. كل ما كنت أرجوه هو أن تنظر باتجاهي، لكنها لم تكن تسمع ولم تلتفت نحوي.

وأخيراً، حين كنت أستيقظ مرعوباً، أراها إلى جانبي، تجلس على نفس الكرسي، تمسد شعري، تخبرني انه كان مجرد كابوس وأنها ستبقى إلى جانبي حتى يعاودني النوم. كان ذلك يحدث سابقاً، أمّا اليوم، فهي لم تعد هنا، لقد ذهبت وليس هناك سوى ظلام الليل ليتلقاني وأنا أستيقظ مذعوراً.

أحياناً أتساءل كيف عاشت لحظاتها الأخيرة، كيف شعرت وهي تتنفس أنفاسها الأخيرة؟ هل يمكن للحظة الموت أن تكون ممتعة؟ لا أعني المرض الذي يقود إليه، بل لحظة الموت نفسها، تلك التي ربما لا تتجاوز أجزاء من الثانية، اللحظة أو اللحظات التي تسبق الموت والتي يدرك الإنسان فيها ان موته صار محتماً ووشيكاً، بما في ذلك

تلك التي يحدث بها الموت. هل شعرت أمي بشيء من المتعة، ربما السعادة، وهي تعبر تلك اللحظة؟ أتمنى ذلك.

أحب أن أتخيل انها تحررت من كل مخاوفها، ومن كل المرارة والغضب اللذين شعرت بهما طوال حياتها. وأحب أن أتخيل أنّها أدركت بأن خوفها، كالخوف الذي يعيشه الآخرون، عاديّ، مصدره أشياء مثل الطرق المفاجيء على الباب وسط الليل، أو كلام الناس، أو الأسئلة الفضولية لدى أحد الجيران... ويختفي ذلك الخوف حين كانت أمّي تحمل وجه ذلك الرجل الميت الذي تأخذه معها إلى السرير في كل ليلة، وتنام معه في أحلامها. وأحب أن أتخيل بأن أمّي غادرتنا وقد تلذذت ببعض المتعة التي كان يجب أن تعيشها قبل موتها.

أيّاً كان ما حدث في لحظاتها الأخيرة، آمل أن بإمكاني ملاقاة الموت بطريقتها، يملأني شعور بالطمأنينة والسلام الداخلي الذي يختفي بين طياته نوع من الخلود.

وداعاً أمّي... وداعاً.

الرسالة

في ذلك المساء وبعد أن تم تغسيل وتكفين جسد أمّي وإعادته للبيت بانتظار الدفن في اليوم التالي، قمت بفتح الدرج المغلق في خزانتها. وضعنا جثتها في غرفة المعيشة في الطابق الأرضي وهي مغطاة تماماً بالكفن الأبيض نفسه الذي حمله عمّي معه في حجّه إلى مكة. وعندما غادرت المعزيات اللاتي بقين طوال الظهر إلى جانبها يتلون القرآن، عمّ السكون في البيت عدا صوت احتكاك الخشب حين كنت أقوم بفتح الدرج في خزانة أمّي. في الغد، سنقود أنا وعمّي المعزين ونحن نحمل تابوتها نحو ضريح الإمام كي تزوره للمرة الأخيرة، وبعد ذلك سنأخذها إلى المقبرة حيث تُدفن. رحلة من هذا النوع كنت قد شهدتها معها مئات المرات ونحن نجلس في شرفة بيتنا.

اكتشفت أن الرسالة التي تحدثت عنها أمّي قد كتبها أبي من المعسكر الذي كان محتجزاً فيه. كتبت الرسالة على ورق يشبه ورق سكائر اللف بخطٍّ صغير وأنيق، والى جانب الظرف كان هناك قلم جاف بدون الاسطوانة الداخلية. هكذا إذن تم تهريب الرسالة بعد أن لُفت وضغطت بقوة في داخل الإطار الخارجي للقلم الجاف. ويبدو ان أمّي كانت قد كوت أوراق الرسالة. استنتجت ذلك من استقامتها داخل الظرف الذي اخرجتها منه. الورقة الأولى مؤرخة في نيسان ١٩٩١ حينها كان عمري

اثني عشر عاماً. بقيت لبعض الوقت أتلمس وأقلب الأوراق التي بدت لي كوريقات البصل، حتى استجمعت ما يكفي من الشجاعة لأبدأ بقراءتها.

• • •

زوجتي العزيزة

في الليلة الماضية حفرت أسمكِ على أظفري بمسمار. هكذا وفرت ما تبقى من قلمي الحبر لكتابة رسالتي هذه لك.كنت أشعر وأنا أكتبها بانكِ قريبة مني وكأننا نجلس معاً ونتبادل أطراف الحديث. هل تذكرين عندما كنت أعود في إجازة ونجلس معاً في البيت، أطوقك بذراعي ونحن نتحدث في كل شيء، حتى في مواضيع تافهة لا قيمة لها، وأنتِ تمررين إصبعك بين خصلات شعري؟ بصدق، لا أتذكر عن ماذا كنا نتحدث لكنني أتذكر صوتكِ وتموجاته. كم كانت ثمينة تلك الأوقات.

لن أطرح عليكِ أسئلة لا تملكين جواباً لها، مثل، كيف حالك؟ وابننا، كيف هو؟ هل عاد إلى المدرسة؟ كيف تقضين أيامك؟ هل يعاملكِ أخي بطريقة جيدة؟ كيف حال أبي مع الرومانزم؟ اعلمي أني دائم التفكير بكم. أكتب اليكِ وأنا غير متأكد ان رسالتي ستصلكِ. سوف لن أكتب اي شيء يسمح للسجانين بأن يصلوا اليكِ لكن من يحمل الرسالة هو واحد منهم. ان اختار أن يكشف عن نفسه لكِ فحاولي أن تثقي به، لكنه قد لا يفعل ذلك. لقد خدمنا معاً في الجبهة وكنّا كما الأخوة. مع ذلك قد تكون هناك بعض المجازفة في الكتابة، أدرك ذلك لكنني لا أستطيع مقاومة رغبتي بالاتصال بكِ. اتذكر قول الحلاّج ان الحب حين يختبىء يشعر نفسه بخطر، ويطمئن حين يخاطر... سأخاطر.

أعرفي حبيبتي أنه عندما تصلك هذه الرسالة فانني أكون قد رحلت

إلى مكانٍ أفضل. لا أريدك أن تحزني ولكنني أيضاً لا أريد أن أمنحك آمالاً زائفة. لم يعد هنالك شيء يهمني ويشعرني بالسعادة سوى أمنيتي أن تصلكِ هذه الرسالة، بعد ذلك، أستطيع الذهاب إلى خالقي بسلام وعلى أضفري حروف اسمكِ.

أشعر بخيبة أمل من كل شيء في هذا البلد التعيس، ربما الاستثناء الوحيد هو أنتِ، أنتِ الشيء الوحيد الجيد الذي لولاه لكانت كل حياتي بلا قيمة. نحن شعب مليء بالحاقدين والأنانيين والخونة المستعدين للغدر بآبائهم وأخوتهم وبيعهم للشيطان لقاء مبلغ زهيد.

إعرفي حبيبتي أنني تعرضت للخيانة، وهناك من أبلغ الأمن بمكاني. فقد كان من المستحيل عليهم العثور عليّ بدونها. لكن ليس لدي أي دليل عن من خانني وكل ما أستطيع تخمينه هو أن من بلّغ عنّي كان يعرفني جيداً. الرجلان اللذان كانا معي نجحا بالهروب قبل عشر دقائق من اقتحام رجال الأمن الباب، الحمد لله، فقد كانا مطلوبين أيضاً. كيف عرفوا أننا ثلاثة؟ لم تكن هناك من وسيلة إلاّ عن طريق الحصول على معلومات من شخص يعرفنا جيداً. حبيبتي، لا تثقي باحد. لقد فسدت النفوس في بلادنا.

ما كنت لأقول هذا الكلام حتى في أحلك أيام الحرب مع إيران، لكن مارأيته وعشته في الأسابيع الثلاثة الأخيرة يفوق كل البشاعة التي رأيتها خلال السنوات الثماني التي قضيتها في الجبهة. أنا اليوم في الجحيم، سجنٌ يسمى «الرضوانية» يقع على مقربة من مطار صدام الدولي. أنه مكان أتمنى أن لا تعرفيه وان لا أخبركِ عنه شيئاً، يؤلمني أن ازعجك بالحديث عن مثل هذه الأشياء لكن ليس لدي احدٌ آخر أفصح له عن ما في صدري.

يمكنكِ أن تستخدمي هذه الرسالة في الوقت المناسب. وعندما يكبر أبننا أعطيه هذه الرسالة لكي يعرف كيف مات أبوه.

جلبونا إلى هنا في باص مليء بركاب من النجف والعمارة والكوت ومدن وقرى أخرى. ما أن غادرنا الباص حتى واجهونا بعدد من الكلاب الجائعة، ولم يكن بالإمكان الخروج من الباص بدون المرور من بين تلك الكلاب المرعبة، يتبعها سجّانون يقفون خلف تلك الكلاب ماسكين هراوات خشبية طويلة. تخيّلي كيف اندفع السجناء كالمجانين من باب السجن الخارجي ولم يسلم أحدٌ من الاصابة... فامّا ضلع مكسور أو رأس مجروح أو عظة كلب، وهناك أمرأة كانت معنا في الباص فقدت إحدى عينيها بعد النزول منه.

بعبور الباب بلغنا غرفة الاستقبال التي يسميها السجناء بضريبة الدخول إلى الرضوانية. انها لحظة «الاستقبال الرسمي» كما يسميها الحراس حيث يتجمع عدد منهم وهم يحملون الهراوات ويدفعون السجناء نحو إحدى الزوايا ثم ينهالون عليهم ضرباً من كل الاتجاهات وليس لدى السجناء من سبيل سوى جعل أجسادهم تنكمش وأن يصرخوا عند تلقي الضربات. ان حاول أحدهم الهروب فليس أمامه سوى أن يندفع نحو زاوية أخرى من الغرفة المغلقة ليجد الحراس يتبعونه بل ويضربونه بتركيز أكبر وهو مجرد هذه المرة من الحماية البسيطة التي كانت توفرها أجساد السجناء الآخرين. يواصل الحراس الضرب لحوالي نصف ساعة حتى يصيبهم التعب.

عندما أتحدث عن الحراس قد يجول بخاطركِ أنني أتحدث عن رجال. كلا، هؤلاء لم يكونوا رجالاً بل أولاد مراهقون ليس بينهم من بلغ العشرين. تخيّلي ما الذي سيحصل لهؤلاء الأولاد وهم يمارسون

هذا العمل كل يوم ولحوالي العام وهم في سنوات عمرهم التكوينية؟ سيتغيرون إلى الأبد. فكري بهؤلاء الأولاد وبكم الشر الذي يستحوذ عليهم وأبقِ ابننا بعيداً عن هذا الشر حتى لو اضطررت إلى ارساله بعيداً عنكِ.

في يوميّ الأول في السجن شاهدت ما هو أسوأ. شاهدت رجلاً عطشاناً يستجدي قطرة ماء ليشربها. جاء أحد الحراس وبيده طرف صوندة وقام بهزها لتسقط منها بعض القطرات في فم الرجل. لكن هذا الرجل اليائس حاول الإمساك بطرف الصوندة رغبة بمزيد من الماء. توجه خمسة حراس نحوه وأخذوا بضربه بقوة وكأنه نظّم عصياناً داخل السجن أو قام بشتم صدام حسين. وحين سقط على الأرض ركلوه في كل مكان من جسده، على ضلوعه وبطنه ورأسه حتى تمدّد على الأرض وكأنّه ميت. تصورت ان معاناة هذا المسكين قد انتهت عندها لكن العقول المريضة لهؤلاء المراهقين لم تتوقف عن الابتكار، فهم متميزون في ابتكار طرق صنع الألم. أخذ أحدهم الصوندة وأدخلها في فمّ الرجل ودفعها عميقاً لتبلغ بلعومه من أجل أن لاتؤدي قوة جريان الماء إلى انفلاتها. كنت أشاهد هذا المشهد المحزن وأنا لا أصدق ما أرى، أي مكان حقيرٍ هذا الذي جيء بي إليه؟ هل حقاً ان هذا يحصل في العراق؟ فتحوا الحنفية بكل قوتها واندفع الماء بسرعة إلى معدة الرجل المسكين بحيث انها بدأت تنتفخ وأخذ الماء يخرج من كل فتحة من جسد الرجل، من أنفه وأذنيه وفمه. وبعد عشر دقائق رفرفت أطرافه ثم توقف عن الحركة نهائياً.

اعتذر حبيبتي مرة أخرى لأنني أزعجكِ بهذه القصص. لكنّ لابد أن انقل حقيقة ما يجري هنا. يجب أن يعرف العالم: هذه هي المقاومة الوحيدة التي أستطيعها. لماذا قام الأمريكيون الذين جاءوا من أقصى

مكان في العالم بطرده من الكويت ثم سمحوا له بالبقاء ومواصلة فعل هذه الفظائع؟

قبل أن يتم إلقاء القبض علينا، كنّا نحن الثلاثة في طريقنا إلى مكان تجمع القوات الأمريكية الذي كان على مبعدة كيلومتر واحد من البيت الذي جرى القبض علينا فيه. كنّا ذاهبين لطلب المساعدة، فالأمريكيون كانوا يحرسون مخازن العتاد التابعة للنظام وكنّا نريد منهم على الأقل السماح لنا بالوصول إلى تلك المخازن.

عند وصولي إلى الرضوانية صادقت رجلاً ساسميه قاسم وكان استاذاً في إحدى الجامعات المعروفة. أعدم النظام أربعة من أقاربه ولهذا السبب تحديداً قاموا باعتقاله في بيته. يوم أمس، أخذونا ونحن نسحب سلاسلنا الثقيلة وجعلونا نصطف جميعاً أمام أبن عم الطاغية الذي يشرف على المنطقة الجنوبية. وبعد مغادرته شرعوا بتحقيق ثقيلٍ معنا بدءاً مع المسكين قاسم الذي اتهموه أمام أنظارنا جميعاً بالمشاركة في الانتفاضة. أنكر التهمة فانهالوا عليه ضرباً بعصي طويلة وصعقوه بالكهرباء واستخدموا معه أشكال التعذيب الأخرى التي اتقنوها.

كان رئيس المحققين شيعيا مثلنا لكنه كان الأكثر وحشية من بين من رأيناهم في الرضوانية: ضخم الجثة ذا بطن كبيرة ومظهر مرعب، وفي يوم سابق كان يرتدي زياً عسكرياً زيتونياً. أن حاولتِ قراءة تقاسيم وجهه ستشعرين بأن هناك قوة شريرة قد شوهته، فهو يشبه الوحش بدون أي مبالغة. اتجه نحو الحراس الذين كانوا يحققون مع قاسم، وتبعه أحد مساعديه حاملاً الهراوة الخاصة برئيس المحققين وطولها حوالي متر وهي تحتوي على بصيلة معدنية مزخرفة في أعلاها. سأل عن مجرى التحقيق.

«أنه يرفض الاعتراف سيدي» أجاب الحارس المسؤول عن التحقيق.

«هل ارتكب جريمة قتل؟»

«أعتقد انه فعل ذلك لكنني لم أتمكن من انتزاع اعترافه بجرمه»

«أعطني هراوتي» قال رئيس المحققين لمساعده، ثم صرخ بوجه السجين، «هل ستعترف؟».

لكن المسكين قاسم كان في وضع مزرٍ وربما لم يتمكن حتى من سماع السؤال. رفع عصاه وهبط بها بقوة نحو راس قاسم متأكداً من أن تأتي الضربة بالبصيلة المعدنية للعصا. «واحد» صرخ حارسه الشخصي الذي يبدو انه اعتاد هذا المشهد، ثم «اثنين» مع الضربة الثانية، وأخيراً «ثلاثة». «مات» صرخوا جميعاً وهم ينظرون نحونا. كان قاسم قد تمدد على الأرض الكونكريتية ودماؤه في كل مكان حتى على قميص رئيس المحققين وعلى وجهي وعلى ملابس الحراس الواقفين هناك.

غداً ستتكرر نفس العملية. ربما سيأتي الدور عليّ، لا اعرف. بأي حال، يجب أن تفترضي أنني ميت لا محالة وأن لا تتوقعي العثور على جثتي. فالقاعدة هنا في الرضوانية أن لا يتم حمل الجثة بعيداً بل يتم سحبها من الكاحلين نحو الباب الرئيسي وتوضع مع كومة من الجثث الأخرى قد يصل عددها إلى ست. وفي نهاية اليوم تأتي سيارات لجمع الأزبال ويقوم الحراس برمي الجثث فيها. وبوسعنا مشاهدة تلك السيارات من شبابيك السجن لنراها تذهب نحو تلّ من الجثث ويتم وضع باودر أبيض فوق كل وجبة جديدة ثم تُرمى فوق التلّ. كان التلّ ينمو أمام أعيننا في كل يوم.

ليشهد الله هذا ما رأيته.

الرضوانية تعني الموت. هذا ما اتضح لي وأنا أشهد هذه الفضاعات.

لكن الأمر الغريب هو ان الطريقة التي نموت بها هنا جعلتني أفكر بأشياء لم أكن أفكر بها سابقاً. لطالما فكرت بنفسي كعراقي لكن كل سجين هنا هو شيعي وتم جلبه إلى هنا لأنّه شيعي. ووسط الخطر الذي يحدق بنا هنا، أشعر بالأمن وسط زملائي من السجناء الذين يوجد الآلاف منهم. أشعر بالراحة لكوني جزءاً من مجموعة يمكنني أن أسميها جماعتي واشارك اعضاءها نفس المصير. أجد نفسي مأخوذاً بشعور من التعاطف العميق معهم، وكما تعرفين أكثر من أي أحد آخر، هذا النوع من الشعور جديد عليّ.

لكن هناك بعض الشيعة بين حراسنا، وهم جميعاً بدون استثناء الأشد قسوة علينا. أليس ذلك غريباً؟ هل يريدون أن يثبتوا شيئاً لأسيادهم السنة؟ لا أعرف. كل ما أعرفه ان هذا ليس هو العراق الذي عرفته. وهناك حراس من السنة مثل الذي سيجلب هذه الرسالة إليكِ، وهم يظهرون سراً شيئاً من التعاطف نحونا، بجرعات صغيرة جداً وفقط عندما لا يكونون مراقبين من أحد. هذه هي الحياة في سجن الرضوانية.

لم يعد العراقيون يشبهون ما كانوا عليه سابقاً. لقد تغيروا بسبب كل هذا العنف الذي يحيط بهم ويحكمهم فأصبحوا غلاظ القلوب. سامحيهم حبيبتي وعلّمي ابنكِ أن يسامحهم. عليه أن لا يسعى للانتقام بسبب ما حصل لوالده وان لا يكره. أنا متأكد أنّه سيعيش ليرى زمناً أفضل. الآمال لا تنطلق من المنطق، ولكنني مُتشبّثٌ بها لأجله. كما أنت يا عزيزتي، تمسكي وصارعي الواقع من أجله.

الآن، استنفدتُ قلمي الرصاص، وسأترك هذه الرسالة لقدرها. حاملها آتٍ ليأخذها معه. وسأكتفي باسمكِ منقوشاً على أظفري.

منارات وكلاشينكوفات

كنا نستقل سيارة تويوتا سيدان موديلها يعود لعشر سنوات ونحن نسير باتجاه بغداد. كان عمّي يقود السيارة وفي الخلف جلس حارسان يحملان كلاشينكوف وغالباً ما كانت السيارة تنحرف إلى الجانب الترابي من الطريق. كان أمامنا جنود شباب بوجوه وردية، لم تكن أيديهم قد أصبحت بعد خفيفة على الزناد، يستقلون العربة الأخيرة في رتل عسكري أمريكي طويل. وكان عمّي سيتخطّى الرتل لو كان الطريق واضحاً، ولكنه لم يستطع مشاهدة السيارات المسرعة القادمة في الاتجاه المعاكس.

«أولاد القحبة» ردّد عمّي هذه العبارة كلما داس على معجل السيارة وهو يتخطاهم تاركاً نصف السيارة في الطريق والنصف الآخر على الجانب الترابي.

تصاعدت حرارة الشمس مع اقتراب الظهيرة وكانت الأرض جدباء فارغة لا تسير فيها سوى مجاميع متقطعة من الصبية شبه العراة والكلاب النحيفة وهم يتطلعون بفضول إلى السيارات المسرعة. لم تكن هناك أي أشجار على الطريق وان حدث ومررنا بواحدة فأنها ليست خضراء لأن أوراقها تحولت إلى اللون البني بسبب الغبار وحرّ الشمس الذي يتعرض له كل خلق الله كعقوبة أبدية.

يتجسد التدخل البشري في تشكيل هذا المكان من خلال مادتين، الأولى هي مكعبات الكونكريت الضخمة، والثانية هي الحديد المطعج وكلاهما جزء من الآثار التي خلفها ربع قرن من الحروب وخرابها. سيكون من المبالغة أن نسمي الهياكل المرصوفة على جانبي الطريق بنايات. هي أقرب ما تكون إلى اكواخ أو مشاريع بناء غير منجزة مضافاً إليها قطعة قماش أو صفيحة معدنية تمتد على سقوفها غير المنظمة وممسوكة بمكعب أو مكعبي كونكريت من الأعلى. مررنا إلى جانب مجموعات متناثرة من هذا النوع من الهياكل. ولكن توقفنا مرةً واحدةً لاحتساء الشاي في مقهى اتسم بالنظافة والترتيب، وقد حاول صاحبها تخفيف حرارة الجو برش أرض المقهى الترابية بالماء.



رافقت عمّي في تلك الرحلة بحثاً عن الملف الخاص بأبي الذي كنا نأمل أن نعثر عليه في مجمع جهاز المخابرات السابق في بغداد والذي يسمى بـ «الشعبة الخامسة» وقد بني بالقرب من إحدى التواءات نهر دجلة. كان هذا المكان نفسه الذي سيعدم فيه الطاغية بعد ثلاث سنوات.

لكن قبل التوجه إلى الشعبة الخامسة كان على عمّي أن يذهب في مهمة كلفه بها السيد للاجتماع برجل دين سني كبير، رئيس رابطة العلماء المسلمين، الذي اعتبره الأمريكيون بعثياً بدرجة متقدمة وهو حينها كان يقود التمرد ضدهم، كما أنّه كان الزعيم الروحي للجناح العسكري السني للرابطة. كان يفترض في الاجتماع أن يستكشف عمي طرقاً للتعاون العسكري ضد المحتل إذا تطلبت الظروف ذلك.

استولت رابطة العلماء المسلمين على جامع بُني في زمن صدام بعد

حرب الخليج سنة ١٩٩١، وسمي حينها بجامع أم المعارك، وقد جرت تسميته بعد ٢٠٠٣ بجامع أمّ القرى في إشارة إلى مكة. دخلنا بغداد من الجنوب بعد أن مررنا من جانب أقضية ونواح مثل المحمودية واللطيفية واليوسفية التي أصبحت فيما بعد مواقع قتال شديد وحملات للتطهير السكاني، ثم أخذنا الخط السريع الذي قادنا شمالاً نحو مقصدنا الواقع بين ضاحيتين سنيتين في بغداد شهدتا أيضاً الكثير من القتل بعد العام ٢٠٠٥. لكن في تشرين الثاني من ٢٠٠٣ لم تكن هناك أي مؤشرات على احتمال قدوم حملات التطهير. وصلنا بدون أية حوادث. كانت تلك هي زيارتي الأولى إلى بغداد، المدينة الأسطورية للخلفاء العباسيين حيث كان الحلّاج يعطي عظاته وحيث تم صلبه، تلك هي المدينة التي أطلق عليها لقب مدينة السلام.

مازلت أفكر بهذا الهيكل الضخم وكان يحمل اسم 'جامع أم المعارك'، ربما بسبب تصميمه أو ذكريات بنائه كنوع من التحدي لجيوش التحالف التي دحرت الطاغية في الكويت بدون الاطاحة به. كان هنالك الكثير من الدعاية حول انشائه الذي رافق سنوات طفولتي وسنوات الحصار والمشقة. لم أرَ في حياتي شيئاً بهذا القدر من الفخامة من قبل، فالمبنى قد غلّف كله بمرمر أبيض لامع مضافاً إليه في بعض الأماكن موزائيك أزرق. يقال ان الطاغية أشرف بنفسه على كل تفاصيل بناء الجامع. الغريب في المبنى هو مناراته التي بلغ طول الواحدة منها ما يعادل مبنى بعشرة طوابق، وقد تم تصميمها على شكل سبطانة الكلاشينكوف وهي مصوبة نحو السماء. أما المنارات الداخلية الأربعة والتي كانت أقصر قليلاً من الاخريات فقد صمّمت على شكل صواريخ السكود التي أطلقها الطاغية باتجاه إسرائيل في عام ١٩٩١، والتي لم ينجح أي منها في أصابة هدفه، بل العكس، فقد سقط أحدها على

منطقة سكنية فلسطينية. ظلّ العلم العراقي بشكله المعروف في زمن الطاغية يرفرف من أعلى المنارات، بالاضافة إلى بحيرة إصطناعية على شكل خريطة العالم العربي تعكس صورة الجامع وفي وسطها جزيرة من الموزائيك الأزرق على شكل ابهام الطاغية. ربما لكل هذه الأسباب شعرت انه من الصعب أن يكون اسم هذا أي شيء غير جامع أم المعارك.



تلا الاجتماع غداء باذخ توسطه الكثير من الرز واللحم، وبعد تلك الوليمة اتجهنا نحو مقر المخابرات، الشعبة الخامسة، في الكاظمية، أقدم ضاحية شيعية في وسط بغداد والتي أخذت اسمها بسبب مرقد الإمام الكاظم سابع الأئمة الاثني عشر.

وعند نزولنا من السيارة في تلك الظهيرة كانت حرارة الجو عالية فوق العادة وبلا نسمة هواء، وزاد من سوء الأمر الاسفلت والكونكريت والحشود البشرية المكتظة. اتذكر انني كنت أتدافع مع جموع الناس الذين تكدسوا عند البوابات الخارجية للشعبة الخامسة، متبعاً ببطء عمّي الذي إخترق الصفوف بلا مبالاة وكأنه صاحب حق منزل في تجاوزهم.

وفجأة صرت وجهاً لوجه مع أمرأة عجوز ترتدي السواد ولها وجه لن أنساه ما حييت. دسّت صورة لابنها المفقود في يدي على مقربة من بوابة المجمع حين كان عمّي يخترق الحشود. لم يُسمح لها بالدخول، على العكس من عمّي الذي كان يتصرف وكأنه يمتلك المكان، بسبب أنه أحد رجال السيد.

ألقيت نظرة على صورة أبنها ورأيت مكان وجهه فارغاً وكأنّها واحدة

من الصور البيضاء للنبي، عليه السلام، التي وجدتها في كتابٍ صوري في مكتبة أبي. من كثرة اللمس، مُحِيَ الجزء الفضي لوجه ابنها منها. رفعت رأسي من الصورة لأنظر إلى وجهها القلق والمليء بالتجاعيد دون أن أتمكن من قول كلمة واحدة. بدلاً مني تحدث شاب كان يرافقها:

«تجاهلها، أنها تأتي إلى هنا في كل يوم». ثم قام بحركة بيده ليوحي بأنها لم تكن سوية العقل.

كم كرهت الطاغية في تلك اللحظة، حتى أكثر مما كرهته لقتله أبي.

دخلت مبنى الشعبة الخامسة، ثم إلى أروقة ملأتها القذارة، بحثاً في الأوراق المرمية والمتناثرة عن ملف ابي، آملاً بأن أعرف ماذا حصل له وأين تم دفنه. أصبحت كالمجنون وأنا أبحث عن أي ورقة تقودني له. كنت مليئاً بالغضب ولم أبالِ بأي شيء وأي أحد من حولي، أركل الكراسي وأضرب المناضد بدون سبب رغم انها كانت ملكية العراق لا الطاغية. فتشت في كل غرفة مهجورة من هذا المبنى المتداعي لكنني لم أعثر على الملف ولا على أي شيء، وان كان هناك ملف فعلى الأرجح سرقه محترفون في الأيام الأولى لسقوط الطاغية. ربما أخذه الأمريكيون أو إحدى الميليشيات التي تسللت إلى المكان حين أزال المحتلون الحمقى كل العوائق من أمامهم.

لماذا كل هذا السخط؟ هل أصبحت مثل أولئك المليشيات؟ لم أعد أعرف نفسي. بعد موت أميّ والفوضى التي عمت بلدي إنكسر شيء داخلي... أصبحت أنا تلك الفوضى.

صفعة مؤلمة

بعد عودتي إلى النجف، انضممت إلى جيش الإمام المنتظر من أجل خدمة السيد الذي قتل أبوه وأخواه الاثنان من قبل صدام في عام ١٩٩٩. وكان أبو السيد، سيد صادق، ابن عم ونسيب الشهيد الأول محمد باقر الصدر، العالم الشيعي الكبير ومؤسس حركتنا الذي عذّبه وقتله الطاغية مطلع الثمانينيات.

لحين وفاتها رفضت أمّي فكرة إنضمامي إلى أي جيش، وقالت بنبرة حازمة «لن تكون جنديّاً». لم يعارضها عمّي في وقتها، لكنه في الأشهر التي تلت وفاتها ودعوة السيد للانضمام إلى جيش الإمام وحمل السلاح فتح الموضوع مجدداً وقال لي انه لو كانت أمّي حية ترزق لاتخذت موقفاً مختلفاً الآن، وانها، وأبي إلى جانبها في الجنّة، سوف يكونان راضيين عني، لكوني أخدم بلدي كما فعل أبي. لكن الحقيقة يجب أن تقال، لم يكن عمّي بحاجة إلى بذل الكثير من الجهد لإقناعي فأنا كنت متشوقاً كمعظم الشباب للانضمام إلى موجة التغيير التي اجتاحت العراق.

كنت ذات يوم واقفاً في الطابور عند أحد مراكز التجنيد التابعة لجيش الإمام حين سمعنا خبر إلقاء القبض على الطاغية في مخبأه الواقع على بعد خمسة عشر كيلومتر جنوب تكريت. عمّت مظاهر الفرح في الشوارع وأخذ الرجال يرقصون ويطلقون العيارات النارية في الهواء. كان

يقف أمامي في الطابور شابٌ يكبرني ببضع سنوات ينتظر أيضاً دوره للتطوع في جيش الإمام. كان أسمه «المنتصر»، والذي جلب انتباهي إليه أنه طلب من الشخص المسؤول عن التسجيل رفع «ال» التعريف من الاسم والاكتفاء بكتابة «منتصر». أراد تغيير اسمه. كان هذا الرجل وأمثاله يندفعون إلى مراكز التجنيد خلال الأسابيع الأخيرة بأعداد كبيرة بحيث لم تكن المراكز قادرة على تسجيل أسمائهم جميعاً فكانوا يضطرون إلى العودة في وقت آخر. وقد جلب منتصر معه تزكية شيخ الجامع في منطقته والذي تمّ تسجيل اسمه في دفتر كبير إلى جانب اسم منتصر كمسؤول مباشرٍ عنه.

بالنسبة لي، فقد جاءت تزكيتي من عمّي وهو ما جعل القائمين على المركز يُظهرون الكثير من الاهتمام والاحترام تجاهي إلى حد ان ذلك أحرجني أمام بقية المتطوعين. لم يوجه لي رئيس المركز أيّ أسئلة، فقد انهيت مع صديقي حيدر تدريبنا العسكري مع الكتيبة الأولى لجيش الإمام في البصرة قبل ثلاثة أسابيع، وجاءت أوامر بنقل وحدتنا إلى النجف. وخلال التدريب كان علينا أن نستيقظ فجراً لأداء الصلاة ثم تناول إفطار يتألف من التمر الجاف وبعض الخبز، وبعد ذلك تخصص عدة ساعات لتعليمنا استخدام وتفكيك وإعادة تجميع الأسلحة كالنسخة الصينية من الكلاشينكوف الروسي. ثم يأتي وقت الغداء ويتألف من الرز ومرق الفاصولياء ثم تليه ساعتان من إطلاق النار الحيّ في الجانب الفارغ من التلّ. وفي بعض الأحيان كنّا نتدرب على كيفية إلقاء القنابل اليدوية (الرمانات) مستخدمين أحجاراً مصبوغة بنفس حجم ووزن تلك القنابل. وينتهي اليوم عادةً بلعب الكرة أو بالمصارعة، ثم بالعشاء المبكر. بقينا على هذا الروتين لمدة أسبوعين، وبعد ذلك تم اختيار بعض المتطوعين لتلقي تدريب أكثر تركيزاً كتعلم ربط المتفجرات

بالأسلاك وتفجير البنايات والجسور. بعد كل هذا التدريب، كان تسجيلنا في مركز التطوع في النجف عبارة عن ممارسة شكلية.

على عكس حالتنا، انا وحيدر، جاء منتصر إلى مركز التطوع في النجف من أجل إكمال كافة اجراءات العضوية والتسجيل التي تضمنت في حالته الإجابة على أسئلة هدفها التحقق من التزامه تجاه القضية التي يتبناها السيد. اتذكر جيداً ما ميّز هذا الرجل النحيف ذا الدشداشة المتسخة عن بقية الواقفين في الطابور: بسطاله الجلدي الاسود المسحوق إلى حد التلف. يبدو ان منتصر لم يكن منتبهاً لمظهره غير المتناسق: دشداشة وبسطال! كان يتوقع أن قيادة جيشه سيعطونه زيّاً عسكرياً ولهذا السبب ارتدى البسطال لكنه لم يحصل على الزيّ العسكري. رغم هذا رأيت على وجهه احساساً بالفخر للمهمة الجديدة التي تنتظره. بالنسبة له، وحتى بدون الزي العسكري فإنه على الأقل كان يرتدي البسطال، وان كان بسطاله في حالة يرثى لها.

كان مسؤول تسجيل المتطوعين شيخاً بعمامة بيضاء تشير إلى انه ليس من نسل النبي، حيث يكون لون العمامة سوداء. جمع هذا الشيخ بين دوره كرجل دين وبين مسؤولية إدارة مركز التطوع الواقع في إحدى محلّات المدينة القديمة المجاورة لمحلتنا. ألقى الشيخ نظرة متفحصة على منتصر وبسطاله، وطلب منه الإجابة على كل الأسئلة التي ستُطرح عليه بصدق والا فإنه سيحمل ذنبه معه إلى القبر.

أشار منتصر برأسه، علامة على سماعه النصيحة والتزامه بها.

«من هم والداك؟»

«لديهم دكان لبيع المشروبات الغازية والحلويات»، أجاب منتصر.

«هل تلتزم دائماً بأداء الصلاة؟»

«طبعاً يا شيخنا، أنا لا أفوّت صلاةً واحدةً أبداً.»

«أبداً؟ هل أنت متأكد، لا تنسَ انك إذا كذبت على السيد فإنك تقترف ذنباً كبيراً.»

«أبداً، أبداً، أقسم لك.»

«وهل تصوم في المواعيد المحددة.»

«نعم، بالتأكيد يا شيخ. انا أصوم في رمضان دائماً ولم يفتني الصيام ولا مرةً واحدةً.»

«لماذا تريد الانضمام إلى جيش الإمام؟»

«أردت ان أصبح مقاتلاً منذ أول أيام الاحتلال عندما سمعت السيد يقول ان الشيطان الأصغر رحل، وجاء الشيطان الأكبر.»

«وماذا فهمت من تلك الكلمات؟»

«فهمت أن السيد يحب العراق كثيراً، وتعلّمت أن عليّ أن أقاتل المحتل من أجل وطني.»

«نعم، ولكن هل تعرف من هو الشيطان الأصغر؟»

«صدام.»

«هل فرحت باعتقاله.»

«طبعاً، لكنني تمنيت لو كنّا سبقنا المحتل إليه.»

أشار الشيخ برأسه علامة استحسان على ما قاله منتصر، ثم نظر إليه مجدداً وسأله «ومن هو الشيطان الأكبر؟»

«المحتل الأمريكي الذي تلقى صفعة مؤلمة بتدمير مركز التجارة العالمي.»

«صفعة مؤلمة؟»

«نعم.»

«صفعة، ومؤلمة في نفس الوقت؟»

«طبعاً، فهي لم تدمر أمريكا لكنها آذتها. هؤلاء الكاوبوي يريدون الانتقام بسرقة نفطنا.»

وبنهاية تلك الأسئلة، أصبح منتصر عضواً في جيش صاحب الزمان، الإمام المهدي المنتظر.

البسطال الأسود

بعد استكمال منتصر تدريبه العسكري بفترة قصيرة، جاء أمر من السيد لوحدته باحتلال ضريح الإمام الحسين في كربلاء. يعني ذلك ان بيت الصدر يسعى لانتزاع السيطرة على الضريح من بيت الحكيم. كنا نريد إذلالهم عبر هذه الحركة التي كانت الأولى في مجموعة مواجهات استمرت لثلاث سنوات.

لم يكن منتصر ووحدته مستعدين لهذه المعركة. فقد واجهوا فيها مقاومة شديدة من مقاتلين متمركزين في داخل الضريح والذين يمتلكون خبرة طويلة، وبعضهم كانوا قد شاركوا في حرب الثمانينيات الكبرى، وقد عادوا للتو من إيران مدربين ومسلحين بشكل أفضل من جيش الإمام. نجحوا بسهولة في صدّ الهجوم وقتلوا وجرحوا عدداً من رفاقنا. انتشرت مضاعفات الهجوم الفاشل إلى النجف وأخذ رجال الدين التقليديون والميليشيات الشيعية المتحالفة مع إيران بإدانة جيش الإمام.

وفي اليوم التالي، قامت ميليشيات الحكيم بتعميم منشورات أحدها لصق على جدار بيتنا تزعم:

«جيش الإمام يتكون من عناصر مشبوهة ومن بينها عناصر من النظام المقبور، ومسؤولوه الأمنيون هم ضباط بعثيون عصبوا رؤوسهم بخرق بيضاء وسوداء لتضليل الناس بأنهم أناس مؤمنون والحقيقة أنّهم وكلاء

للشيطان. نحن أهل النجف لسنا بحاجة إلى هذا الجيش الزائف الذي أسموه خداعاً بجيش الإمام، وإمامنا المنتظر ليس بحاجة إلى جيش مؤلف من اللصوص والمنحرفين تحت قيادة الأعور الدجّال.»

رأى عمّي ان من الحكمة لي ولحيدر أن نختفي لبعض الوقت، لذلك قررت أن أبقى مع منتصر الذي جرح في المعركة وتم نقله للعلاج في جامع موالٍ لبيت الصدر يقع خارج المدينة.

كان وضع منتصر أسوأ كثيراً مما كنت أتوقع، فقد مزقت إحدى الشظايا جانبه الأيسر وأصيب فخذه أيضاً. لم تكن هناك أيّة أدوية لتخفيف ألمه أو معالجة إصابته في الجامع الذي تحول إلى ما يشابه مستشفى، تواجد فيه شاب يرتدي صدرية بيضاء وهو على الأرجح طالب في كلية الطب وكان يفحص منتصر وفي الوقت نفسه يكرز بذور الرقي المحمصة بينما انتشر الذباب في المكان وحول وجه الجريح. استقبلني منتصر بابتسامة مجهدة لكنني حين تطلعت إلى وجهه أدركت بانّه لن يحيا طويلاً.

وقف المعالج على قدميه وسحب سماعته هامّاً بالذهاب، وقال لي «لايمكن عمل شيء لانقاذ هذا الرجل وليست هناك أي فائدة من مواصلة فحصه». تطلّعت بوجهه وتمنيت لو أنه يغص بحبوب الرقي هذه التي ملأت قشورها الأرض بينما كان يخطو بعيداً عنّا.

جلست على جانب السرير ومعي قنينة ماء بارد وقطعة قماش وورق مقوى لطرد الذباب وكوب من البلاستيك يحتوي على عصير رمان اشتريته لانعاش منتصر وأنا في طريقي إليه. ثم أخذت أمسح العرق الذي كان يتصبب على حاجبيه وأقطر بعض الماء في فمه محاولاً فتح بعض الأحاديث معه للتخفيف عنه في محنته وجعله ينسى ألمه.

«ماقصتك مع عصير الرمان؟» سألني وهو يحاول أن يأخذ شربة صغيرة منه رغم صعوبته بالبلع.

«كل الأشياء الجميلة تأتي من المذاق الحلو لعصير الرمان كما كانت تقول أمي دائماً. هذه الفاكهة مباركة وقد ذكرت في الكتب السماوية عدة مرات، اشرب منها لأنها ستشعرك بالتحسن». فاستجاب.

أولئك الناس الذين يحتاجون إلى تعاطف الآخرين، والذين امتلأت حياتهم بالمعاناة، وبشكلٍ خاص أولئك الذين يعتقدون انهم يستحقون ذلك التعاطف وغالباً مايكونون أقل قدرة على التعاطف مع الآخرين. وكأننا نحن البشر مُنحنا قدراً محدداً من العطف، واذا ما استهلكناه كله في الحزن على بؤسنا والتعبير عن مظلوميتنا، لايبقى هناك مكانٌ في نفوسهم للتعاطف مع الآخرين.

لكن الأمر ليس كذلك في حالة منتصر. فكل ما أراده رفيقي في ساعاته الأخيرة هو ان يطمئن على رفاقه الذين جرحوا راجياً مني أن أرسل تحياته وتمنياته لهم بالشفاء العاجل، رغم انه لايوجد بينهم من تعرض لإصابة بخطورة إصابته. طلب مني أن أوزع بينهم المئة دولار التي كان يتقاضاها كراتب. قال ذلك وهو يرشف عصير الرمان على الرغم من الألم الذي يسببه ابتلاعه رغبةً بارضائي. أخذت كوب العصير منه لكي اوفر عليه هذا الألم.

أخبرني منتصر عن ما حصل في كربلاء. قال انه وإثنان من رفاقه حوصروا عند زاوية جدار مهدّم حين قامت مجموعة من رجال ميلشيا فيلق بدر من الطرف المقابل بإلقاء الرمانات المتفجرة عليهم. بعد سقوط القنبلة الأولى بعيداً عنهم أدرك منتصر ان الوضع ميؤوس منه وان القنبلة التالية أو التي بعدها ستطالهم. اندفع نحو جدار جانبي لكي يباغت العدو

الذي كان على مبعدة أمتار منه. ولكن حين رفع رأسه ليرمي إطلاقات رشاشته نحوهم وجد أمامه شاباً يصغره بالعمر بعينين سوداوين خائفتين تتطلعان إليه. تردد منتصر عن قتله بعد أن رأى الخوف في عينيه غير ان تردده سمح لهذا الشاب بأن يبادرَهُ ويلقي القنبلة نحوه. ذلك كل ما يتذكره بعد أن صحا ووجد نفسه هنا.

سألته ان كان يشعر بالندم.

«ما المستقبل الذي ينتظرني من بيع المشروبات الغازية على طريق كربلاء؟ كنت أحلم بأن أكون جزءاً من شيء أكبر وان أخدم المسلمين الفقراء مثل والديّ. كان أبي جندياً في الحرب الكبرى مع إيران وهذا البنطال الذي ارتديه يعود له، وقد ارتداه في الجبهة». قال ذلك وهو يشير بإصبعه المنهك وبفخر بادٍ على وجهه نحو فردتي البنطال اللتين اصطفتا في زاوية المكان.

«قاتل أبي من أجل بلده في الحرب الكبرى مع إيران ولهذا السبب أسماني المنتصر بعد انتصارنا الكبير في تلك الحرب.»

«ولماذا طلبت منهم أن يرفعوا (أل) التعريف من اسمك؟»

«لأن الاسم فيه الكثير من المكابرة. ذلك الانتصار كان لأبي وليس لي.»

«ماذا عن قتالك في كربلاء؟ هل كان الأمر يستحق ذلك؟»

«ما كنت لأترك إيران التي حاربها أبي وهزمها لتأتي وتحتل جوامعنا. أردت أن أشعر بأن لحياتي قيمة أكبر.»

«وهل نجحت؟»

«بدون شك. تمكن رفاقي من النجاة لأنني نجحت بتحريف أنتباه العدو بعيداً عنهم. أنا فخور بذلك.»

«لماذا لم تطلق النار أولاً.»

«حصل لدي شعور غريب حين أُلقيت الرمانة نحوي.»

«ما هو؟»

«تذكرت ذلك الشعور وأنا أرتشف عصير الرمان الذي جلبته. اعتقد ان من الخطأ تسمية القنبلة اليدوية بالرمانة كما نفعل نحن العراقيون. لا يمكن أن يقترن اسم أداة للقتل باسم نبات ينمو في الجنة ومذكور اسمه في الكتب السماوية كمصدر للحياة.»

«صحيح فعلاً، لم افكر بذلك من قبل.»

ما كان ينبغي ان ينتهي منتصر إلى هذا الحال، فهو يمتلك روحاً صافية وليس لديه قلب قاسٍ ليقتل. تساءلت مع نفسي، كم شخصاً يشبه منتصر بيننا الآن؟» ربما كان يجب أن يحصل على تدريب أكثر، على الأقل لكي يصبح قلبه أكثر قسوة، فربما كان سيتمكن من البقاء على قيد الحياة عندها.

بقيت معه طوال الليل، رأيت لون وجهه يتغير وتنفسه يغدو أكثر صعوبة حتى أخذ يصارع من أجل استنشاق الهواء. لكنه لم يفقد السيطرة أبداً. أخبرني في إحدى اللحظات انه رأى الموت، فسألته ان كان خائفاً.

أجابني «كلا... سأذهب إلى مكان أفضل.»

قلت له انني متأكد من ذلك وانني لن أنساه أبداً.

ظلّت عيناه تلتفتان نحو البطال.

قلبه كان منهكاً، بالياً، متعباً كبسطاله، كلاهما بانتظار النهاية... الموت، قلت في نفسي. هل من الممكن لقلبٍ وبسطالٍ ان يتحالفا؟ ربما هذا معنى الموت.

آخر شيء قاله، «أريدك أن تأخذ بسطالي.»

مات منتصر اختناقاً، حين اندفع الدم بدل الهواء إلى رئتيه. وكان وجهي العاجز آخر ما شاهده في هذه الدنيا. عند ساعات الصباح الأولى حضر شيخ وقرأ آيات من القرآن عند رأسه ثم أعطاني كيساً بلاستيكياً فيه بسطال منتصر قائلاً:

«أراد أن يعطيه لك.»

سألته، «كيف عرفت ذلك؟»

فقال، «ان منتصر أخبرني قبل زيارتك له.»

• • •

من الصعب الالتزام بالنهج الصحيح في ظروف الحرب والعنف لأسباب لا أدعي معرفتها... لكنني أشعر بأن منتصر نجح بذلك. لم أُصدَم بموته كما صُدِمتُ عندما عثرت على جسد ذلك الرجل في زقاق محلتنا يوم سقوط الطاغية. على العكس، تعلمت التواضع بموته. كذلك لم أشعر بالغضب كما شعرت حين حدث الانفجار الذي أودى بحياة السيد من بيت الحكيم في النجف.

لم يأت الموت في تلك الليلة التي توفى فيها منتصر وحوله هالة من التبجيل أو الحزن المبالغ به... لم يأت بنزعة للانتقام أو يحرك في أحد رغبة بمعركة جديدة... لم يخلف موته سوى فراغ.

أخذت الكيس البلاستيكي الذي يحتوي على بسطال صديقي. لم يكن مهماً ما إذا كنت أستطيع أن أرتديه فهو سيظل بسطال منتصر وبسطال أبيه من قبله. هذا البسطال الذي ارتُدِيَ في الحرب الكبيرة وظل جلده يتشقق وكعبه تم استبداله عدة مرات لم يعد مجرد شيء ينتمي إلى

وقت ومكان محدد، وإنما أصبح حلقة وصل بين حروب الأب والابن. بل انه لخّص ما تبقى من تلك القصص الصغيرة عن الكرامة والشرف التي هي قصة العراق. كان ذلك سبباً كافياً لاحتفظ ببسطال منتصر. ساحتاج هذا البسطال يوماً ما ليس للقتل بل من أجل التعلق بشيء... كما يتعلق الغريق بخشبة نجاة.

٢٠٠٤

أحقاد قديمة

مات منتصر بسبب اشتداد الصراع بين عائلتين دينيتين، عائلة الحكيم التي هربت إلى إيران في الثمانينيات وعائلة الصدر التي بقيت في العراق. وقد ازدادت حدّة هذا الصراع في النجف مع عودة أبو حيدر من طهران في أيار ٢٠٠٣ وتلك كانت المرة الثانية التي يرجع بها من المنفى بعد عودته القصيرة الأولى خلال انتفاضة ١٩٩١.

أحاطت عودة أبو حيدر الكثير من الشائعات. في البداية كان حيدر سعيداً، يروي بفخر انجازات أبيه في الخارج وصعوده في صفوف فيلق بدر الذي كان حينها الذراع العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وهو تنظيم أنشأته عائلة الحكيم في إيران وباركه آية الله الخميني نفسه.

لكن بعد تسعة أشهر سمعت أم حيدر من مصدر غير متوقع ان لأبي حيدر عائلة أخرى في طهران وطفلين من زوجة إيرانية أكثر شباباً منها، وهو أمرٌ لم يخبرها به أبو حيدر على الاطلاق.

كان مصدر هذه الأخبار المفاجئة هو جدّي، والد أبي وعمّي، الذي عاش معنا في بيتنا في محّلة المشراق وكان موضع احترام أمي. والحق يقال انا لم أحفظ الوعد الذي قطعته لأمي عند سرير الموت بأن أتقرب إلى جدّي وأتحدث إليه. كنت أخشى أن هذا العجوز ذا الوجه النحيف

والمليء بالتجاعيد سيصرفني بقسوة. لم أعرف كيف اكتشف جدّي زواج أبي حيدر من امرأة ثانية، لكنني أعرف جيداً انّه هو من أخبر أحد الشيوخ في محلّتنا الذي أسرع بدوره لزيارة أم حيدر وإخبارها، وهي بدورها أبلغت أخوتها الذين سارعوا إلى نشر الخبر في المحلة، وبوسعي القول إن جدّي كان يعرف ما سيحصل حين أفشى السر للمرة الأولى.

لم ينكر أبي حيدر القصة لأن هناك ما يكفي من الإثباتات. على العكس، بل دافع عن حقه المُنَزّل الذي منحه الله لكل مسلم مؤمن يمر بمشقة ويعيش بالمنفى بأن يتزوج من امرأة ثانية. ألم يسمح النبي للرجل بأربع زوجات؟ بأي حال، أضافت هذه الأحداث ملحاً على الجروح التي أخذت تنفتح في بيت أبي حيدر.

وبسرعة لافتة بدأت تخفت الهالة التي أحاطت عودة أبي حيدر إلى النجف، إلى ان انطفأت إلى الأبد. تلازمت التوترات المحتدة داخل العائلة مع التوتر السياسي الذي بلغ ذروته خلال القتال حول السيطرة على الضريح في كربلاء والذي أودى بحياة العزيز منتصر. اشتدّت الاحتقانات في بيت حيدر إلى حد انها هدّدت التوازن القلق بين بيتي الصدر والحكيم.

كان لدى أبو حيدر آمالاً كبيرة يرغب بتحقيقها بعد عودته من إيران لكن زوجته لم تشاركه تلك الآمال، ولا عائلتها التي تمتلك البيت الذي عاشت فيه أسرة حيدر والذي لا يفصل بيتنا عنه سوى عدد قليل من بيوت الجيران. توقع أبو حيدر أن يستقبل استقبال الأبطال حين عودته، وأن يُنظر له باعتباره الرجل الذي ضحّى بنفسه في «الكفاح من أجل الشيعة المظلومين،» والذي أسهم كفاحه في إسقاط الطاغية. وبالفعل

فقد ساد شعور من هذا القبيل في الأيام الأولى التي تبعت عودته. لكنه لم يدم طويلاً.

صار البعض يقول أن ابا حيدر لم يعش المشقة التي عاشها العراقيون تحت العقوبات والطغيان في آن واحدٍ، ولم يفقد عزيزاً خلال الحرب مع إيران، بل بالعكس ذهب كلاجيءٍ إلى ذلك البلد الذي كان العراق يخوض الحرب معه. لم يعد بمستطاع أبي حيدر أن يرفع رأسه على أم حيدر وعائلتها في بيتهم بعد أن اكتشفوا أنه أنفق السنوات الاثنتي عشرة الماضية بالزواج وإنجاب ورثة جدد والتمتع بحياة جيدة كعضو متقدم في منظمة مۆلها الإيرانيون الذين يطلقون علينا المثل الذي يقول «انّ العرب كانوا يأكلون الجراد حينما كانت كلاب أصفهان تشرب الماء البارد». ملأت أحاديث من هذا النوع شارعنا وصار معظم سكانه يميلون إلى جانب أم حيدر ويعطون ظهورهم لأبي حيدر، لا وبل يغادرون الدكاكين والمقاهي التي يدخلها.

كان عمّي، الموالي كلياً لبيت الصدر، وجدّي، يكرهون أبا حيدر. كذلك كان السيدان الكبيران من بيتي الحكيم والصدر، وهم من أقدم العوائل الدينية المعروفة في مدينتنا، يكرهان أحدهما الآخر على الرغم أن كليهما من نفس المدينة، النجف الأشرف، وربما كان هذا هو السبب الرئيسي في عدائهما المستحكم. إضافةً إلى كون سيدنا قد بقي وعانى في العراق كما فعل والده الذي قتل على يد الطاغية، بينما غادرت عائلة الحكيم العراق إلى إيران وأسست منظمة لتصدير الثورة الإسلامية التي مولتها إيران وقادها إمام إيراني. لذا تحول التنافس بين البيتين إلى صراع بين مفهومين مختلفين للأمة: مفهوم محلي وعراقي بالكامل نابعاً منا، بينما الآخر هو مفهوم مستورد وأجنبي يعني عملياً حكم الفقهاء الأجانب علينا نحن العراقيين.

أمّا كراهية جدي فستظل لغزاً بالنسبة لي خصوصاً بعد أن شهدت حماسه غير المفهوم لنشر خبر الزواج الثاني لأبي حيدر، فجدّي لم يكن أبداً رجلاً متديناً ونادراً ما زار مسجداً أو أدّى صلاة الجمعة وكان على الدوام معادياً لرجال الدين، وكان يردد دائماً أنهم لصوص ودجالون، رافضاً مبدأ أن يعطيهم الخمس. ما الذي جعل جدّي، الكهل الذي لم تعد له أسنان والذي لم أره يفعل شيء من قبل سوى النظر بسخط وغضب على المارين قرب مقعده المألوف في المقهى، يبذل كل هذا الجهد للاساءة إلى والد أقرب أصدقائي؟

• • •

بعد أسبوع من تلك الفضيحة قمنا أنا وحيدر بزيارة شيخ الجامع في منطقتنا، وهو رجل موالٍ لبيت الصدر. درسنا القرآن على يديه خلال مرحلة مراهقتنا، وقد لعب دوراً في نشر القصة. كنّا نريد أن نفهم أكثر منه حول هذا الموضوع.

وجدناه يجلس القرفصاء بين مجموعة وسائد في زاويته المفضلة في الجامع، يدخن ويأكل من صحن مليء باللوز المحلّى (المصقول) وقد دعانا بإشارة من يديه لمشاركته. سألته «ما الذي يجعل جدّي يأخذ هذا الموقف من أبي حيدر؟»

«أحقاد قديمة» أجابني. «هنالك الكثير من الحقد القديم بين جدّيكما ويعود إلى زمنٍ طويلٍ قبل عودة أبي حيدر.» ثم نظر اليّ وقال، «جدّك يعرف انني كنت ملزماً بإخبار والدة حيدر،» ثم استدار باتجاه حيدر واعتذر عن أي توتر حصل داخل العائلة بسبب ذلك، مكرراً انه كان ملزماً بفعل ذلك.

تلك كانت المرة الأولى التي نسمع بها عن وجود أحقاد قديمة بين عائلتينا.

«أخبرنا بالقصة يا شيخنا، فيشهد الله لم أسمع بهذا الموضوع من قبل أبداً» قال حيدر الذي كان مستاءً كثيراً في الأيام الماضية من خبر وجود إخوة له في طهران.

«كان جدّاكما في شبابهما شيوعيين وقريبين جداً من بعضهما، وكانا يديران شؤون محلّتنا.»

«شيوعيان وأدارا محلتنا أيضاً؟» تساءلت مع نفسي. أردت معرفة المزيد من التفاصيل.

«لنرَ... دعني اتذكر، ربما يعود الأمر إلى ثلاثين أو أربعين عاماً مضت. كانا في العشرينيات من عمريهما وكنت أكبرهما ببضع سنوات وأدرس في الحوزة. في أواخر الستينيات وبعد أن أصدر المرجع الأعلى آية الله من بيت الحكيم حينها فتواه باعتبار الشيوعيين ملحدين وحرّم الانتماء إلى الحزب الشيوعي، كان جدّاكما غاضبين. أراد بفتوته هذه أن يحد من نفوذ الشيوعيين في أوساط الشباب، وذلك المرجع هو والد السيد الذي قتل بانفجار آب الماضي.»

«هل تقصد السيد الذي عاد للتو من إيران كما فعل أبي؟» سأل حيدر.

«نعم. أبوك عمل دائماً مع بيت الحكيم ومعظمهم ذهبوا إلى إيران في مطلع الثمانينيات بعد أن أعدم صدام حوالي ٨٠ شخصاً من عائلتهم.»

«هل أنت واثق انّ جدي كان عضواً في الحزب الشيوعي؟» سألته وأنا غير قادر على أن أرى جدّي شيوعياً رغم انه لم تكن لدي فكرة

واضحة عن الشيوعيين سوى ما قرأت في أحد الكتب انه عند سقوط الملكية كان هناك حزب أسمه الحزب الشيوعي العراقي.

«كان يحمل هوية الحزب» ردّ الشيخ وهو يرفع وعاء المصقول بيده ويصر علينا أن نأخذ شيئاً منه، ثم واصل القول وهو ينظر إلى حيدر» إلى جانب جدّك رحمه الله. كان كلاهما مؤمناً بالعدالة الاجتماعية ومتعاطفاً مع الفقراء، وكانا يجيدان العمل التنظيمي ويعملان سويةً على الدوام.»

«إذن ما الذي حصل؟» سأل حيدر وقطعة اللوز في فمه.

«جاء صدام عليه اللعنة، هذا ما حصل. كان يدير الشرطة السرية حينذاك ويقود مايسمونه بجهاز حُنين على ما أتذكر.»

«ياله من اسم غريب» قلت بصوت منخفض.

«هو اخترع هذا الاسم في سنوات الضيق التي سبق استيلاء البعث على السلطة في العام ١٩٦٨.»

«حُنين إشارة إلى ماذا؟» سألته وأنا أواصل التفكير بهذا الاسم الغريب لجهاز أمني.

«إشارة إلى التغلب على كل العقبات للوصول إلى السلطة طبعاً، كما فعل الرسول في معركة حُنين الشهيرة في صدر الإسلام. كان صدام يحب إستعارة الأسماء من قاموس المعارك العربية الإسلامية. كان حزب البعث صغيراً لا يعد المئات في تلك الأيام، ولكن رغم هذا ضلّ هدف صدام الوصول إلى السلطة. ليس هناك غير السلطة بالنسبة للبعثيين، بعكس الشيوعيون، وكانت تلك مشكلتهم الكبيرة في حينها، بمن فيهم جدّيكما. لم يستهدفوا السلطة رغم العدد الهائل من الكوادر والمؤيدين التابعين لهم. كان بمقدورهم تنظيم مظاهرات حاشدة بالمئات من

الآلاف، ولكنهم لم يسخروها سياسياً. أمّا صدام فقد فهم طبيعة وأهمية السلطة وإستهدف الوصول إليها، ولذلك تفوق على أعدائه، وحُنين كانت وسيلته.»

«كيف مات جدّي،» سأله حيدر.

«قتل جدّك في الكفاح ضد البعث في الأهوار القريبة من العمارة. أنظر، حالما تسلم البعثيون السلطة طلبوا من الشيوعيين أن يدخلوا الحكومة معهم ووعدوهم ببعض الوزارات، وقالوا لهم ان رفضتم فسوف نقضي عليكم جميعاً. اشترطوا على الشيوعيين قبول قيادة حزب البعث للثورة الاشتراكية المقترنة بهم. حتى الاتحاد السوفيتي ضغط على الشيوعيين كي يقبلوا هذا العرض. لكنهم انقسموا حوله ودخلوا في نقاشات حادّة. أتذكر أنّ جدّك يا حيدر كان عصبيّ المزاج وأخذ موقفاً صارماً خلال النقاشات التي جرت في مقهى قريب من هنا. وانتهى الأمر إلى انقسام حاد حين اتهم جدّك، ومجموعة من رفاقه، باقي أعضاء الحزب بأنّهم يتملقون للنظام الفاشي. ثم اعلنوا أنشقاقهم من الحزب وتركوا المدن التي يعيشون فيها خشية من ملاحقة رجال الأمن لهم.»

ثم التفت الشيخ نحوي قائلاً «في ذلك الوقت قبل جدّك بشروط النظام ودخل في الخدمة المدنية تحت سلطة أحد الوزراء الشيوعيين الجدد.»

«وجدّي، هل اختبأ في الأهوار؟» سأل حيدر.

«هو لم يكتف بالاختباء بل انّه ورفاقه حملوا السلاح وذهبوا للعيش بين الفلاحين، مقلدين حركة ماوتسي تونغ.»

«هل تقول ان جدّي مازال يحمل ضغينة منذ ذلك الوقت» سألت غير مصدق وفي ظني ان العجوز لا يهمّه شيء سوى نفسه.

«بل أكثر من ذلك. أجبر جدّك أخته على فسخ خطوبتها من صديقه السابق سالباً منها سعادتها. أعرف ذلك لأن أبي حضر عقد زواجهما. الأحقاد تتغذى على بعضها ولا تنطفيء أبداً.»

شكرنا الشيخ كثيراً على صدقه وصراحته وهو في المقابل أصّر على إعطاء كل واحد منّا كيساً من المصقول الذي يبدو ان لديه خزيناً لا ينفذ منه، وشرح لنا ان «هذا الأسبوع كان أسبوعاً سعيداً بسبب كثرة الزواجات ومعها الكثير من المصقول...» ثم أضاف «لكن يا أبنائي لا تجعلوا هذه الأخبار تفسد يومكم، فليست هناك مصلحة في أن تسيروا بالطريق نفسه الذي سار فيه جدّاكما.»

عراقيون أجانب

عاد حيدر يوم أمس من رحلة إلى بغداد حاملاً قصة غريبة. قال انه رأى في مكتب مستشار الأمن القومي وهو رجل متعلم عاش وعمل في لندن لعدة عقود، تمثالاً نصفياً لصدام حسين وهو يرتدي خوذة تشبه تلك التي كان يرتديها الضباط الإنكليز الذين تواجدوا في العراق خلال الحرب العالمية الأولى. وضع التمثال الضخم في زاوية المكتب بحيث إن عينيه البليدتين المفرغتين من القزحية واللتين تشبهان عينيّ أبو الهول تحدقان بوجه الشخص الجالس وراء المكتب.

«هنالك عراقيون مثلنا، ولكن في بغداد هنالك أيضاً عراقيون أجانب»، قال حيدر.

«ماذا تقصد؟» سألته.

«هم يكرهون صدام بطريقة مختلفة عنا.»

«لم أفهمك بعد.»

«عندما كنا نعلق صورته على الجدران فأننا كنا مضطرين لذلك خوفاً من وشاية الجيران ومن وكلاء الأمن. ما كنا سنضع تلك الصور لأي سبب آخر...»

«ما الذي ترمي إليه؟»

«صدام كان يهيمن على حياتنا ولم نكن بحاجة لرؤية وجهه كي

نتذكره. نكره صوره وتماثيله كما كرهناه ونظامه، وهذا الكره طبيعي. وما دمنا تخلصنا منه فلا نريد أي شيء يذكرنا به.»

«وماذا عن هؤلاء الذين تسميهم بالعراقيين الأجانب، كيف يكرهون صدّام؟»

«هو يعيش في عقولهم كفكرة لا يستطيعون التخلص منها، حتى لو لم يكن لصدام أي أثر على حياتهم. يقولون انهم يحبوننا نحن أهلهم الشيعة، لكنّ السبب يعود برأيي إلى أنّهم عاشوا بعيداً عنّا ولم يعيشوا بيننا. فنحن الشيعة الذين عشنا هنا لسنا مغرمين بأنفسنا بكوننا شيعة. نحن نقبل ما نحن عليه ولكننا لا نجعل منه قضيتنا. نتطلع نحو مستقبلٍ أفضل، في حين أن الزمن توقف عندهم، وكالتمثال الذي رأيته في مكتب المستشار يحدقّون إلى الماضي متشبثين بأفكارهم.»

«فهمتك الان. ولكن لماذا تسميهم بالعراقيين الأجانب؟»

«لأنهم عراقيون وأجانب في الوقت نفسه، ومع ذلك ليسوا بعراقيين ولا هم بأجانب. أشكالهم تشبهنا لأنهم وُلدوا في العراق، لكنهم لم يعودوا يشعرون أو يفكرون مثلنا، ولا هم يرتدون ملابسنا أو يأكلون أكلنا أو يمتلكون عاداتنا.»

«بحسب وصفك، هم شخصيات مزدوجة.»

«هذا صحيح» أجاب حيدر وقد ملأه الحماس، «لقد وصلوا مع المحتل واستقروا في بغداد داخل مجمعات شديدة التحصين، وفي مخيلتهم روايات وهمية أصبحت كقصص الأطفال تروى عن الحياة في عراقٍ مضى وانتهى. ولا يعرفون شيئاً عمّا يجري خارج مكاتبهم ويتجنبون الاحتكاك بالعراقيين العاديين بل ويبدو أنّهم يخافون منهم. هل شاهدت أحداً من هؤلاء يظهر في مكان حصل فيه هجوم إرهابي؟»

«فعلاً، كنت أفكر بالشيء نفسه. فانا لم أرهم أبداً يزورون الضحايا في المستشفى أو يساعدون العوائل المنكوبة.»

«هم ثوريون بالاسم فقط، يعوضون عن النقص الذي يستشعرونه بسبب جهل الناس بهم باستجار شقاوات أجانب لحمايتهم.»

«قولك ان العراقيين الأجانب هم أشخاص ضائعون في أعماقهم؟ أمنيتهم ان يعيشوا في مكان غير مكان إقامتهم وما أن تحققت تلك الأمنية تراهم غير متمين ومتمسكين بأحلامٍ طوبائية؟»

«نعم. ولكن ربما كان الأمر أبسط من ذلك ياعزيزي. هم يهربون من رتابة الحياة في المجتمعات المنظمة جيداً التي منحتهم اللجوء وفرصة لحياةٍ مستقرة.

«صحيح ما تقول يا حيدر. ضجروا من الحياة وأرادوا المغامرة.»

• • •

قلعة العراقيين الأجانب كانت شيئاً أنشأه المحتل وأسماه بمجلس الحكم. خمسة وعشرون رجلاً وامرأةً اختارهم المحتل ليس بناءً على قدراتهم الشخصية أو مكانتهم الاجتماعية، بل استناداً لخلفياتهم القبلية والطائفية والدينية والعرقية والبلد الأجنبي الذي لجأوا إليه وقد اختاروا ثلاثة عشر عضواً شيعياً في المجلس باعتبارهم غالبية.

من بين كل السياسيين في العراق، فإن سيدنا وحده أدان هذا المجلس منذ البداية ووصف أعضاءه بأنهم «كفار» و«أذناب المحتل». حاول عمّي حينها أن يقنع السيد بتخفيف موقفه، بل واخفائه، لأن من الضروري العمل على كسب هؤلاء العراقيين الأجانب وربما الاستفادة

منهم، وبشكل خاص الأعضاء الشيعة الثلاثة عشر الذين صاروا يسمون أنفسهم بالبيت الشيعي.

أنشأوا هذا البيت الشيعي سراً وكان هدفه تسهيل سيطرة الأعضاء الشيعة على المجلس الذي أقامه المحتل رغم ان كل هؤلاء الأعضاء تم اختيارهم من المحتل نفسه. كانوا يريدون ان يجتمعوا بشكل سري في كل مناسبة يناقش بها المجلس قراراً حيوياً ويظهروا ككتلة موحدة لإضعاف الأعضاء السنة.

مع ذلك فإن الاعتدال الذي أظهره عمّي كان بالدرجة الأولى تكتيكياً.

«هم يرتدون شيعيتهم وكأنها بدلة ليست على مقاسهم، ضيقة جداً في بعض المواقع وعريضة جداً في مواقع أخرى». وأضاف عمّي منتقداً هذا النوع من ممارسة السياسة: «يجب أن تكون لدى الرجل جذور قوية بين أهله، وهو شيء يفتقر إليه العراقيون الأجانب.»

بعد بدء المحادثات السرية بيننا وبين البيت الشيعي، حدث وان كان عمّي متواجداً في الغرفة نفسها مع العراقيين الأجانب من أعضاء مجلس الحكم الذي أسسه المحتل. وكان أحد الأعضاء من السنة العلمانيين القادم من لندن، وهو صديقٌ حميمٌ لأعضاء الشيعة في المجلس الذين قدموا معه، قد شعر ان هناك شيئاً غريباً يُحاك خلف ظهره حين متابعته لكلمة ألقاها أصدقاؤه الشيعة... كأن هناك اتفاقاً مسبقاً، أو أجندة خفية اتفق عليها هؤلاء قبل دخول الغرفة وبدون علم منه. أصبح وجهه شاحباً، ولم يستطع تصديق ما يشاهده من أصدقائه الشيعة ونبرة كلماتهم. ساد بعدها صمت غير معتاد في الغرفة التي كانت تتسم اجتماعاتها بالصخب، ومن هذا الصمت ولدت السياسات الطائفية.

منذ تلك اللحظة وحتى نهاية ما أسماه المحتل بمجلس الحكم، تعارضت الاجندات الشيعية مع الاجندات السنية وأصبح هذا الصراع يتحكم بتفكير جميع الأعضاء وهم يجلسون في مكاتبهم الفخمة المذهبة في المنطقة الخضراء. معقل العراقيين الأجانب، المسمى خطأً بمجلس الحكم، أثبت إفلاسه عن حكم نفسه، ناهيك عن حكم بلدٍ بأكمله اسمه العراق.

ليس هناك أحَدٌ تحدّث عن الطائفية، أو فكر كطائفي، وبرّر أفكاره باسم الطائفية، ثم انكر طائفيته، أكثر من أعضاء البيت الشيعي في مجلس الحكم. في بداية الأمر، لم يخطر ببال أي أحدٍ من بيت الصدر أو جيش الإمام تبني تلك الأفكار.

ولكن فيما بعد ستصبح الطائفية نهجاً سائداً في العمل السياسي في العراق الجديد وعندها فإن حركتنا ستتبّناها بل وستثبت أنها أفضل بآلاف المرات في التعبير عن طائفيتها من العراقيين الأجانب. لكنّ ذلك لم يحدث في العامين الأولين بعد الاحتلال حين كان العراقيون الأجانب هم من يضع قواعد اللعبة. أولئك الذين عيّنهم المحتل علّموا شيعة العراق كيف يشتكون من مظلومتيهم تحت حكم صدّام الذي جعلوه يظهر وكانّه حكم سنّي، وجعلوا من البعثيين وكأنهم كلّهم سنة، وأنّ كل السنّة بعثيون وبالتالي ينبغي الشك بهم. في المؤسسة الوحيدة التي سيطروا عليها، وأعني بها هيئة اجتثاث البعث، العراقيون الأجانب مارسوا الطائفية كما لم يمارسها أحد من قبل.

سألني عمّي: «لو حدثت مسابقة بينهم وبين صدّام حول من هو أكثر طائفية، من تعتقد أنه سيفوز؟»

«لا أعرف.»

«سأخبرك» قال وقد علت الابتسامة وجهه الكبير المدور، «صدّام كان أقل طائفية.»

«هو لم يكن يخرج على المنبر ويصرخ قائلاً أنا طائفي»، أجبته، «لكن ذلك لا يعني أنّه لم يكن طائفياً.»

«يتحول السياسيون إلى طائفيين حينما يكونون ضعفاء»، ردّ عمي.

«هل تعتقد ان الطائفية ظهرت بشكل متعمد؟» سألت عمّي، «هل هذا ما أراده المحتل؟»

«فرق تسد، هذا ما أراده المحتل، والأمريكيون يسمون ذلك ديمقراطية. لكن هناك تفسيراً آخر لما جلبه العراقيون الأجانب إلى العراق.»

«ما هو؟»

«كونهم بلا جذور. عندما لا يكون لدى الإنسان قاعدة وسمعة بين أهله، يضطر إلى إختلاق أعداء ليخوف ويخادع عامة الناس. وهذا ما كان يفعله الطاغية طوال فترة حكمه»

«لكنه كان حينها يمتلك السلطة أمّا مجلس الحكم فلا يمتلكها. ما قولك في هذا؟»

«السلطة والرغبة بالفوز بها، هو صلب الموضوع. ما لا يدركه هؤلاء الحمقى هو أنّ بإمكانك أن تكون طائفياً حقيقياً فقط عندما تمتلك السلطة، وليس عندما تتظاهر بأنّك تمتلكها.»

عصابة الثلاثة عشر

بعد أسبوع واحد، وجدت نفسي مع عمّي ومجموعة صغيرة من رفاقه نجلس القرفصاء في غرفة قريبة من مكتبه وعلى سجاد فارسي من النوع الممتاز الذي لدى عمّي مجموعة جيدة منه، وقد وضعت السجادات واحدة فوق الأخرى مانحةً المكان ملمساً ناعماً ومظهراً غنياً. ما أن تطأ قدم الزائر عتبة بيتنا حتى يستشعر أهمية عمّي.

الرجل العجوز الذي عمِلَ في خدمته منذ أن وعيت على الحياة كان يقدم الشاي للضيوف، حاملاً في إحدى يديه إبريقاً للشاي من السيراميك المزخرف وفي الأخرى إبريقاً من الماء المغلي. كان يجول على الضيوف ليصب الشاي في استكاناتهم المذهبة. وُضع السكر في حاويات فضية إلى جانب أكواب الماء الموزعة في أرجاء المكان وعلى مقربة من الجالسين. قبل وصولي كان الجالسون يناقشون مقترحاً إيرانياً نقل إلى عمّي من قبل واحد من الأعضاء الثلاثة عشر في البيت الشيعي، ويبدو أنهم توصلوا إلى قرار. كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها حديثاً كهذا.

«إذن اتفقنا» قال عمّي، «سوف لن نحصل على عرض أفضل للأسلحة والقنابل اليدوية من السعر الذي قدموه. سنخبر هذا البليد حال وصوله بأننا قبلنا العرض، ولكن ماذا يجب أن نفعل مع هذه الألغام الجديدة التي يريد الإيرانيون أن نستخدمها على المدرعات الأمريكية؟»

«لا أرى مشكلة إن قبلنا ببضع مئات منها خصوصاً وهي للاختبار الميداني وبدون مقابل في الوقت الحاضر»، قال أحد الجالسين وأسمه حسن، الذي كان مقرّباً لعمّي منذ أيام سيد صادق الصدر. «وحينها يمكننا أن نقول للإيرانيين اننا سندفع في المرة القادمة ان أعجبتنا البضاعة.»

«أنا غير موافق»، قال رجل بلحية قصيرة علاها البياض: «لماذا يعطوننا هذه الأسلحة بدون مقابل وهم يعرفون اننا أعداء لحلفائهم بيت الحكيم؟»

«يريدوننا أن نتقاتل» أجاب عمّي، ثم ارتشف الشاي من استكانه محدثاً صوتاً عالياً.

«لا قيمة للألغام في معاركنا القادمة مع بيت الحكيم» قال حسن.

«من مصلحتهم أن يدفعوننا لقتال الأمريكيين أكثر من قتال بيت الحكيم»، أجاب عمّي باكتئاب.

«هذه الألغام مصمّمة لاختراق المدرعات المحصنة وبيت الحكيم لن يستخدموها لأنهم على علاقة جيدة مع المحتل وهم نشطاء في مجلس الحكم. يريد الإيرانيون أن نختبرها على قوات المحتل لنعتبرها استثماراً إيرانياً في مستقبل العراق!» أضاف عمي وقد علت وجهه ضحكة خبيثة.

تجرأت وشاركت النقاش قائلاً «إننا نبالغ بشكوكنا. إخواننا الشيعة في إيران يقدمون لنا أسلحة. لماذا لا نعتبرها مساعدة منهم لحماية أنفسنا رغم عدائهم لسيدنا. ربما يريدون ان يبنوا جسوراً معنا، ونحن كلنا شيعة. ثم ما الدليل على ان إيران مخادعة؟ ربما قام البيت الشيعي بالتفاوض على هذه الصفقة نيابة عنّا. المهم ان البيت الشيعي يريدون

تحسين العلاقة معنا وقد سمعت أنّهم يضغطون على الأمريكيين يومياً لكي يتم إدخال سيدنا في مجلس الحكم.»

غرق عمّي في التفكير وهو يحمل استكان الشاي وتوقف لثوانٍ قبل أن يأخذ رشفة أخرى بصوت عالٍ، ثم انحنى باتجاهي وقال عاقداً حاجبيه بانفعال «لا تنادهم بالبيت الشيعي! هؤلاء لايمثلون شيعة العراق أبداً، ليسوا بيتاً بل عصابة. انا اسميهم بعصابة الثلاثة عشر.»

«اتذكر كيف ضحك السيد كثيراً حين اخترعت هذا الاسم»، قال حسن ضاحكاً، والآن هو يرفض أن يطلق عليهم أي اسم آخر غير عصابة الثلاثة عشر...»

«آسفاً عمي...» قلت مقاطعاً حسن لأنني خشيت ان كلامي أغضبه خصوصاً وانني ناقضته أمام أصدقائه. «ما الذي يمنع الشيعة ان يؤلّفوا كتلة واحدة داخل مجلس الحكم؟»

«لأن الجائزة هي العراق كله وليس فقط الشيعة. على كل حال، لا يوجد شيء يمكن تسميته بالبيت الشيعي. انظر حولك! أولئك العراقيون الأجانب وحدهم يمكنهم اختراع كذبة من هذا النوع. أمّا عصابة الثلاثة عشر فهي بالحقيقة عصابة لا أكثر ولا أقل، وعلى هذه الوتيرة يتصرفون داخل مجلس الحكم الذي أصرّوا على تسميته بهذا الاسم.»

«كيف؟» سألته.

«أراد المحتل أن يسميهم بالمجلس الاستشاري لكنهم شنّوا حرباً عليه لتغيير الاسم. لم يكن قد مضى على سقوط الطاغية زمن طويل والأرض كانت تتحرك كزلزال تحت أقدام العراقيين، وهم أهدروا أسابيع يتناقشون حول الاسم! اعتقدوا ان إطلاق تسمية «مجلس الحكم» ستجعلهم أكثر أهمية حتى مع حقيقة أنهم لم يمارسوا السلطة بعد. في

الحياة كما في السياسة، يا أبني، عندما ترى رجلاً مهتماً بالمظهر دون الجوهر عندها ستعلم انه شخصٌ تافه. ستقابل أحدهم بعد قليل ويمكنك أن تحكم بنفسك، وهو بالمناسبة يعمل منفرداً من وراء الكواليس، دون الرجوع إلى بقية أعضاء المجلس.»

«حقاً» سألت وقد أخذتني المفاجأة.

«نعمْ» أجاب عمّي، «هذا الرجل هو حيّة رقطاء من عصابة الثلاثة عشر. يحبه الإيرانيون لأنه غير قادر على التفكير بطريقة مستقلة. وهو يتصل بنا من أجل أن يكتسب ثقلاً أمام الإيرانيين ليستقوي به على بقية العصابة، هل تستطيع تخيل سيدنا يجلس إلى جانب رجل كهذا في المجلس؟»

لم اقتنع بكلامه كثيراً وتوجهت بتركيزي إلى استكان الشاي الذي بدأت أحركه بالملعقة ببطء قبل ارتشافه.

حاولت أن أجيب بهدوء وبأكبر قدر من الاحترام، «لكن ياعمّي حتى لو كان الشيعة في مجلس الحكم ضعفاء كما تقول، فانّهم يحاولون الدفاع عن المصالح الشيعية. ما الخطأ في ذلك؟ أليس لدى الشيعة الحق، بل والواجب، لمواجهة الظلم الذي تعرضوا له؟ إذا هاجمني أحد فقط لكوني شيعياً أليس من المبرر أن ادافع عن نفسي بالتأكيد على هويتي الشيعية التي هوجمت بسببها؟ ربما هذا الشعور الجدير بالثناء هو الدافع وراء طائفيتهم.»

«لماذا علينا أن نصدق مايقوله هؤلاء الناس؟» قال حسن، وهو ينظر نحوي بمحبة ناتجة عن معرفته بي منذ ولادتي، وكان يحاول تخفيف الغضب الذي استشعره لدى عمّي. «لا أحد هاجم هؤلاء الناس في لندن وطهران حيث كانوا يعيشون حياةً جيدة. ثم لماذا هم مستعدون لتقديم

تنازلات إلى الكرد ولا يرغبون بتقديم نفس الحقوق إلى إخوتهم العرب؟»

«لم أفهمك حسن، ما الذي تتحدث عنه؟»

«أتحدث عن الفيدرالية بالطبع. هم يناورون الآن لإيجاد صيغة في الدستور المؤقت تسمح للكرد باقامة اقليم فيدرالي ولكنها لا تسمح بنفس الحق للسنة العرب الذي يرجعون إلى نفس القبائل التي نرجع لها.»

«العرب السنة أنفسهم لا يريدون الفيدرالية!»

«أنا اتكلم عن مبدأ في نص الدستور، لا كيفية تطبيقه في المستقبل. الآن هم لا يريدونها، لكن البيت الشيعي في مجلس الحكم يعمل على صياغة الدستور بطريقة تحرمهم في المستقبل من الحصول على الفيدرالية ان هم أرادوا. لذلك رفض سيدنا فكرة الفيدرالية من الأصل لأنها غطاء لتقسيم العراق.»

أتت مداخلة حسن هذه بالنتائج المرغوبة، حيث التقطها عمّي ليقول، «أبني، ليس من الصحيح أن ندّعي المظلومية على الدوام. ان كنت تريد أن تحكم العراق لابد أن تبدأ مع حقيقة ان كلّ العراقين كانوا ضحايا في ظل حكم صدام، وليس الشيعة فقط.»

«لا أنكر ذلك عمّي.»

«ثم نحن الشيعة الغالبية في العراق وكذلك في مجلس الحكم. لماذا إذن نتصرف وكأننا أقلية؟»

«ربما لأننا أقلية في العالم الإسلامي.»

«لكننا لا نعيش في العالم الإسلامي، يا ابني، بل في العراق.»

قرر الرجل العجوز الملتحي، المسمى أبو عمار، ان يدخل النقاش ليعزز ما قاله عمّي. علمت لاحقاً انه مُنَظِّر ومُفكِّر في حركتنا، محترم من قبل بعض المثقفين، ولكنه لا يمثل عامة صفوف الحركة.

«نحن الشيعة نرى أنفسنا ضحايا التاريخ. مظلوميتنا هي التي حدّدت هويتنا. مع تداول القرون، إعتدنا ان نُلبس هذه المظلومية على المحيطين بنا. ثم نقنع أنفسنا بأبدية هذه المظلومية، وبحاجتنا لاستمراريتها، رغم كونها في معظم الأحيان نابعة من خيالنا. هكذا كان الحال منذ موت الإمام الذي عاهدناه بالولاء، ثم أخلفنا العهد. ومنذ ذلك الوقت صرنا نتقن فن الشعور بالذنب وتحويله إلى مظلومية، يكون فيها طرفٌ آخر سببها.»

«هل تقول ان الشيعة هم بطبيعتهم ساخطون؟» قلت بصوت عالٍ ومستَفَز.

«السخط ينشأ من شعور الإنسان بانّه ضحية ومذنب بنفس الوقت. هذا ما يريد رفيقنا أبو عمار أن يقوله»، ردّ عمّي بحزم وقد بدا ممتعضاً من نبرة صوتي. «إستمع إليه جيدا!»

ثم استأنف أبو عمار كلامه متجهاً نحوي:

«كنت محقاً يا ابني»، قال أبو عمار، «حدسك في مكانه. نحن الشيعة تأثرنا كثيراً بكوننا أقلية داخل العالم الإسلامي، فذلك جعلنا متحسسين وفي موقف دفاعي نحاول دائماً أن نرضي العالم الإسلامي وان نثبت اننا مسلمون صالحون. أضف إلى ذلك موجات الاضطهاد التي تعرض إليها الشيعة على أيدي الخلفاء في الماضي، وستوفر لديك كل مقومات الحس الشيعي والهوية الشيعية كما هي عليه اليوم.»

التفتُ إلى أبو عمار باعجاب وتقدير وهو في المقابل بادلني نفس الجدية والاحترام. ثم واصل حديثه قائلاً:

«دخلنا نحن الشيعة هذا العالم ونحن ضحايا. ولكننا أيضاً خذلنا إمامنا عليه السلام في تخلينا عنه. بكلام آخر خنّاه. هذا المزيج الذي رافقنا تشكلت عليه هويتنا، نتكئ عليه كما يتكئ الرجل العجوز على عكازته ليمشي. ألا نبكي كل عام في عاشوراء مظلوميتنا؟ ولكن في هذا البكاء أيضاً ذكرى، وإن كانت عن دون وعي، لتخلينا عن إمامنا وشهيدنا الحسين عليه السلام. الشعور بالذنب يعذب الفرد ويجعله تعيساً ويزرع بذور السخط في قلبه. وما يصح بالنسبة لفردٍ واحد يصح للجميع. تراودنا نحن الشيعة أفكار كالعصيان والتمجيد للمظلومية والتطلع نحوعدالةٍ مطلقة، مما يجعلنا نضع اللوم على حكامنا، ونجعلهم مسؤولين عن محننا بغض النظر عن مدى صحة أو خطأ ذلك.»

وفي ختام محاضرته، قال أبو عمّار، «أعتقد أن ما يريد عمّك أن يقوله هو ان للحكم السليم قوانين ومواهب وقابليات غير التي ورثناها من ثقافتنا ومذهبنا الشيعي. لا يتطلب الحكم مشاعر عميقة وأحاسيس رقيقة بل القابلية على المرونة والحكمة بما فيها القابلية على التسامح والمساومة حتى مع من يخالفك ويحتقرك. الحس الرفيع هو في طبيعتنا نحن الشيعة، ولكننا لا نملك المرونة التي تأتي من تجارب الحكم الذي لم نمارسه. لهذا السبب نميل نحن الشيعة إلى انتاج فنانين وشعراء كباراً لكننا نادراً ما ننتج رجال دولة.»

غرق جميع الحاضرين بالصمت وقد أذهلتهم كلمات أبو عمّار. لم أكن متأكداً فيما إذا كان صمتهم رفضاً أو قبولاً. قطع الخادم العجوز ذلك الذهول بدخوله الصالة وانحنائه على عمّي هامساً كلمات في أذنه.

«يبدو ان رسول مجلس الحكم قد وصل»، قال عمي. سأتركه تحت رحمتكم فوجودي سيمنحه منزلة أكثر مما يستحق... شكرا أبو عمار. كلامك سيدفعنا للتفكير طويلاً». ثم استعد للنهوض ونظر نحوي قائلاً «أليس كذلك ابني؟»

قبل مغادرته الغرفة، إلتفت نحو حسن وقال بصوتٍ عالٍ بحيث سمعه الجميع «تأكد يا حسن ان تخبر ممثلهم البليد اننا نريد على الأقل مائتي قطعة من تلك الألغام الإيرانية ولا توافق على دفع أي شيء لهم، لا الآن ولا في المستقبل. لن نترك أنفسنا تحت رحمتهم. يجب أن يفهم ممثلهم اننا نحن من يقدم خدمة لهم وليس العكس.»

حبّ الذات

التفت عمّي اليّ بعد أن غادر الجميع الغرفة. شعر بأنني كنت مغتاضاً. حديث أبو عمّار، وعمق ادراكه لتاريخنا الشيعي، جعلني أبدو كأحمق أمام عمّي وأصدقائه.

«ابني، لا تعطي ما سمعته أكثر من حقه... هو مجرد كلام.»

«لا أفهم هذا الماضي المعقد يا عمي. تربكني المواقف المتناقضة، ولم أعد أفهم ما يجري.»

«في هذه الحالة عليك ان تفكر بالموضوع من زاوية مختلفة. عُد إلى حيث بدأنا، العراق: هو الجائزة التي يسعى إليها الجميع. هل يمكننا نحن الشيعة أن نحكم البلد لوحدنا امّ انّنا نحتاج إلى دعم من إخواننا السنة؟ ماذا تعتقد؟»

«لا حاجة للتفكير، يجب أن نحكم البلد سويةً.»

«لذا من المنطق ان نحتضن إخوتنا السنة ولا نتركهم لأسوأ مخاوفهم. أنهم خائفون الآن وخوفهم مبرر. فالطاغية كان واحداً منهم والجميع يلومونهم على ما ارتكبه. هل يجب أن ننفخ في لهيب مخاوفهم كما تفعل عصابة الثلاثة عشر، أم نسعى لإطفاء هذا اللهيب؟»

«نطفئه طبعاً. نحن كلّنا مسلمون، بل اننا ننتمي إلى نفس العشائر ونتزاوج من بعضنا.»

«الحق معك يا ابني. والحكم الصالح ينطلق من هذا الحقيقة. لكن إن فشلنا كحكام فليس أمامنا سوى طريقين: امّا ان ننعزل عن الحكم تماماً كما كنّا نفعل لقرون طويلة، نركز على خدمة الثقافة والتجارة والأعمال الحرة في مدننا وحوزتنا وحلقاتنا الدراسية أو أن نستعد لشنّ حرب شاملة باسم حق الشيعة في الحكم، وعندها علينا ان نقبل بأنّ الجميع سيكرهوننا حتى لو انتصرنا في تلك الحرب.»

نظرت نحوه مندهشاً من هذا الخيار المخيف.

«أفهم من ذلك أنك تعني بالبيت الشيعي...»

«قصدك عصابة الثلاثة عشرة»، قاطعني عمي، «نعم، لقد إختاروا الحرب، وهو خيار سيء.»

«ماذا عن الكرد؟ هم أيضاً يتصرفون بشكل منفصل، لماذا من حقهم أن يفعلوا ذلك وعندما نقوم نحن بالشيء نفسه تصفنا بأننا ثأريون. أليس الكرد ثأرين أيضاً؟»

«هم أقلية ويفكرون كأقلية ولا يسعون لحكم العراق كلّه، بل الحصول على الاستقلال الذاتي في جزء صغير منه. وهم ضحايا صرف.»

«ضحايا صرف... ما الذي تعنيه؟»

«انهم ضحايا لم تلوثهم الدماء والدموع التي ذرفت لصناعة هذا البلد وإبقائه موحداً. حتى عندما استخدمناهم كجنود فقد كانوا ككبش فداء، مجرد أجساد نضحي بها عند الحاجة ولم نشاركهم في بناء عراقنا العربي. امّا نحن الشيعة، فعلى العكس، كنّا جزءاً لا يتجزأ من المشروع العروبي الدموي كله، وتورطنا في كل تحولاته وانقلاباته. أبوك مثلاً حارب إيران إلى النهاية في الثمانينيات. هو ورفاقه على خطوط الجبهة

سالت دماؤهم بإرادتهم من أجل عراق عربي. كنّا نفخر بتلك التضحيات. أبوك حصل على نوط الشجاعة من الطاغية بسبب بسالته.»

«لم أعلم بذلك... وما زلت لا أفهم.»

•••

بقينا في مكتب عمّي مضطجعين على وسائده المنتفخة والمنتشرة في أرجائه. عاد خادمه المقرب مع قوري الشاي وأعاد ملء استكاناتنا. استغرق عمّي في التفكير ثم نهض فجأة وراح يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً وكأنّه يقترب من اتخاذ قرارٍ مهم، وقد التصق حنكه بصدره.توقف وجلس القرفصاء ثم رفع زاوية إحدى سجاداته الفارسية وكأنّه يريد أن يتذكر ما نوعها.

«في كل شهر»، قال، «أقوم بتغيير مواقع السجادات، فأستبدل السجادة بالتي تحتها، حفاظاً عليها. وفي كل مرة أفعل ذلك، يأتي ضيوفي ويمتدحون السجاد وكأنّه جديد، حتى تاجر السجاد المجاور لنا يتردد إلى هنا فقط من أجل أن يرى كيف أعدت ترتيب السجاد.»

ثم ترك السجادة التي بين يديه ونظر إليّ قائلاً: «كذلك الأمر في الحياة. يجب أن نغير الزوايا التي ننظر منها للأمور باستمرار.»

«فكّر بحب الذات»، أضاف عمي فجأةً، «ألا تراها نزعة فطرية؟»

«هذا تغيير جذري في الزاوية التي ننظر منها يا عمّي». أجبته مبتسماً.

«كذلك الأمر مع حبّنا لله، هو أيضاً جزء من رغبتنا بالفوز برحمته ودخول جنته والفرار من جهنم. كل المخلوقات تحب ذاتها وتسعى من أجل مصلحتها. إنه أمر طبيعي.»

«أظن ذلك.»

«ونتيجة ذلك فإن حبّ الذات يعني أن نحب عوائلنا وأهلنا ومجتمعاتنا التي نعيش فيها.»

«طبعاً» أجبت مستغرباً. كان يتحدث إلى نفسه بدل الحديث معي، وكأنني لم أكن موجوداً في الغرفة.

«لكن الحبّ يجب أن يمتد إلى ما هو أبعد. يجب أن يصل إلى الآخرين ممن هم ليسوا جزءاً من جماعتنا، حينها يصبح الحب فضيلة. أعني حبنا لأنفسنا لا يعتبر فضيلة عند الله. لقد خلقنا كذلك. ولكن السؤال: ألى أين يجب أن يصل حبّنا، يا ابني؟ إلى أيّ مدى؟ كيف تحددها؟ ماذا تقول؟»

«حقيقةً لا ادري عمّي. لم أفكر بالأمر على هذا النحو من قبل.»

«يجب ان يحتضن هذا الحب أبناء محلاتنا ومدننا وكافة أفراد مذهبنا وهذا أمر طبيعي. أليس كذلك؟ لكن هل هذا كافٍ؟ نحن نعيش في عالم يتكون من أمم ودول، وهي ضرورة ماسة لوجودنا على الكرة الأرضية، كضرورة التنفس. والآن أسألك هل نحن أمّة شيعية؟ في رأيي هل يجب أن يمتد حبّنا لذاتنا ليعُمّ البلد كله؟ النبي، عليه وعلى آله الصلاة والسلام، قال انّ «حبّ الوطن من الإيمان». ولذلك فإن حبّ الذات يجب أن يشمل الوطن بأكمله ليصبح فضيلة يقرها الدين. يجب أن يطمح جميع الناس للوصول إلى هذه الفضيلة. لكن هل يمكن أن نوسع حبنا لذواتنا إلى هذا الحدّ؟ هل بوسعنا أن نحب الوطن بأكمله؟ الخطر هو انه يمكن أن يغدو غير حقيقي وغير قابل للإدراك. الحب كالمال: حين تتضخم تفقد قيمتها. فعل الطاغية ذلك في سنواته الأولى حين أجبرنا ان نحب كل البلدان العربية، وان نتعامل معها وكأنها بلدنا،

فاستصغَر العراق الذي بين أيدينا من أجل فكرته الخيالية الطوبائية التي يسميها الأمّة العربية؟»

عند هذه اللحظة توقف عمّي عن الكلام وراح يتطلع نحوي وكأنه غير واثق من شيء، أو من صحة ما يقول.

«هل تعرف ما هو أسوأ من مطلب الطاغية هذا، يا ابني؟ أرجو أن تسمعني هنا قبل الإجابة. الأسوأ من مطلب الطاغية هو ما يسعى إليه شخص مثل أبيك. فمعتقداته الشيوعية جعلته يتصور ان حبّ الذات يجب أن يتسع ليشمل كل شعوب العالم، وليس فقط الشعوب العربية. أراد الحب أن يتسع ليحتضن كل الأجانب المنتشرين في زوايا الأرض الأربع على كل اختلافاتهم... كان أبوك يسميه بحب العالم، العالم كلّه، هذه فكرة أكثر خياليةً من فكرة الطاغية المقتصرة على الأمّة العربية.»

«هل هذا حقاً ما كان يؤمن به أبي؟» سألته مندهشاً.

«نعم. هو جعل حبّ الذات تابعاً لحبّ العالم، أو ما كان يسميه أحياناً حب الإنسانية أو حقوق الإنسان، وكأن للإنسان حقوق مجرد كونه إنساناً وليس لسبب آخر. هذه أشياء لم يطلبها الله منّا أبداً. الإنسان، بحد كونه إنساناً، لا غير، ليس له حقوق. هذا إختراع أجانب الغرب، إخترعوها في القرون السادس والسابع عشر ليتخلصوا من إشكالية الدين والدولة. حقوق الإنسان، لو افترضنا هناك شيئاً من هذا القبيل، إرادة إلهية، لا غير. ولكنني لم أتمكن في إقناع أبيك بتغيير رأيه. اعتدنا ان نتجادل ونتخاصم كثيراً حول هذه الأمور. نقاشاتنا العاصفة تلك هي من بين أكثر اللحظات التي أتذكرها... كان والدك متحدثاً جيداً! كان يجعل الجميع يصغون إليه، مأخوذين بأسلوبه الهادئ اللطيف في المجادلة.»

رأيت ما يشبه الدموع في عينيه لكنه أدار وجهه عني قبل أن أتأكد. لم أظهر أي عاطفة بل اكتفيت بالاستماع إليه، ومن ثم نظرت إلى الفراغ المظلم بيننا وقد استولى عليّ التفكير بتلك المكاشفة الفريدة عن علاقته مع أبي.

«تأكد ابني انني أحببته كثيراً، أحببناه جميعاً... جدّك بالاخص كان متعلقاً به. وقد فضله عليّ. الناس يحبون الحالمين، وأبوك أحدهم. كان أخي الصغير...»

قال تلك الكلمات وكأنه كان يغص بها، ثم استمر، «ربما جعلته أفكاره وأسلوبه في الحديث شخصاً محبوباً، وأنا لم أكن كذلك. لكنها أيضاً جعلته غير قادر على فهم طبيعة الإنسان، كونه أنانياً وليس طيباً بالفطرة.»

فجأةً، بعد أن قال كل هذا، بدا الأمر لي وكأنّ حجاباً قد سقط عن وجهه، وللحظةٍ وجدتُ أمامي رجلاً غير الرجل الغامض المليء بالأسرار الذي أعتدتُ عليه.

لكنه أعاد تجميع نفسه بسرعةٍ ونظر نحوي محدقاً.

«يجب علينا أن نجمع بين حبنا لوطننا وكراهيتنا للأجنبي»، قال عمّي، مضيفاً: «هذا أمر لم يفهمه أبوك، بل لم يكن قادراً على فهمه... كيف يمكنك ان تكره إن أحببت الجميع؟ وكيف تطبق هذه الكراهية عند الضرورة ان كنت تؤمن ان للإنسان حقوقاً تفوق كل باقي الاعتبارات؟ سيدنا على العكس كان يفهم ذلك، وخاصةً أن أباه، الشهيد السيد صادق رحمه الله.»

«هل هذا ماتفعله أنت عمّي؟ هل أنت تكره الاجنبي؟ الهذا السبب أصبحت إسلامياً؟»

«أنا سعيت لأنتمي للذين ولدت بينهم. هكذا كنت مندفعاً حين كنت شاباً. كل أولئك الناس الذين تراهم في الشارع، والذين يذهبون إلى نفس الجوامع والمقاهي التي اعتدت زيارتها، يؤمنون بأنّ الإسلام حدّد الصواب والخطأ في كل مجالات الحياة. حين مشيت بينهم انتشيت برائحة حلوياتهم ودخان سكائرهم الرخيصة ووقعت بحبهم على الرغم من بساطتهم، بل ربما لأنهم بسطاء. دموعهم كانت هي دموعي. هل تتذكر كيف بكيت أنت عند مسيرتنا إلى كربلاء؟ فكما حصل معك أنا أيضاً كنت تواقاً لأن أكون معهم، ان أستشعر ألمهم. لقد تعلّمت على يديهم، بل من بساطتهم، وليس من الكتب المعقدة، أو الكراريس الرنانة، ولا من المثقفين والقارئين الاذكياء مثل أبو عمّار. تعلّمت انهم عندما يشعرون بالأذى يعبرون عن ألمهم بلغةٍ مختلفة، لغة قوامها القصص والأمثال الشعبية. هذه اللغة في نهاية المطاف هي طقوسنا وأحاديثنا ورواياتنا عن البطولة والتضحية بالنفس ودموعنا التي نسكبها في تلك الطقوس. هذه هي اللغة الوحيدة التي يعرفونها للتعبيرعن مظلوميتهم وماهية الحق والباطل. وأنا أغرمتُ بهم إلى الدرجة التي أردتُ أن انصهر بهم لأكون واحداً منهم. تمنيتُ عالماً نستطيع فيه نحن المسلمين أن ندير شؤوننا بدون مساعدة أجنبية، وأفكار غريبة مقتبسة من الخارج يأتي بها المثقفون الذين لا يفهمون مجتمعاتنا. بهذه الطريقة فقط، صرتُ أفكر، يمكنني ان أعثر على جذوري وأتوحد مع آمال ورغبات الناس الذين ولدت بينهم.

«عليك ان تعلم يا ابني، ان هذه المشاعر مع مرور السنين هي التي أخذتني إلى السيد الشهيد صادق. فهو مرجع الإنسان العادي، البسيط ممكن تسميته، وكان يكره رجال الدين المتقوقعين في حوزتهم، المتعالين على الناس. وجدت في تعاليمه حضناً لم أجده أبداً عند

والدي، جدّك، وهو شعور بالانتماء إلى شيء أكبر من ذاتي، ولكن ليس كبيراً إلى ذلك الحد الذي تضيع فيه كإنسان، كما ضاع أبوك رحمه الله.»

«أنت مؤمن اذن؟» سألته.

«أنا لا أقوم بالواجبات والطقوس بما يكفي. أقر بذلك. لندع هذا الشيء بيننا ولا نتحدث عنه أمام الآخرين! لكن أنا دائماً أقوم بما يتوقعه الآخرون منّي، كالصوم والصلاة في المناسبات العامّة. حينما أكون وحدي أشعر أن أدائي الصلاة نوعٌ من النفاق. أنا لا أؤمن كثيراً بالطقوس. لكن لأن الناس يتوقعون منك أن تقدس ما يقدسونه فعليك ان تفعل ذلك كي تصبح جزأ لا يتجزأ منهم. حين أتبع الجموع في الصلاة أشعر بمتعة أن أكون جزءاً منهم. الإسلام يعطينا هذا الفضاء لنتنفس، ولا يطلب منا كما في المسيحية ان نحب حتى أعداءنا. الإسلام ينطلق من الطبيعة البشرية كما هيّ عليه، على كل علاتها. كل ما يُطلبُ منّا هو الانتماء والانسجام. من هذا المنطلق، نعم، أنا مؤمن.»

«اذا كان الإسلام نابعاً من حبنا لذاتنا، من أنانيتنا بالدرجة الأولى كما قلت، فما الذي يترتب على ذلك؟»

«يترتب علينا أن نكره أولئك الذين لا ينتمون إلينا: الكفار والأجانب الذين يريدون احتلال بلداننا وسرقتنا. فكّر بالمحتل الجاثم على أرضنا اليوم، فهو يمثل الاجنبي البعيد الذي لايمكن ان نمدّ حبّ الذات إليه والى ثقافته وقيمه كما كان أبوك يعتقد.

«لكن الكراهية هي شيء بغيض عمّي... أمّي ما كانت ستقبل بها أبداً». ثم تذكّرت ما كتبه أبي في رسالته إلى أمّي: «علّميه أن لا يجعل

الكراهية تحكم أفعاله». لكنّني توقفت عن الكلام وراح عمّي يردّ على ما قلته.

«انظر إلى لون يديك، ابني، انه يتحول إلى اللون البني بسبب التدريب الذي تلقيته تحت شمس الصحراء. أستطيع أن أرى بأنك أصبحت أكثر رجولةً وشدةً ولم تعد ولداً. هذا أمرٌ حسن! ان الرجل الذي أصبحته، لا الولد الذي ظلت أمّك تخفيه عن العالم، هو الذي يجب أن يتعلم كيف يكره. بدون جلد غامق لا يمكنك ان تقاتل الأجنبي، سواء جاء من أمريكا أمْ من إيران. عصابة الثلاثة عشرة لا يمكنهم ان يكرهوا الأجنبي الذي يدينون له بكل ما هم عليه الآن. باسم مذهبنا الشيعي يحولون الكراهية نحو الداخل، أي إلى داخلنا لتصبح فتنة. أليس هذا تناقضاً كبيراً؟ اجمع هذين الشيئين معاً كراهية الأجنبي وحب النفس الذي يمتد ليشمل أهلك ووطنك، وبذلك ستضع حجر الأساس لبناء مجتمع منظم، قائم على الفضيلة.»

«يمكنك أن تعتمد عليّ دائماً يا عمّي. أنت تعرف ذلك.» ثم أضفت دون أن أعرف لماذا: «أنت أبي الذي لم أحظ به أبداً. اريدك أن تعلم بأنني سأكون معك إلى النهاية.»

شعرت بأن الحياة تنبض في عروقي مجدداً حين قلت هذه الكلمات. اختفت كل الشكوك التي انتابتني بعد موت منتصر، وامتلأ قلبي بإحساسٍ جديد بالانفتاح على عالمي، وعرفت سبب وجودي. عرفت بأن هناك غاية لما أقوم به. قرأت وقع كلماتي هذه على وجهه، ولكنه لم يفصح بشيء.

ثلاثة بيوت

في إحدى خطبه، قال سيدنا ان هجمات ١١ أيلول على معقل الشيطان في أمريكا كانت «معجزة إلهية». أغضبت كلماته المحتل الذي قام بالمقابل بإغلاق صحفنا ومطبوعاتنا. أختبأ عمّي في سرداب سري في النجف، ومن هناك استدعاني إليه. أخذني رجاله إليه، حيث لم أكن أعرف مكان اختبائه.

رأيت عند وصولي مسلحين ينتشرون في المكان، ورغم أنهم لم يفعلوا شيئاً، الاّ انني شعرت بالتوتر والقلق على وجوههم. ادخلوني غرفته وعند دخولي أمر عمّي بغلق الباب، ثم رحب بي وأجلسني في الجهة المقابلة من مكتبه.

بعد أن قدّم لي الشاي من القوري الموجود إلى جانبه، انحنى للأمام وكوعاه على المنضدة وحنكه الثقيل متعكز على أصابعه المتداخلة وعيناه تحدقان بي بحدّة. كانت تعبيرات وجهه ودية، الاّ انني شعرت بعدم الارتياح ولم أعرف إلى أين أوجّه نظراتي.

«انظر إليّ، يا ابني»، قالها بهدوء حاسماً الاتجاه الذي يجب أن أنظر نحوه.

«نحن الآن في حالة حرب مع المحتل وسيكون عليك وعلى حيدر ان تتواجدا مع وحدتكما في النجف. ستلتحق بنا قوات إضافية من أجزاء أخرى من البلاد بعد فترة قصيرة. مفهوم؟»

«نعم، عمّي.»

«لدي معلومات بأنّ أمر إلقاء قبض سيصدر قريباً بحقّ السيد. عليك أن تكون حذراً في تحركاتك حتى في داخل النجف.»

«إلقاء قبض!» قلت مصدوماً. «كيف يجرؤون؟ ماهي التهمة؟»

«هل تتذكر تلك الجثة التي رأيتها للعميل الأمريكي يوم سقوط النظام في ١٠ نيسان؟»

«نعم، بالطبع. كيف يمكنني نسيان ذلك؟»

«المحتل يحاول ان يتهم سيدنا بالضلوع بقتله.»

«من كان ذلك الرجل؟»

«قلت لك، عميل أمريكي.»

«ماذا كان اسمه؟»

«خوئي.»

«نفس اسم آية الله الذي مات في العام ١٩٩٢؟»

«ابنه، مجيد.»

«وهل كان للسيد علاقة بموته؟»

«طبعاً لا!» قال غاضباً وقد تغيرت تعبيرات وجهه. «لقد شاهد الناس الرجل في ضريح الإمام بصحبة شخص كان جميع أهل المدينة يبغضونه. أقصد الكليدار الذي كان يتولى رعاية الضريح ويحمل مفاتحيه، وهو بعثي معروف يعلق صوره مع الطاغية في مكتبه داخل الضريح. شوهد الرجلان وهما يدخلان المكتب حين تجمع الزوّار مطالبين بتسليم الكليدار. هناك من أطلق النار من الداخل وقتل أحد المحتشدين، وفي الهرج والمرج الذي تلا ذلك تم طعن كلا الرجلين

حتى الموت. ليس للسيد علاقة بالموضوع، بل ان بعض أتباعه حاولوا حماية مجيد لكنهم فشلوا في الوصول إليه.»

•••

كانت صور تلك الجثة التي رأيتها في الزقاق القريب من بيتنا في المشراق وعليها جروح ودم متيبس وملابس مقطعة قد أخذت بالتلاشي من ذاكرتي، وحلّت مكانها آلاف الصور لمجازر يومية بالفضاعة نفسها.. حتى جاءت كلمات عمّي لتذكرني مجدداً بأول جثة رأيتها.

عشتُ لاثني عشر شهراً في عين العاصفة، ولكنني الآن سُحبت عنوة إلى لحظة البداية يوم سقط الطاغية. كلّ ما فعله عمّي هو انه ذكر اسم الرجل. صحيح انني استدرجته ليفعل ذلك ونجحت فيما فشلت فيه قبل اثني عشر شهراً مع أمّي، لكن المهم انني نجحت. لقد ذكر الاسم الذي لم ترد أمي ان تخبرني به، ولم يكن أحد يجرؤ على ذكره علناً، رغم أنهم جميعاً كانوا يعرفونه: سيد مجيد، الابن الأكبر لآية الله الخوئي الذي كان مرجع التقليد الأعلى لدى الشيعة حتى وفاته في ١٩٩٢.

كنت أتصور أن منتصر سقط ضحية لصراع بيتي الحكيم والصدر لكن ها أنا أعرف بأن هناك بيتاً دينياً ثالثاً معنياً بهذا الصراع، هو بيت الخوئي الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً. هل لموت مجيد علاقة برجال دين عملاء لصدام وآخرين لم يكونوا عملاء؟ والد سيدنا، السيد صادق، اتهم آية الله الخوئي بالتعاون مع النظام في الثمانينيات لتهميش دوره في الحوزة. نفس الاتهامات تم تداولها ضد السيد صادق بعد العام ١٩٩٢. وهمست بعض الأصوات من بيتي الحكيم والخوئي بأن صدام صاحب الفضل لتولي السيد صادق منزلته حينها، كما أحال إليه مسؤولية

إعادة بناء مدينة النجف المدمرة وقام بتمويلها. هل كان ذلك صحيحاً؟ هل كانت كل هذه التهم صحيحة؟

ربما لم يكن الأمر يتعلق بالتعامل مع النظام بل بالتعامل مع الأمريكيين. ربما هذا يفسر الصراع بشكل أفضل، خصوصاً وان عمّي ذكر بأنّ القتيل كان جاسوساً أمريكياً. لكن لايمكن أن يكون قد قتل بسبب تعاونه مع الأمريكيين بعد سقوط الطاغية لأن شيوخنا الذين يخطبون في المساجد كل جمعة ينتقدون كل رجال الدين الذين تعاونوا مع المحتل دون ذكر اسم السيد مجيد. ما الذي منعهم من ذلك؟ الاحتلال لم يكن قد بدأ بعد حين وصل مجيد قبل أسبوعين من سقوط بغداد. لذلك يجب أن يكون تعاونه مع المحتل قد بدأ قبل الاحتلال، وخلال فترة العقوبات الاقتصادية ومعاناة شعبنا، حينها لم يكن المحتل قد اتخذ القرار باحتلال العراق. ولكن ان كان هذا هو السبب فإن تهمة العمالة يجب أن تمتد لتشمل كل أعضاء مجلس الحكم وكثيرين غيرهم.

لطالما تنافست هذه البيوتات الدينية الثلاثة على الأموال والخمس وتبرعات الزوار والموسرين. كان بيت الخوئي مسيطراً على إدارة وتوزيع حصة الأسد من هذه الأموال. أراد بيت الصدر، إبتداءً من سيد صادق، حصة أكبر لها، خصوصاً بعد أن تصاعدت شعبيته في أواخر التسعينيات. وحينما قام جيش الإمام بمهاجمة بيت الحكيم في كربلاء في المعركة التي راح ضحيتها المسكين منتصر، سَرَت شائعات بأن المعركة كلّها كانت حول أموال ضريح شهيدنا الإمام الحسين.

لكن الصراع على الأموال ليس سبباً مقنعاً لتفسير قتل السيد مجيد نظراً إلى ان بيت الخوئي فقد سيطرته على عوائد أضرحة النجف وكربلاء منذ وفاة الإمام الخوئي الكبير عام ١٩٩٢. ولم يكن بيت

الخوئي بحاجة إلى مزيد من الأموال فهو يحصل على تمويل كبير من الشيعة في الهند وأفريقيا والشرق الاقصى.

ماذا لو لم يكن الصراع حول التعاون مع الطاغية أو الأموال، بل صراع أفكار حول دور رجال الدين في الحياة السياسية؟ فبيت الصدر كان يتبنى الدعوة إلى تدخل رجل الدين بالحياة السياسية بينما كان الخوئي معروفاً بالتزامه الصمت عن كل ما يمت بصلة للسياسة.

اتبع سيدنا خطوات والده مؤمناً بأنه يمثل المرجعية الناطقة مستنداً على قول الإمام جعفر الصادق انه في كل أزمة يمر بها المسلمون هناك إمامان، أحدهم صامت والآخر ناطق، وفي تفسيره للآية القرآنية «وبئر معطلة وقصر مشيد» بأن البئر المعطلة هي «إمام صامت» وأن القصر المشيد هو «إمام ناطق». وقد حذّر الإمام ان هذه الفترات المتأزمة قد تؤدي إلى فتنة في الأمة. ويعتبر سيدنا نفسه إماماً ناطقاً يتميز عن الأئمة الصامتين الذين كان يكرههم مثل الخوئي، وهو الشيء نفسه الذي فعله أبوه.

يسعى رجال الدين الناطقون إلى لعب دور فاعل في السياسة ويدعون صراحةً إلى إقامة دولة إسلامية، بينما يرفض رجال الدين الصامتون التدخل في السياسة على أساس ان عالم السياسة يؤدي لا محالة إلى إفساد الدين، على الأقل طالما لم تحن بعد عودة الإمام المعصوم، الخليفة الشرعي الوحيد للإمام الأول، علي ابن أبي طالب، عليه السلام. يفضلون ان يتحدثوا فيما بينهم ويترفعون عن الحديث مع الجماهير. وهكذا في غُمرِ الحرب التي تلت سقوط الطاغية، إندمجت السياسة بالدين وخلقت فتنةً أخذت شكل حرب أفكار داخل وبين البيوت الشيعية الثلاثة.

ينظر رجال الدين الصامتون إلى حركتنا بسلبية وازدراء ويعتبروننا صنّاع مشاكل سوقيين، خصوصاً بعد قيام بعض الشباب ممّن يسمون أنفسهم بأتباع السيد ـ وقد كان قسم منهم في فناء الضريح يوم مقتل السيد مجيد ـ بتطويق بيت خليفة الخوئي، المرجع الأعلى في النجف، مطالبينه بالعودة إلى إيران التي جاء منها. حدث التطويق في ١٠ نيسان ٢٠٠٣، المصادف يوم مقتل السيد مجيد، واستمر لأيام ولم يتم رفعه الا حين استدعى المرجع الأعلى ألفين من رجال العشائر العربية من القرى المجاورة ففرّقوا الغوغاء الذين طوقوا البيت. نحن الصدريين نعتبر رجال الدين الصامتين متواطئين وعملاء ونوجه لهم نقداً شديداً في كل جمعة من على منابر مساجدنا، حتى ان بعض أعضاء حركتنا من العوام قاموا بتمزيق صور المرجع الأعلى في شوارع النجف ولم يتوقفوا حتى طلب منهم قادتنا التوقف.

• • •

مسكين صديقي حيدر، فقد ابتلعته عاصفة الحرب. لن أنسى أبداً اليوم الذي جاءني فيه وعلامات الغيظ على وجهه وطلب مني أن أذهب معه إلى فناء الضريح لنتحدث عن موضوع يشغله. كانت لديه القابلية على جس نبض الشارع ومعرفة مزاجه، فينذر بمشكلة قادمة، ولكنه غالباً ما يورط نفسه في تلك المشكلة. أمّا أنا فأفتقر لتلك الأحاسيس، ومن النوع الذي يتردد ويفكر كثيراً ويحسب حساباته قبل أخذ أي قرار. كان حيدر قارئاً لمزاج المدينة وقد توقعت أن هذا المزاج هو الذي أزعجه حينها. اشتريت رمانة لأتقاسمها. كسرتها وأعطيته القسم الأكبر منها ونحن نتحدث.

«قابلت شيخاً يعظ في قرية صغيرة تقع على بعد كيلومترات قليلة

شمال النجف»، قال حيدر، ثم أضاف «ان هذا الرجل فريد من نوعه، تبهرك كلماته وأنت تصغي إليه. يسمي نفسه قاضي السماء.»

«ماذا؟» قلت مستغرباً. «هذا ليس اسماً!»

«لا. هذه هي الصفة التي يدّعيها لنفسه. كان تلميذاً وتابعاً مخلصاً للسيد صادق، وطور أفكار معلمه حول علامات ظهور الإمام المنتظر والادلة التي تثبت ان ظهوره بات وشيكاً. كما تعرف ان سيد صادق هو المرجع الوحيد في النجف الذي أسند دعوته لحكومة إسلامية على أسسها الفقهية الصحيحة، أي حكم الإمام الغائب الذي سيعود قريباً. الواعظ الذي التقيته يقول ان المنتظر سيعود أسرع حتى ممّا توقعه السيد صادق. والأكثر من ذلك، يقول ان الإمام الغائب يتراءى له ويكلمه في أحلامه.»

«اذن هو مجنون...»

«لم أر أي جنون فيه على الاطلاق! بالعكس، هو يتحدث بهدوء وبلاغة مقنعة، يعطي الأسباب والأدلة لكل شيء، ويعيش بتقشف وبساطة حتى أكثر من أتباعه! ليس فيه ما يوحي بالجنون أبداً الأ إذا كنت تريد أن تعتبر ان حماسه الشديد لما يؤمن به هو علامة جنون. بقيتُ لمدة يومين في المجمع مع المئات من أنصاره مع نسائهم وأطفالهم ويطلقون على أنفسهم اسم جنود السماء.»

«أفهم من كلامك ان هذا الشيخ هو بالفعل الإمام المنتظر الذي سمّينا جيشنا باسمه، وانّه قد عاد ليجلب العدالة ويمهد ليوم القيامة؟»

«لم أقل ذلك، بل قلت انه مؤثر في حديثه وانه على صلة بالإمام، لكنه واحدٌ منّا.»

«لا، ليس واحداً منّا!» قلت وقد أصابني الخوف من كلامه. «لو كنت مكانك عزيزي حيدر فانني سأتجنب قول ما قلتَه الآن أمام الناس.»

• • •

لم أتوقع من حيدر أن يأخذ هذا الهراء على محمل الجد. لكنه قال شيئاً علق في ذهني حول تعاليم السيد صادق لم أسمع به من قبل. هناك عدد متزايد من الذين يدّعون انهم يمثلون المهدي المنتظر نشطوا خارج النجف في السنوات الأخيرة. تجربة حيدر مع هذا الشيخ المجنون أثارت انتباهي وجعلتني أفكر بالاجتهادات المختلفة التي تعاملت مع قضية الإمام الغائب وهي أهم قضية تثيراهتمام سيدنا، والتي على أساسها سمي جيشنا جيش المهدي.

الخلافات الدينية الرئيسية بين البيوت الشيعية الثلاثة الكبيرة ـ الخوئي والحكيم والصدر ـ تلك الخلافات التي بسببها قُتِل رجالٌ في الماضي، أختزلت بالتفسير الذي تبناه كل عائلة لمعنى غيبة وعودة الإمام التي ستنشر العدالة على الأرض في نهاية الزمان.

فكلما تبنوا تفسيراً يعتبر ان ظهور الإمام سيحدث بعد زمن بعيد، أو انّه ظهور رمزي وليس المقصود الأخذ بمعناه الحرفي، كلما حصل فصل أكبر بين المجالين السياسي والديني. عندها يصبح دور علماء الدين محدوداً وبعيداً عن السياسة. هذا هو التفسير الذي يتبناه العلماء الذين يلتزمون الصمت.

ولكن إذا تبنى علماء الشيعة تفسيراً يعتبر ان ظهور الإمام وشيك، يحصل تداخل بين السياسية والدين اعتماداً على مدى قرب الظهور. وعندها وجب على ذلك المرجع أن يفرض سلطة الدين المطلقة على

كافة مجالات الحياة الشخصية والسياسية. هذا هو التفسير الذي يتبناه رجال الدين الحركيون الناشطون في المجال السياسي كسيدنا.

بيت الخوئي الذي يمثله السيد مجيد يتبنى الصمت وهو التفسير الأكثر فصلاً بين الدين والسياسة، بينما بيت الصدر الذي يمثله سيدنا، يعتمد على التفسير الأكثر جمعاً بين الدين والسياسية. أما بيت الحكيم فقد بقيَ في الوسط يحاول الوصول إلى طريقة يوفق بها بين دعوته النظرية لدولة إسلامية وحقيقة أنه يتعامل مع المحتل ولا يمتلك سلطة دينية لإقامتها. أمّا الشيخ المتمرد الذي تحدث عنه حيدر فهو أصلاً لا يدخل في أي من هذه التصنيفات.

هل يمكن لمثل هذه الخلافات الدينية أن تسبب مقتل السيد مجيد؟ عبر التاريخ يُقتلُ الناس من أجل معتقداتهم. لكنني رحت أبعد من هذا، إلى أعماق الخلافات المذهبية، بل وحتى وصلت منابعها وكلها تنطلق من غيبة الإمام. ولكن الا يبدو كل هذا نظرياً جداً وغير مقنع لتفسير قتل السيد مجيد؟ مجرد التفكير بأنّ القتل حصل بسبب هذه الخلافات يثير فيّ الخوف. لم يواجه شيعة العراق لغزاً محيراً كهذا من قبل. لكن هل يمكنني ان استبعد هذا التفسير لما حصل في ضريح الإمام يوم ١٠ نيسان ٢٠٠٣؟ لا أدري.

• • •

لم اتوقف عن التفكير بمقتل السيد مجيد، ربما لأنني مازلت أتذكر وجه أمّي حينما عدت من موقع الحادثة في ذلك اليوم الربيعي. من أين أتت كل هذه البشاعة؟ هل يمكن أن يحدث هذا لوريث بيت الخوئي ـ واحد من أكبر ثلاثة بيوت شيعية في النجف ـ والذي يكبر سيدنا بسنوات

قليلة، وقد ترعرعا على مبعدة شوارع قليلة من بعضهما، بل ربما لعبا معاً في صغرهما؟ هل يمكن لرجلٍ كهذا أن يكون عميلاً لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية؟

ادّعى عمّي ان الـسيد مجيد بصحبة عشرين من أصدقائه نُقلوا بطائرة جاءت من لندن وأنزلتهم في الصحراء على بعد كيلومترات قليلة من النجف، حوالي عشرة أيام قبل مقتله. وهناك في الصحراء انفصلوا عن بعضهم وذهب السيد مجيد مع أقرب مساعديه إلى النجف حيث عقدوا اجتماعات مع متآمرين آخرين. هل يمكن تصديق هذه الرواية؟ سمعت روايةً أخرى مفادها انّه كان متجهاً إلى بيت مرجع التقليد الأعلى لدى الشيعة في العالم، وخليفة الخوئي، لكن مجموعة من الرجال طوقوا منزل المرجع ومنعوه من الدخول إليه. كان عملاء النظام مايزالون يسيطرون على المدينة حينذاك. هل يمكن التصديق بأنّ ابن مرجع بهذه الأهمية يسمح لنفسه بوضع مئات الآلاف من الدولارات حول بطنه وصدره وتحت زيّه الديني الأسود كما أخبرني عمّي؟ لماذا تواجد في الضريح أصلاً؟ لماذا بعد كل تلك السنوات في المنفى جاء إلى أقدس بقعة في أقدس مدينة للشيعة في يوم سقوط بغداد؟ ماذا كان يريد؟

حتى لو افترضنا صحة الادّعاء بأنّ سيدنا أمر بقتله، لماذا يختار المحتل هذه اللحظة بالذات وبعد مرور زمن طويل لتوجيه التهمة إليه؟ يبدو ان هناك مقصداً ما وراء ذلك. كانت علاقاتنا مع المحتل في أسوأ أحوالها، وقد اندلعت مواجهات بيننا وبينهم في الجنوب... والآن بالذات يقرر المحتل اعتقال سيدنا!

السيد

«لا يمكن للسيد أن يخطئ»، قال لي عمّي ونحن في طريقنا إلى اللقاء الذي انتظرته طويلاً مع السيد وهو لقاء تولّى عمّي تنظيمه. «حتى لو كان مخطئاً فليس من واجبك أن تصححه. مفهوم؟» ثم أخبرني قصة عن والده، السيد صادق، الذي كان عمّي معجباً به.

كان عمّي يجلس مع سيد صادق في غرفة إستقبال الضيوف، حين جاء رجلٌ يسأل عن سعر الطماطة. «أغضبني هذا السؤال»، قال عمّي، «قمت من مقعدي لطرده من الغرفة وتوبيخه بشدة على قلة احترامه. لكن السيد أمسكني من ذراعي وجذبني إلى جانبه على السجادة. ثم فاجأ الجميع بالإجابة على سؤال الرجل بالتفصيل فأخبره عن أسعار مختلف انواع الطماطة وقارنها بأسعار الأسبوع الماضي وبأسعار الخضروات الأخرى. بدا وكأنّه يعرف كل ما يتعلق بسعر الطماطة! لحقت بالرجل بعد أن غادر وسألته لماذا جاء إلى هنا ليطرح هذا السؤال تحديداً. أجابني بأنّه عندما اختار المرجع الذي يقلده أراد مرجعاً يفهم مشاكله. شكرته وتركته مع شعور بالخجل من نفسي.»

«قصة جميلة»، قلت.

«لم يكن السيد صادق من النوع الذي يطمر نفسه تحت جبال من

الكتب كما يفعل بقية المراجع»، قال عمّي وهو يغمز لبيت الخوئي وللمرجع الأعلى الذي خلف الخوئي.

سألت عمّي ما إذا كان سيدنا يمتلك نفس حكمة والده.

«إنه الابن الأصغر للسيد صادق»، أجابني، «والسيد صادق إكتسب مكانته من منزلة ابن عمّه، الشهيد الأول والمفكر المؤسس للحركة، السيد باقر. كان السيد باقر مختلفاً عن بقية رجال الدين في أنّه لم يهتم باصدار أحكام حول قضايا تافهة مثل كيف يجب على المرأة أن تغتسل وتصلي بعد فترة الحيض أو بعد أن تضع وليدها. اختار ان يفكر بطريقة جديدة وجريئة تتناول القضايا الكبيرة ولأجل ذلك دفع الثمن حياته على يد الطاغية عام ١٩٨٠. ان جميع المباديء التي تؤمن بها حركتنا تعود في الأصل إليه. وجاء السيد صادق ليستمر على نهج الشهيد الأول. كان هو الذي سبق الآخرين باستعادة عقيدة الإمام الغائب الذي ستحل العدالة الأبدية في العالم بظهوره. لقد كتب الكثير عن هذا الموضوع وبسبب ذلك قتله الطاغية عام ١٩٩٩ إلى جانب ولديه الأول والثاني. لم يبقَ سوى سيدنا، أصغر أبنائه والوحيد الذي يربطنا بهذا الإرث العظيم من التفكير الديني والشعبي المنطلق من هموم الناس. اختير اسم جيشنا، جيش الإمام المنتظر، بإلهام من أفكار السيد صادق وإحيائه لتراث الإمام الغائب. تذكر أيضاً يا ابنيّ، أن سيدنا عربي خلافاً للعلماء التقليديين الصامتين ومعظمهم من الإيرانيين. هذه المسألة مهمة جداً. كذلك فإنّ سيدنا يركز على شر الاحتلال الأجنبي لعراقنا الحبيب، وهو ما يميزه عن بقية البيوت الدينية الأخرى.»

لاحظت الحذر الذي أبداه عمّي وهو يتحدث عن سيدنا، فلم يتطرق أبداً إلى خصائصه الشخصية. في ذلك الحين وصلنا إلى بيت السيد قرب

الضريح المقدس، الذي لم يكن بعيداً عن الزقاق الذي شهدتُ فيه جثة السيد مجيد.

سيدنا هو رجل قصير ممتلئ في الثلاثين من عمره بوجهٍ دائري عابس. لم يكن يبتسم أبداً خلافاً لوالده الذي كان يضحك حين يسمع نكتة جيدة. قد علمت ان السيد يعتقد ان لذلك التعبير على الوجه فضيلة كبيرة. كان يجلس القرفصاء في غرفة مليئة بالسجاد تشبه إلى حدٌ كبيرٍ غرفة عمّي لكنها أصغر. كانت الوسائد تنتشر على جدران الغرفة الأربعة لكّنه لم يكن يستخدم أيّاً منها. كان منحنياً للأمام ويلاعب خرزات مسبحته حين دخلنا انا وعمي. نهض بحركةٍ واحدة للترحيب بعمّي ثم قدّم يده لمصافحتي فانحنيت عليها وقبلتها وشعرت ببرودة الحجر الشذري الكبير لمحبسه المصنوع من الفضة. وبعد أن تبادل كلمات الترحيب مع عمّي الذي كان يتصرف بأريحية شديده معه، جلس ونظر نحوي.

«هذا إذنِ الشاب الذي أخبرتني عنه! سمعتُ أنك تقوم بمهامٍ لأجلنا وانك متعلم. أحسنت ابني.»

احمرّ وجهي وأنا أسمع تلك الكلمات وأطرقت النظر نحو الأسفل إحتراماً.

«هل لديك هوايات يا ابني؟»

«كرة القدم.»

«هممم.... الشرع يحرم هذا النوع من الرياضة التي تصرف الناس عن أداء واجباتهم أمام الله.»

«لم أعرف بذلك فضيلتكم.»

«الغرب الكافر فرض علينا بعض الاحتياجات التي تمنع تكاملنا

كمسلمين وكرة القدم واحدة من ابتكاراته هذه. ما الذي يجنيه رجل كبير وقوي من الركض وراء الكرة؟ قلْ لي ما الذي يبقى من رجولته؟ بدلاً من بذل كل هذا الجهد كي يضع كرة تافهة في الشباك من الأفضل له أن يكرس جهده لهدف نبيل ينفعه حين يقف بين يدي خالقه. أسألك، هل يُضيع اليهود وقتهم وهم يلعبون هذه اللعبة السخيفة؟ كلا طبعاً، هم يتركون هذه التفاهات إلينا. هل ربحت أمريكا أو إسرائيل كأس العالم مرةً؟ هم ينفقون وقتهم على الابتكار وتحسين حياتهم مثل اختراع المحطات الفضائية، ويتركون هذه الملهيات السخيفة لنا لكي ننشغل بها.»

«هل هناك أنواع من الرياضة يقبلها الدين، سيدنا؟»

«طبعاً! مثلاً المبارزة... الفروسية... هل تعرف كيف تقود حصاناً؟»

«لا فضيلتكم.»

«يجب أن تتعلم. واذا أردت ان تطور مهاراتك وتصبح أقوى يجب أن تفعل ذلك بطريقة ترفعك أخلاقياً. وفي الوقت نفسه تبني عضلاتك. الركض مفيد أيضاً، وكذلك الأمر مع السباحة. هل تعرف السباحة؟»

«لم تشجعني أمي. قالت ان نهر الفرات القريب منّا لوّثه صدام.»

«هممم... هي على حق. وضع الله عقباتٍ أمامنا ليختبر إيماننا. يجب أن أذهب لاصلّي الآن. عليك اطاعة عمّك في كل ما يطلبه منك. لقد أخبرني عن مهمتك؟»

«نعم، سيدنا.»

«اذهب في رعاية الله ابني.»

مذكرة الاعتقال

أكّدت الأحداث التي تلت لقائي بالسيد صحة توقعات عمّي عن غدر المحتل: تم إغلاق صحفنا واعتقال قادة كبار في حركتنا، وبضمنهم صديق مقرب من عمّي. قامت مروحية أمريكية بتمزيق علم إسلامي كان يرفرف في أعلى إحدى البنايات مما أثار نقمة الناس. لكن الاهم من كل ذلك كان اصدار مذكرة اعتقال بحق السيد كما تنبأ عمّي. وبسبب كل تلك الأحداث دخلنا في حالة حرب مع المحتل كما توقع عمّي.

في صيف ٢٠٠٤، ازددنا أنا وحيدر إجلالاً للسيد وصرنا نراه مجسداً للدين الحقّ في الأرض، وكأنّ هناك علاقة خاصة تربطه مع الله لا يمكن لمؤمنين مثلي ومثل حيدر ان نسبر غورها. مع ذلك فإن إجلالي له لم يبلغ ابداً الحدّ الذي بلغه بعض رفاقنا البسطاء في جيش الإمام الذين قالوا ان السيد هو المهدي المنتظر.

آمنتُ بأن سيدنا، سليل الشهداء من آل الصدر، قد تعرض لمؤامرة من سلطة الاحتلال باتهامه بالضلوع في الهجوم على سيد مجيد الذي كان متعاوناً مع المحتل. أراد المحتل باتهام سيدنا بالقتل إضعاف موقفه بين الشيعة والانتقام لمقتل صديق المحتل، سيد مجيد.

في خطبة الجمعة اللاحقة ارتدى السيد كفناً أبيضَ بدلاً من ثيابه السوداء التي اعتاد ارتداءها، إشارة إلى أنه احتضن الشهادة كما فعل أبوه

من قبله عام ١٩٩٩. «واصلوا المقاومة»، قال في خطبته، «لا تستخدموا شهادتي أو اعتقالي كذريعة لعدم انهاء ما بدأتموه». وبعد أن أعلن سيدنا الحرب، اختفى في مكانٍ ما.

• • •

بدأت سلسلة من الاجتماعات مع الحكومة لإلغاء مذكرة الاعتقال وإعلان وقف لإطلاق النار. كان يمثل الحكومة في المباحثات مستشار الأمن الوطني وهو مؤيد سابق لبيت الصدر عاد إلى البلد بعد ربع قرن من المنفى. لكنه لم يكن يحظى لا بثقة حكومته ولا بثقتنا. كان أيضاً عضواً في عصابة الثلاثة عشر التي عملت كوسيط في المفاوضات رغم ان مصالحها لم تتطابق مع مصالح الحكومة بل انها كانت تسعى لتقويضها في كل فرصة ممكنة. ضغط البيت الشيعي باتجاه إعلان وقف إطلاق النار، وكان يمثله رئيس مجلس الحكم الذي لعب دوراً أكبر من أي واحد آخر من العراقيين الأجانب في إسقاط الطاغية. وقاد عمّي المفاوضات من جانبنا بعد أن جلبني كمساعد له.

كان لدى مستشار الأمن الوطني وعصابة الثلاثة عشر الهدف نفسه: إلغاء مذكرة الاعتقال التي أصدرها المحتل كشرط لإنهاء الحرب. بدا ذلك غريباً، لكونهم معينين من قبل المحتل وأصدقاء للسيد مجيد، لربما كان من المنطقي تصور انهم سيجدون سببا لدعم القضية ضد سيدنا. لكن الأمر لم يكن كذلك. فوجيء عمّي حين اكتشف بانّ عصابة الثلاثة عشر كان يسيل لعابها لاحتمالية الظهور بمظهر من يسدي خدمةً لسيدنا. كانوا مستعدين على حدّ قول عمّي أنْ يُقبلوا حذاء السيد لمجرد أن يمنحهم وقتاً كالذي حظيت به الشهر السابق.

التقينا في بيت رئيس مجلس الحكم بعيداً عن عيون المحتل والحكومة العراقية. توزعت الكراسي والأرائك على طول جدران الغرفة وفي المنتصف كان هناك شكل كبير غير متناسق من الكاشي الرخامي مع بعض السجادات الفارسية المبعثرة هنا وهناك كأرواح تائهة. لم تكن غرفة من النوع الذي يشعرك بالراحة، بل لتترك انطباعاً عن مدى فخامتها لمن يشاهدها.

عند وصولنا اندفع الرئيس من مقعده في وسط الجهة المقابلة لباب الدخول حيث الكراسي أكبر وأوسع وأكثر امتلاءً. «أنت تعمل لوجه الله»، كانت أولى الكلمات التي نطقها المضيف وهو يصافح عمّي. «السيد يقود مقاومةً ضد الاحتلال الأمريكي وهي مقاومة مهمة لشيعة العراق بقدر أهمية تلك التي قادها جده الأكبر ضد الاحتلال الإنكليزي. بارك الله بكم. اهلاً بكم في بيتي!»

«هل تعرف»، واصل الحديث وقوفاً، «انه كان هناك ١١ ألف رجل شجاع من أهل النجف، أي ضعف عدد أفراد الجيش العثماني، يقاتلون المتفوق عليهم عسكرياً. حدث ذلك في نيسان ١٩١٥؟ هل سمعت بذلك؟ كان يقودهم العالم الشجاع محمد الحبوبي، الذي كانت عائلته قريبة جداً من عائلتنا. قاتل الحبوبي كأسد لثلاثة أيام ونجح لعدة مرات في صدّ قوات الامبراطورية البريطانية قبل ان يسقط شهيداً على ضفاف الفرات. اما القائد العثماني فقد انتحر بعد أن شعر بالعار بسبب فشل جنوده. علينا أن نفخر بالروح القتالية لرجالنا الذين حاربوا في النجف وهي روح نراها مجدداً حيةً في السيد النبيل المنحدر من بيت الصدر.»

ثم قال فجأةً بعد كل تلك المقدمات: «الضريح المقدس سقط تحت سيطرة قواتكم قبل قليل، أليس كذلك؟»

عُرف عن الرئيس انه يكثر من استعراض معلوماته بما فيها التفاصيل الدقيقة حول من قال ماذا ومتى، ومن ثم يغير مجرى حديثه لغايةٍ تنفعه. أدرك عمّي انه يتعامل مع «ثعلب» يميل، كما أخبرني لاحقاً، إلى تغيير الموضوع بطريقة مثيرة من أجل أن ينتزع معلومات يريدها. كان عليه ان يفكر جيداً من أجل توجيه المحادثة مجدداً إلى مذكرة الاعتقال التي كانت هي الموضوع الرئيسي في ذهنه.

«الضريح والمدينة كلاهما سقطا بدون إطلاق الرصاص»، أجاب عمّي وعلامات التفاخر بهذا الإنجاز بادية في أسلوبه ونغمة حديثه. «شرطتك وجنودك ألقوا بنادقهم، وتخلّوا عن زيهم العسكري وهربوا. نحن الآن نسيطر تماماً على المدينة.»

«ليسوا شرطتي وجنودي»، أجاب الرئيس مع بعض الازدراء يطل من ثنايا كلامه. «لا تخلط بيني وبين الكاريكاتير الذي يسمّى حكومة والتي بالمناسبة يرأسها بعثي سابق.»

هكذا اعتاد العراقيون الأجانب أن يتحدثوا عن بعضهم البعض.

لم يأتِ ذكر مذكرة الاعتقال طوال الجلسة حتى همس الرئيس إلى عمّي انه يضمن حصول السيد على كل ما يريد. على ما تبيّن، وضع كل الأعضاء في عصابة الثلاثة عشر أسماءهم على رسالة تطالب المحتل بـ «تعليق» مذكرة الاعتقال، ليتبع ذلك وقف إطلاق النار. وطالبوا المحتل أيضاً بدمج جيش الإمام في العملية السياسية. كل ما كان على جيشنا أن يفعله هو الانسحاب من المدينة المقدسة وإيقاف احتلاله للضريح في النجف. أعطوا نسخة من الرسالة إلى عمّي كي ينقلها إلى السيد لغرض الحصول على موافقته. ولكنهم لم يعطوا نسخة منها إلى المحتل ليبعدوا

شبهة ضلوعهم في مؤامرة لطمس الحقيقة، بل قاموا بقراءتها على ممثلي المحتل في اجتماع سري تضمن تقديم «مطالب» عصابة الثلاثة عشر!

لم يثق المحتل وجيشه بسيدنا وجيشه؛ وكلاهما لم يثقا بما تبقى من مجلس الحكم، الذي كان بدوره منقسماً على نفسه إلى الحد الذي لم يستطع أعضاؤه أن يتفقوا على أيّ شيء. عيّن المحتل الحكومة العراقية التي هي كذلك لم تثق بمستشارها للأمن الوطني لأنه كان عضواً في عصابة الثلاثة عشر، تلك العصابة التي كانت بدورها الأقل استحقاقاً للثقة من الجميع لأنّ جميع أعضائها كثيراً ما كانوا يتآمرون وينشرون الشائعات عن بعضهم البعض.

الكلمة الأكثر إثارة للاهتمام في الرسالة هي كلمة «تعليق». مثّلت الكلمة تنازلاً للمحتل طالب به مستشاروه القانونيون الذين عارضوا إلغاء المذكرة لأنّ السيد متهم بارتكاب جريمة جرى التحقيق بها بطريقة سليمة من قبل قاضٍ عراقي. كما رفض المحتل التعامل مع السيد بسبب هذه التهمة أو دمج جيشه في الجيش الحكومي الجديد.

«تعليق» المذكرة يعني وضع الملف الذي صاغه القاضي جانباً وليس إغلاقه للأبد، وتلك كانت تسوية ابتكرها عضو في عصابة الثلاثة عشر لحلّ المأزق. عملياً يعني ذلك أن سلطة الاحتلال ستتخلى عن هذه المشكلة الشائكة لحكومة عراقية يجري انتخابها مستقبلاً، ولأن تلك الحكومة ستكون بقيادة الشيعة فقد تم تطمين عمّي بأنّ مذكرة الاعتقال سوف تُلغى مباشرةً. وعلى أساس تلك التطمينات وافق عمّي على اعتماد كلمة «تعليق». ذلك كان التنازل الوحيد الذي قدّمه في تلك المناسبة.

حرب في النجف

في الأسبوع التالي من آب ٢٠٠٤، قامت الحكومة العراقية بإرسال جيشها الجديد المدرب حديثاً من قبل الأمريكيين إلى المدينة المقدسة متجاهلةً توصيات مستشار الأمن الوطني وعصابة الثلاثة عشر. تلك كانت أول مواجهة رئيسية يدخلها الجيش الجديد. أول شيء فعلته تلك القوات هو إطلاق النار على زوار غير مسلحين كانوا يتظاهرون بشكلٍ سلمي دعماً للسيد. قتلوا ١٨ شخصاً، فاستفزوا بذلك رجالنا الذين ردّوا عليهم. مساء ذلك اليوم تحولت النجف إلى مدينة أشباح.

قامت الدبّابات والطائرات والمروحيات الأمريكية بقصف مواقعنا حول الضريح. هاجم المارينز بناية قريبة من المدينة القديمة، على بعد أمتارٍ قليلة من الضريح. وفي هذه المرة أخذوا مواقعهم ولم يكتفوا بالهجوم من الجو. أمرنا قادتنا بالانسحاب إلى داخل الضريح المقدس لأنّ الأمريكيين لن يجرؤوا على قصفه. اندفع الآلاف منّا إلى الضريح وفنائه فحولناه من مقصد ومكان للعبادة إلى مدينة بمستشفياتها ومطاعمها وأعداد كبيرة من التوابيت لمن ماتوا ومن سيموتون.

في غضون ذلك، ظلّت وحدات من الجيش العراقي الجديد تجوب المناطق التي سيطر عليها المارينز. كنّا آمنين داخل الضريح المقدس وتحولت المدينة إلى مجموعة بنايات مدمرة وواجهات دكاكين محترقة وسيارات مهشمة ومواشٍ وكلاب ميّتة في الطرقات. بدت النجف شبيهة

بشقيقتها مدينة الفلوجة السنية بعد أن أوغل المحتل في تدميرها حتى خضعت في نيسان الماضي.

بدأ جيشنا حين تأسيسه بخمسة آلاف رجل، وفي نهاية صيف ٢٠٠٤ بلغ عدد أفراده عشرين ألف مقاتل.

بدأنا التنسيق مع المقاومين السنة في الفلوجة والرمادي لإجبار المحتل على القتال في جبهتين في آنٍ واحدٍ. كان ذلك التنسيق من ثمار جهود عمّي للتقارب مع هيئة العلماء المسلمين التي سيطرت على مسجد أم المعارك والتي زرت مقرها معه في عام ٢٠٠٣. تلّقت قواتنا التعزيزات من مقاتلين من المثلث السني انضموا إلى صفوفنا. حتى تنظيم الإخوان المسلمين، العباءة التي خرجت منها كلّ المنظمات السنية المسلحة، أصدر بياناً يدعم سيدنا.

• • •

وجدتُ نفسي مع حيدر في الضريح حيث شكّلنا معاً كوحدة قنص. تولى هو القنص وتوليت أنا تحديد الأهداف والتنسيق والتواصل مع قاعدتنا من خلال هاتف خلوي مربوط بالأقمار الفضائية. لم يكن لدينا غير عدد محدود من هذه الهواتف الثمينة موزع على مواقع الآلاف من مقاتلينا داخل الضريح. تلقينا التدريب ثلاث مرات في الفترة الفاصلة بين المغرب والفجر في المدينة القديمة على يد قناص مشهور من الفلّوجة. قد تدرب هذا القناص في زمن الطاغية وبالرغم من سنه مازال قادراً على القفز فوق الانقاض والحيطان المتساقطة كما تفعل الماعز وفي الوقت نفسه يتعامل مع بندقيته وكأنها ذراعه الثالثة. رأيته يهشم برصاصته رأس جنديٍ يركض هارباً على بعد ثلاثمائة متر. علّم حيدر ان القنص هو فنّ

يقوم على الصبر والاختباء. تعلمنا منه قيمة إنفاق ساعات كاملة لاختيار موقع القنص بدقة متناهية وصولاً إلى حالة يكون فيها القناص وسلاحه مختبئين بالكامل ويتبع ذلك الانتظار والتربص، الجزء الأصعب من العملية بأكملها.

معظم القتل الذي أثر على سير معركة النجف قام به القناصون. امّا المتبقي فكان نتاج الفوضى والتصويب العشوائي لطائرات ومروحيات ودبابات المحتل، وكلها أسلحة لم نمتلك شيئاً منها. كان لدى المحتل معدات أفضل وقناصون محترفون تدربوا طويلا. كنّا نخافهم أكثر من دبابات العدو ولكن نقطة ضعفهم كانت تضاريس المنطقة. فقد كان عليهم ان يأخذوا مواقع بالقرب من مناطق انتشار قواتهم وتجنب المخاطرة. وقد عرف عنهم انّهم يضيعون في أزقة المدينة القديمة التي تشبه أنفاق الأرانب، بينما كنّا نعرف تلك الأزقة جيداً.

انتهى الأمر بنا انا وحيدر بالتنقل بين البيوت وحولها، وبالقفز أحياناً من سطح إلى آخر والاختباء في المساجد القديمة والخرائب الجديدة. كنّا نعرف على وجه الدقة كل الأزقة والسطوح وأفضل المواقع في البنايات نصف المدمرة. بالنسبة لنا كان قتل جنود وضباط الجيش الجديد كلعب الأطفال، لكنّ قتل الأمريكيين كان أصعب ليس لأننا لم نستطع الاقتراب منهم بل لأن ردود أفعالهم كانت سريعة ودباباتهم كأفيال جريحة يمكنها أن تطيح بالبناية التي نختبئ فيها ببضع ثوانٍ. امّا إذا لم يحددوا موقعنا من خلال الضوء المنبعث من بندقية حيدر فإن الدبابة ستحرث الزقاق كلّه محطمة كل شيء على جانبيها. مع ذلك، فأنّ الأمريكيين الذين قُتلوا في حرب النجف سقطوا على أيدي قناصين مثل حيدر ومحددي أهداف مثلي.

حقّق حيدر نجاحاً كبيراً في عمله وكان منتشياً ببندقيته الدراغونوف

الروسية شبه الاوتوماتيكية، التي مثلت اداة مفضلة لوحدات القنص أيام الطاغية. اعتاد أن يقول ان علاقته ببندقيته أشبه بالالتزام الديني، حيث إن عليه القيام بأخذ الموقع الصحيح وانتظار صيده بصبر كبير ثم التصويب الدقيق نحو الهدف. أولاً، هناك مايشبه الرهبة بقرب الموت دون أي شعور بالخوف منه، سواء موتك أو موت شخص آخر. ثانياً، هناك تركيز تامّ على جسدك ونفسك ومهمتك وكأنكَ خرجت عن العالم وكل ما يحيط بك. ثالثاً التضحية، حيث عليك أن تفضل حياة رفيقك على حياتك. رابعاً، هناك شعورٌ ثريّ يغمرك في داخلك لكونك جزءاً من شيء أكبر من نفسك وقضية ذات معنى كوجودنا في الضريح المقدس. وأخيراً، أكمل حيدر، هناك النشوة التي تشعر بها حين تتمكن من اختزال كل هذه العناصر الخمسة لتجربة دينية نقية، في رصاصة مثالية قاتلة تصيب هدفها.

هناك متعة وحشية في القتل الجيد، متعة شعر بها على ما أظن كل مقاتلينا الذين احتلّوا الضريح. شعرت بها أنا، وربما شعر بها سيدنا وقد خرج الآن من ظلال شهادة أبيه وإخوته ليكتسب منزلة أسطورية بسيطرته الحازمة على الضريح المقدس، رغم معرفته بأنّ ذلك سيأتي بنتائج وخيمة على مدينته النجف.

كم أدهشتني الكيفية التي تغير فيها الحرب الناس من حولي. حيدر فقد بعض توازنه بسبب الشيخ المجنون الذي يتحدث عن نهاية الزمان والمهدي المنتظر وبيته الذي تفكك نتيجة ما تكشف عن أبيه. لكن خلال الأسابيع الأربعة لحرب النجف، كان عقل حيدر في حالة إنسجام تام مع جسده، وتركيزه محصوراً على أداء مهمة واحدة باتقان: القتل.

استعيد اليوم بذهول تلك الأيام الحارة من آب ٢٠٠٤ والمشاعر

والذكريات التي أطلقها صراعنا مع المحتل. ربما هناك أكثر من شخص في داخلنا: واحد يشعر بالمتعة وسط الدمار، وآخر ينسحب بعيداً. أو ربما كان للموضوع علاقة بتلك الجوانب المكروهة في نفوسنا التي غالباً ما يتم تحجيمها لتدخل في سباتٍ عميق لتوقظها الحرب وتحولها لوحوشٍ ضارية.

هناك حادثة واحدة لن أنساها ما حييت. كنت أحاول التسلل عائداً إلى الضريح وأنا أحمل أحد رفاقي الجرحى حين نادى عليّ رجل عجوز وأنا أقترب من نهاية الزقاق للوصول إلى الباب الخشبية العالية للضريح. «أنظر»، قال وهو يشير نحو حمار ميت كان يجر عربة تحمل مكعبات الثلج الكبيرة. «ساعدني. حماري قتله أحد القناصين». كانت العربة على وشك أن ترمي حملها على جسد الحيوان الميت. «هؤلاء الأمريكيون الملعونون»، أجبته بصوت عالٍ وأنا أشير لرفيقي الجريح لأوضح له انني لا أستطيع المساعدة.

بعد ساعة كنا أنا وحيدر وبندقيته الدراغونوف حاملين بقية معداتنا نتسلل خارج الضريح لنأخذ مواقعنا في مكان غرب المدينة القديمة. قرب الحمار الميت، رأينا الرجل العجوز مضطجعاً ووجهه على التراب مع ثقب متمركز في وسط رأسه من الخلف.

«تصويبة جيدة»، قال حيدر.

تطلّعت نحوه مرعوباً: «لماذا...من؟»

«من يعرف؟ ربما كان قناصاً يتدرب.»

وقف إطلاق النار

لم تنته الحرب مع المحتل لأن مذكرة إلقاء القبض بحق السيد قد «علّقت». ولم تنتهِ بفعل مناورات عصابة الثلاثة عشر، ولا لأنّ جيش الإمام التزم بشروط الاتفاق مع الحكومة العراقية المعيّنة من المحتل. انتهت لأن زاهداً عمره يناهز التسعين عاماً أجبر نفسه على الخروج من سرير المرض ومخالفة نصائح طبيبه، ليقود مسيرة سلمية من مدينة البصرة عبر المحافظات الجنوبية إلى النجف. انتهت لأن مليون رجل وامرأة من الشيعة شاركوه المسيرة، لا ليبكوا وينحبوا ويضربوا صدورهم كما فعلوا في الزحف لكربلاء عام ٢٠٠٣، بل للدعوة للسلام وطرد كل المسلحين من المدينة المقدسة.

لم يكن بوسع سيدنا بعد ذلك أن يفعل شيئاً سوى الاجتماع بالرجل المسن وعقد أفضل اتفاق معه يسمح لنا بالانسحاب بكرامة من الضريح المقدس.

أُقيم الاجتماع مع المرجع الأعلى للشيعة في آخر خميس من آب. في نفس الوقت كانت الملايين تقترب من الضريح. دخل السيد إلى منزل المرجع ليجده جالساً القرفصاء على الأرض في غرفة الاستقبال الصغيرة الخاصة به. جاء دور سيدنا لينحني ويقبل يد الرجل المسن. لم يكن المرجع يرتدي محبساً كبيراً من الشذر والفضة في أصبعه كسيدنا، مما أجبر سيدنا على تقبيل الجلد المتجعد لكفه. هل سحب المرجع يده

كما اعتاد أن يفعل مع الزوار المبجلين تجنباً لإحراجهم؟ لا أعرف. شكّك عمّي بحدوث ذلك. هل وقف المرجع حين صافح السيد إحتراماً له؟ «قطعاً لا» قال عمّي بغضب.

لم تكن هناك مساواة في تلك الغرفة حين حدث اللقاء في ذلك اليوم الاستثنائي.

إستغرق اللقاء خمس عشرة دقيقة، لكنّ كان على سيدنا أن يبقى في الغرفة بمفرده وقتاً أطول حتى إستحصل مساعدو المرجع ضمانات بالخروج الآمن له. كتب المرجع مسودة بيان أراد من سيدنا أن يعيد كتابته بخط يده ويوقعه ويضع ختمه عليه. وافق سيدنا على النص لكنه حاول أن يتجنب توقيعه. أصرّ المرجع ليس فقط على كتابة البيان بخط يده وتوقيعه وختمه، بل وحتى على تسجيله بصوت السيد على شريط جاء به مساعدوه.

لم تكن هناك ثقة في تلك الغرفة الصغيرة حين حدث اللقاء في ذلك اليوم.

استحصل السيد على تنازل واحدٍ من المرجع خلال الدقائق الخمس عشرة من لقائهما. أراد أن نخرج من الضريح كمقاتلين مرفوعي الرأس وليس كمستسلمين. وافق المرجع قائلاً «من أجل مقاتليك»، بشرط أن ان يسلم المقاتلون أسلحتهم. بعد ذلك قال سيدنا انه يخشى ان يجري تصوير مقاتليه أثناء خروجهم من المسجد وملاحقة المحتل لهم، وكضمان طالب أن يتغلغلَ عشرة آلاف من الزوار بين مقاتليه عند خروجهم. وافق المرجع على إعطاء هذا الضمان لكن سمح بألفي زائر فقط بدلاً من العشرة آلاف التي طلبها السيد.

• • •

أثناء خروجنا من الباب الخشبية الطويلة للضريح، قمنا بإلقاء رشاشاتنا والقاذفات التي نحملها في عربة واقفة في الخارج. انبعثت كلمات الشريط المسجل بصوت سيدنا عبر مكبرات الصوت للضريح: «بسم الله الرحمن الرحيم، إخوتي في جيش الإمام. لقد دافعتم عن أنفسكم وقاتلتم من أجل إمامكم بشجاعة وإصرار لا يتزعزع. الآن أسألكم، والمرجع الأعلى يسألكم، أن تختلطوا مع الزوار المسالمين غير المسلحين من الكوفة والنجف الذين انتشروا بينكم، وغادروا الضريح.»

لم يكن هناك أثر لا للأمريكيين ولا للجيش العراقي بعد شهر من القتال معهم في النجف. ألقينا أسلحتنا في عربتين خارج الضريح وبدا الأمر وكأننا نزعنا سلاحنا. في الحقيقة، اتجهت العربتان فيما بعد إلى مخزن خارج المدينة حيث ذهبنا واستعدنا الأسلحة التي تخلينا عنها أمام بوابة الضريح. عندما جاءت المركبات الأمريكية لجمع الأسلحة تم إخبارهم بأنها مكدسة في العربات بانتظارهم ولكن عندما ذهبوا إلى هناك لم يجدوا شيئاً.

كنا متعبين وجائعين، نحمل موتانا وجرحانا ولكن بدون أن يمس ذلك كرامتنا وشرفنا. اختلطنا مع آلاف الزوار وخرجنا معهم، لنذوب في دهاليز وأزقة المدينة القديمة.

عند مغادرتي، رأيت حشداً من الصحفيين والمصورين يتجمعون بالقرب من بيت المرجع. لقد قرر المرجع الأعلى للمدينة المقدسة ما الذي يجب أن يكون، وكان له ما أراد. انعقد مؤتمر صحفي تمّ خلاله إبلاغ الصحفيين بشروط اتفاق وقف إطلاق النار. كان مساعد المرجع يقف على منصةٍ متحدثاً إلى الصحفيين. وحين سرتُ باتجاه موقع المؤتمر الصحفي لرؤية ما يحصل عن قرب، لمحتُ سيدنا وهو محاطٌ باثنين من مساعديه يخرج من الباب الخلفي لبيت المرجع، ملتفاً بعباءته السوداء وهي ترفرفُ من سرعة انطلاقه نحو سيارته.

الصامت

في الأيام التالية، كان على عمّي أن يراقب تفاصيل تطبيق وقف إطلاق النار مع مساعد المرجع. كنت أرافقه وكان يطلب مني الانتظار في فناء البيت الذي تجري فيه اجتماعاتهما. دخل شابٌ من عمري قدم لي العصير، وجلس بقربي مجاملةً. كان طالباً للمرجع يدرس الفقه والأخلاق. سألته عن استاذه، أي نوع من الرجال هو؟ بدأ جوابه بقصة عن المرجع حينما كان طالباً حوزوياً شاباً في مدينة قم في إيران.

حينها، قال الطالب، كان المرجع معروف بخصلتين: سماحة وجهه وولعه بالفلسفة. روِيَ أنه جلس مرةً في حلقة ضمّت خيرة الأساتذة في الكلية وكانوا يناقشون قضيتين مهمتين في الفلسفة: الجبر والاختيار. بعد قليل لاحظ أكبر الحاضرين سناً وعلماً ذلك الطالب الشاب، وقال له «هل لديك سؤال لنا؟»

«ما عدد الاختلافات التي نعرفها»، قال الحوزوي الشاب، «بين الشخصية المكتسبة للإنسان وبين ماهيته المتأصلة التي خلقه الله عليها؟»

«هذا السؤال فوق مركزك أيها الشاب»، ردّ الاستاذ بحدة، «غرضه التظاهر، لماذا لا تقول ما يجول حقاً في ذهنك، مثلاً، كيف يمكنك ان تستخدم مظهرك الجميل لتتفوق على زملائك؟ أليس هذا كل ما يفكر به شاب مثلك؟»

صمت الشاب الحوزوي وبقي يفكر بما سمعه من هذا الاستاذ. ثم شكر محاوره بلطف وغادر المجموعة.

«لماذا يشكر رجلاً تصرف بلؤم معه؟» سألت الطالب.

«لأنّ جواب الاستاذ جعله يعيد النظر بالأسباب التي جعلته يطرح هذا السؤال أصلاً.»

«ألم يشعر بالإهانة؟»

«كلا.»

لم أفهم ما قال، وأصبحت تواقاً أكثر لمعرفة المزيد عن هذا الرجل الذي تحول إلى لغز محير بالنسبة لي. قادني فضولي لمعرفة أكثر عن من هو هذه الرجل.

«هل يتكلم المرجع العربية أم الفارسية؟»

«يعتمد على الظرف.»

«لكنه إيراني.»

«كلا.»

«لا أفهمك. وُلد في مدينة مشهد الإيرانية، أليس كذلك؟»

«نعم.»

«من هو إذن؟»

«ينتمي إلى أمة المؤمنين.»

«هل يعتبر نفسه عراقياً؟»

«كلا.»

«ماذا يعتبر نفسه؟»

«كخلق الله، ضعيفاً ومعرضاً للخطأ كجميع مخلوقاته.»

«لكننا ندعوه مرجع التقليد الأعلى!»

«هو ليس مسؤولاً عن الألقاب التي يطلقها الآخرون عليه.»

«هل يحب العراق؟»

«طبعاً.»

«هل يحب إيران؟»

«طبعاً.»

«بنفس القدر؟»

«بنفس القدر.»

«ألا يحب مكاناً معيناً أكثر من غيره؟»

«يجل المدينة المقدسة، النجف، أكثر من أيّ بقعةٍ أخرى على الكرة الأرضية. عاش فيها نصف قرن.»

«نصف قرن! ألهذا السبب تدخل لوقف القتال في النجف؟»

«تدخل لأن المدينة المقدسة كانت على حافة الانهيار. كانت تواجه الدمار. المدينة نادت عليه، فاستجاب.»

«قيادة مسيرة كبيرة نحو النجف هي خطوة كبيرة من رجل عُرِف بابتعاده عن السياسة.»

«الناس الذين أحاطوا به طلبوا ذلك.»

«لماذا لم يتدخل في حالات أخرى حينما حدث قتال في مدينة الصدر أو في كربلاء أو الفلوجة مثلاً؟»

«ان خسارة أي مؤمن، سني أو شيعي، هي خنجر في صدره. لكنه لن يتدخل حين يتعذر عليه تحقيق شيء ملموس.»

«يصمت إذن؟ يبدو لي انه يعيش في عالم غير حقيقي، مختلف تماماً عن عامة الناس.»

«ما الذي تقصده بعالم غير حقيقي؟ أليست كل عوالمنا حقيقية؟»

«حسناً... من كان مُعلِمه؟»

«آية الله أبو القاسم الخوئي.»

«آية الله الذي مات عام ١٩٩٢؟»

«لا أحد غيره، كان مرجعنا الأعلى لربع قرن. حينما كان الخوئي على فراش الموت، أوصى به ليقرأ عليه عند دفنه، وبعدها اختارَهُ رجال الحوزة.»

«كان لدى آية الله الخوئي أبنٌ يعيش في لندن، أليس كذلك؟»

«سيد مجيد، نعم، هرب من الطاغية عام ١٩٩١. قتل الطاغية أخاه الأكبر بسبب ذلك.»

«لم أعرف ذلك. كيف استجاب المرجع لمقتل السيد مجيد؟»

«إعتذر عن حضور صفوفه لذلك اليوم، واعتكف حزناً.»

«هل قابل السيد مجيد عند عودته إلى النجف؟»

«لا.»

«لِمَ لا؟»

«منعه أتباع سيدك. حاصروا بيت المرجع وطالبوا بعودته إلى إيران ولم يسمحوا للسيد مجيد بالدخول إليه.»

«لا اصدق ذلك!»

«انت سألت سؤالاً وأنا أجبتك.»

«آسف، لم أقصد الإساءة. ما قلته فاجأني. لم أعرف بذلك... ربما

كانوا من أتباعه المتحمسين أكثر من اللازم. أنا متأكد ان سيدنا ما كان سيوافق على ما فعلوا.»

«ربما.»

«صِفْ لي شخصيته كاستاذ؟»

«عطوف ومتسامح. لا يحب الضجيج والأبهة. كل ما يطلبه منا، نحن طلابه، هو أن نطرح أسئلة جيدة عليه.»

«هل يُملي عليكم بما تفكرون؟»

«كلا، بل يعلمنا كيف نفكر.»

«قلت انه رجل عطوف. هناك الكثير من الناس هكذا. هذا لا يعني شيئاً.»

«ربما، لكن قليلين يمتلكون تسامحه.»

«ما الذي تقصده؟»

«قبول الاختلاف. والتفكر عميقاً وبتأنٍ قبل الحكم على الآخرين.»

«بما في ذلك الكفار؟»

«بما في ذلك الكفار.»

«هل دعم الاحتلال؟»

«كلا.»

«هل عارض الاحتلال؟»

«كلا.»

«لماذا لا يعلن موقفه صراحة من القضايا العامة؟ لماذا كل هذا الصمت؟»

«لا يعتبر نفسه مؤهلاً للخوض في كافة الأمور، مفضلاً الصمت وصحبة كتبه على السياسيين.»

«ما العيب في السياسيين؟»

«ممارسة السياسة تخرب النفوس وتخرب الدين.»

«نفوس كل السياسيين، شيعتهم وسنتهم؟»

«الشيعة منهم على وجه الخصوص.»

«لماذا؟»

«لأن مسؤوليتهم أعظم.»

«أعظم؟»

«مستقبل البلد بكل طوائفه وقومياته بيدهم.»

«لكن المفروض معاناة الشيعة تأخذ الأولوية لديهم. أليس من الطبيعي تفضيل هذه المعاناة على أي إعتبار آخر؟»

«كلا. كيف يمكنك قياس المعاناة؟ الكل يعانون. على القادة الشيعة أن يكونوا أكثر استعداداً للتسامح من الآخرين. ليس لديهم خيار في الموضوع لأنه لا يوجد بديل. هذا صلب معنى المسؤولية السياسية.»

«هل تقصد انهم ليسوا متسامحين الآن.»

«أنا لست بحكم.»

«على أية حال، كم أنا سعيد باللقاء الذي حدث بين المرجع وسيدنا.»

«كان سماحته مستعداً للعمل حتى مع الشيطان من أجل انقاذ النجف.»

«هل تقول ان سيدنا هو الشيطان؟» قلت، وبدا الغضب واضحاً عليّ.

«لا سمح الله، طبعاً لا! هو سياسي.»

«لكن ما يقوم به المرجع هو سياسة أيضاً.»

«لقد نهض من سرير مرضه مضطراً.»

«اذن هو يمارس السياسة عند الاضطرار؟»

«عند الاضطرار، لكنه ليس بسياسي، ولا يمارس السياسة. لهذا السبب يحظى بحب واحترام الناس.»

* * *

قضيت شهراً بعد وقف إطلاق النار مستلقياً على سريري في بيت عمّي في حي المشراق، أراقب الحيطان الفارغة للغرفة التي شغلتها مع أمي لسنوات كثيرة. في الزاوية أرى الكرسي الكسيح والدرج الذي احتوى على رسالة أبي، التي أحملها الآن في حقيبة جلدية معلقة بعنقي. بدت الغرفة وكأنها تنتمي لزمنٍ آخر لم يعد موجوداً. كنت منشغلاً بالتفكير بما حصل، الأيام والليالي التي قضيناها في فناء الضريح وتنقلنا من معركة إلى أخرى أكثر خطورةً، ومن بعدها تراجعت منزلة حركتنا في النجف.

ما قام به ذلك الرجل العجوز لم يكن باستطاعة الأميركيين ولا الحكومة العراقية ولا البيت الشيعي. لكنه قد اعتمد على عدونا القديم لعمل ذلك، بيت الحكيم، الذي كان يسعى إلى الحلول في محلنا في النجف. كيف فعل ذلك؟ كنت أتساءل. ما هو السر الذي دفع الملايين من الناس إلى الاكتظاظ حول سيارته والسير نحو المدينة في مسيرة

سلام؟ لم يكن يقوى على المشي، لكنه على ما يبدو امتلك قوةً على صناعة المعجزات.

ثم سرحت بذكرياتي التي قادتني إلى وجوه الآلاف من الشباب المنهكين والذين جاءوا من كل حدب وصوب ليعسكروا معنا في فناء الضريح. تذكرت تململهم وهم يحاولون العثور على طريقة أفضل للنوم على الأرضية السيراميكية الصلبة. أراهم وهم يضمدون جروحهم قبل الخروج بحثاً عن الطعام. عرفنا معنى الجوع ذلك الشهر. تمر الأيام ونحن نأكل خبزاً جافاً وماءً بانتظار تهريب الطعام الطازج إلينا. وحين يأتي الطعام، يجتمع عشرة أو أكثر منّا حول صحن كبير من الرز الدافئ والخضروات الغارقة وسط الدهن الذي يراد به التعويض عن غياب اللحم. ثم تنقض الأيدي المتحمسة على الطعام من كل الجوانب بعد أن يجري مسحها بالقمصان المتربة، وتتشكل حلقات من الفتيان الذين ينتظرون دورهم للانقضاض على الطعام وفي غضون ذلك يتداولون النكت والشتائم عن السياسيين. لم يتركوا سياسياً دون أن ينالوا منه، باستثناء المرجع الكبيرالذي لم يجرؤوا على السخرية منه. بدلاً من ذلك تساءلوا متى سيقوم بإنقاذهم، وطرحوا تساؤلاتهم كما يفعل الأطفال الذين يعرفون انهم أساءوا الأدب.

كنت مستعداً للموت في النجف، فقط لأجلهم ولأجل وجوههم الخائفة ونكاتهم اللئيمة وأجسادهم القذرة. وكل واحد منهم كان مستعداً للموت في طرفة عين من أجلي. حينما كان أحدنا يتعرض إلى طلق ناري أو شظايا، كنّا نتخلى عن شدتنا القتالية ونتحول إلى ملائكة تغسل وتداوي جروح رفاقنا. نقوم بغسل من يسقط ميتاً بعناية ونلف جسده بالكفن، بكل رفق ومحبة، ثم نضجعه في تابوت خشبي بدائي بانتظار دفنه في وقت غير معلوم. كنت مسؤولاً عن تلك التوابيت البسيطة

المؤقتة، وعن صناعة سقالات خشبية تمكننا من وضعهم واحداً فوق الآخر في الحيز الضيق المتاح. كنّا بحاجة لأي حيز نستفيد منه في الضريح المقدس. أصبحت التوابيت التي وضعتها فوق بعضها تشبه نصباً يقف بلا مبالاة في الفناء، وكأنه يذكرنا بما يحدث، كقبر خشبي عملاق يتكون من توابيت نصبت فوق بعضها بعناية على بعد رمية حجر من الشباك الفضّي لقبر الإمام نفسه.

عادت الحياة الاعتيادية إلى النجف بسرعة. بات واضحاً ان المرجع هو المسيطر على الوضع. تم تنظيف الطرق والأرصفة، ونسف المباني التي لا يمكن إصلاحها. وظهرت مبانٍ جديدة في كل مكان. شعرت بأنني كنت أتغير مع تغير المدينة ـ مدينتي التي لم أعد أشعر أنها مدينتي. كل من لم يكن حاضراً في فناء الضريح خلال شهر آب الحارق، خسر مكانته بيننا وقيمته لدينا، نحن الذين التحمنا كأخوة.

كانت حركتنا لا تزال قوية في بغداد. ربما يمكنني الانتقال إلى هناك، فكرت مع نفسي، وأشارك حيدر في إيجار شقة في مدينة الصدر. إخوتي الذين قاتلوا معي في الضريح تبعثروا ولن أراهم بعد ذلك أبداً. عرفت ذلك. كانت أياماً، لحظات في الماضي ولن تتكرر أبداً. الأسوأ هو انني بمرور الوقت، عندما كان يهجرني النوم ليلاً وأصعد إلى السطح للتطلع إلى السماء المرصعة بالنجوم، محاولاً إستذكار وجوه رفاقي في حرب النجف، أحسست بوجوههم بدأت تغيب عني تدريجياً، إلى آن جاء وقت لم يعد بإمكاني حتى تذكّر أسمائهم.

ليالي الصيف في النجف التي تتبع نهارات حارة وجافة، كانت منعشة وهادئة مع نسمة هواء تهب من الفرات. كانت تلك هي أفضل الأوقات للبقاء وحدي في سطح بيت عمّي. اعتدت ان استلقي على

الفراش الذي كانت تهيئه خالتي وأراقب القمر غير المكتمل وهو محاط ببقع ضوء نابضة انتظمت في خطوط وأفلاك على مسافات شاسعة، لها معانيها في انتظامها لتشكل مجموعات الكواكب. هكذا درسنا شيخنا، مبيناً أسرارها المبهرة التي بدت لي كأسرار عقل ذلك الرجل العجوز الذي قام بمعجزة وقف القتال. علّمنا الشيخ أنا وحيدر كيف نقتفي أثر الأشكال المرسومة بين تلك الخطوط. أتذكر كيف ان مجموعة نجوم شكلت حصاناً عربياً، كما قال شيخنا، حيث اجتمعت خصائص الشجاعة وصفاء النية والنبل التي شاهدتها بين رفاقي في النجف.

احتجت إلى الوحدة كي أفكر بهذه الأمور. كان حيدر يقطع وحدتي بين الحين والآخر، لكنه انشغل بمهمات أشرف عليها عمّي، مثل إعادة تجهيز جيشنا والعثور على مواقع سرية جديدة لخزن الاسلحة والعتاد، والاستعداد لمعارك مستقبلية. أمّا انا، فقد كان عقلي في مكان آخر.

أدت الهزيمة الأخيرة إلى تقسيمنا، حيث تزعم عمّي مجموعة ذات ميول عراقية تدعو إلى مزيد من التعاون مع السنة، بينما راح قادة آخرون يطالبون بتشييع حركتنا أكثر وبتعاونٍ أكبر مع إيران. امتنع سيدنا عن الإجابة على أسئلة صعبة من هذا النوع. أخذ بالانسحاب من أجل شراء الوقت قبل أن يتخذ موقفاً من هذه الانقسامات.

امّا بالنسبة للمرجع، ذلك الرجل العجوز الذي قلب السحر على الساحر، فانه لم يكن معنياً، وربما ذلك ما استشفيته وأنا مستلقٍ على ظهري أحدِق في النجوم. ثم تذكرت رفاقي في الضريح الذين استغاثوا به حين اشتدت حدة المعارك. استغاثوا به، بمرجعنا لا بسيدنا! ما الذي يعنيه ذلك؟

أيّ شيعيّ كان هذا الرجل؟ تساءلت مع نفسي. لا بد هو التجسيد

النقي لكلمة الشيعة، محتضناً كل تقاليدنا على اختلافها في وحدة شخصه. لماذا لم يلوح بشيعيته كما يفعل أعضاء عصابة الثلاثة عشر، أو حتى بعض أعضاء جيشنا، جيش الإمام، وخاصةً في الآونة الأخيرة؟

أتذكر عندما أشار عمّي مرةً ان عصابة الثلاثة عشر يرتدون هويتهم الشيعية الجديدة كسترة ليست على مقاسهم، وعلى العكس كان المرجع يرتدي شيعيته وكأنها جلده، بدون تصنع. شيعيته كانت أمراً محسوماً لا تحتاج إلى التفكير، ولا يُذكر نفسه بها في كل يوم كما يفعل بقية شيعة العراق منذ سقوط الطاغية. كنا جميعاً نتحدث عن معنى كوننا شيعة. أننضم إلى هذا البيت، أو ذاك؟ أيهما لديه تفسير أفضل للجمهورية الإسلامية؟ هل عودة الإمام وشيكة أم لا؟ هل علينا أن نكون شيعة أولاً؛ ومن ثم عراقيين؟ أم العكس؟ هل الصلاة في مسجد سني مسموح، أم لا؟ شغلتنا هذه الأسئلة، لكنها لم تشغله أبداً. كلا! الرجل العجوز لم تكن لديه مشكلة في أن يكون مجسداً للتشيع وفي نفس الوقت أن يصلي في مسجد سني. ولد في إيران ولكن ولاءه للنجف، رجل دين منعزل، أجبر على ان يخرج من عزلته، ليس وطنياً عراقياً ولا هو وطني إيراني، رجل يمقت الظهور علناً أمام الناس، لكن الناس يعشقونه. أحبّ العراق وإيران وربما أماكن أخرى كثيرة، كمن يحب الطيور والورود والأشجار بنفس القدر. هناك اختلافات، أتخيله يقول، لكن لا وجود لناس بمنزلة اعلى من غيرهم. هناك ولاءات عديدة لكن ليست هناك ضرورة لكي تتنافس فيما بينها أو أن تسبق الأولوية الواحدة الأخرى. ودائماً وأبداً يبقى ولاؤه للمدينة المقدسة هو الأسمى.

مستلقياً مساءً تحت قبة السماء، شعرت بالحسد تجاه رجل يمكنه أن يعرف نفسه بهذا القدر، وأن يكون معروفاً من الآخرين في كل هذه الخصال. رجل لا تتقاطع ولاءاته، لأنه لا يجد تناقضاً بين نفسه وباقي

العالم على الرغم من اختلافاتها. كل ما كان يريده هو ان يُترك وحيداً مع كتبه. تساءلت، لماذا؟ لعله بذلك يغور في أعماق نفسه ليعرفها أكثر فأكثر. هل من الممكن أن نكون مثله؟ أم ان لا مثيل له؟

تساءلت أخيراً ما إذا كان هذا الرجل الفذ يشبه أبي. هل هو مثل أبي، فاضَ بداخله حُبّ الذات ليشمل كل البشر في البلدان والأقاليم في العالم، وحتى الكفار منهم؟ هل يقدم لهم جميعاً الحب بدلاً من الكره؟ قال عمّي انه من الضروري أن نكره الأجنبي. لا أتخيل أن باستطاعة هذا الرجل أن يكره أحداً. لكنني أيضاً لا أتخيله متفقاً مع أبي. ما الذي يعنيه كل ذلك عن ماهيته كرجل، وكشيعيّ؟ في ذاك الشهر الذي قضيته في النجف، توصلت في النهاية إلى أن لغز هذا الرجل سيبقى دائماً لغزاً، محيراً، وهذه الحيرة هي في طبيعته ولا يمكن حَلِها، وحتى يصعب إدراكها... كما يصعب إدراك معنى الكم الهائل من النجوم والمجرات التي أذهلتني وأنا أحدِقُ فيها من على سطح بيت عمّي.

٢٠٠٥

خيانة

ظلّت قصة سيد مجيد تطاردني. مَن هذا الشخص المجهول الذي شكل مجيئه تهديداً؟ ولِمَن؟ لماذا يسعى عميل للمحتل وابنٌ لآية الله إلى محاولة اللقاء بأحد طلبة والده، المرجع الحالي؟ لم يعد بمستطاعي التسليم بالأمور كما يريد مني الآخرون ـ عمّي، سيدنا، مجلس الحكم، المحتل، وعصابة الثلاثة عشر. لابد أن هناك شيئاً اعمقَ من كل ما قيل عنه لحد الآن لأقتنع بما حصل. ورغم انني لم اصدق بالمزاعم القائلة أنّ لسيدنا علاقة بموته، فقد شعرت بانّ من واجبي أن أعرف التفاصيل الحقيقية لما حدث في ذلك اليوم من العاشر من نيسان سنة ٢٠٠٣.

ماذا كان هناك في الملف المزعوم الذي قام القاضي بجمعه ضد سيدنا؟ ومن هو هذا القاضي الذي بدأ يأخذ إفادات الشهود مباشرةً بعد الحادث، قبل دخول قوات أجنبية للمدينة؟ هل يجب أن تقلق حركتنا من هذا الملف؟ قد يُقدم أحد الساسة المنافقين على تسريبه من أجل النيل من حركتنا في الانتخابات المقبلة ـ والتي وافق سيدنا بعد تردُدٍ على المشاركة فيها بعد وقف القتال في النجف ـ علماً إن مذكرة الاعتقال قد تم تعليقها وليس إلغاؤها.

هل يمكن أن يكون شخص واحد هو المسؤول عن طعن القتيل بشكل هستيري مئات المرات؟ أم ان القتلة كانوا عشرات الأشخاص، ربما مائة شخص، كل منهم يتصرف بإرادته؟ على الأرجح كانوا

مجموعة من المتواطئين، كل واحدٍ منهم طعن جسد القتيل عدة مرات. بدا واضحاً لي انه كان هناك مجموعة من الأشخاص تنوي تنفيذ عملية القتل. هل عرف القتلة هوية القتيل؟ هل كانت هناك نية مسبقة لقتل ابن آية الله؟ لو حصلت عملية القتل ليلاً وفي زقاق خلفي عند زاوية معتمة حقيرة من المدينة لما شككت بأحد. ولكن سيد مجيد هوجم للمرة الأولى في الضريح حين كان يتحدث لحشد يبلغ المئات من الأشخاص. يقول البعض انه تحدث لثلاثين دقيقة قبل ان يتحول حشد المستمعين إلى غوغاء غاضبين. كيف يمكن لأي شخص أن ينصت لمدة نصف ساعة إلى خطاب بدون أن يسأل جاره عن هوية المتحدث؟

من المؤكد أنهم كانوا يعرفون من هو.

•••

لا أحد من عصابة الثلاثة عشر شعر بتأنيب الضمير لإسهامه بالتغطية على جريمة قتل راح ضحيتها رجلٌ كان صديقاً له. لقد عملوا مع هذا الرجل عن قرب في لندن خلال سنوات وجودهم في المعارضة. عرفوا عائلته وحلّوا ضيوفاً في بيته. قبّلوا كفّه لاظهار الاحترام لوالده، آية الله الكبير، سيد أبو القاسم الخوئي، أهم عالم شيعي معاصر. لم يكن السيد مجيد رجلاً عادياً بل كان شخصيةً بارزة في الطائفة الشيعية. ألم يدّعِ أصدقاؤه في مجلس الحكم ان هدفهم الدفاع عن مصالح الشيعة؟ أليس هذا هو الهدف الأساسي من وجود عصابة الثلاثة عشر أو البيت الشيعي؟ ألم يحاول أحدٌ منهم خلال كل الاجتماعات التي عقدوها لكتابة الرسالة السرية المخصصة للتغطية على قتله تذكر تلك الأيام في لندن؟ ألم يسأل نفسه: «من قتل صديقي ورفيقي الذي كنا نجتمع في

بينه ونناقش قضايا كبيرة مثل سقوط الطاغية وما يجب عمله بعد سقوطه؟»

هل تتفق عصابة الثلاثة عشر مع عمّي أن صديقهم كان متعاوناً مع المحتل؟ ألهذا السبب كانوا مستعدين للتغطية على مقتله؟ لكن ان كان قد تعاون مع المحتل خلال وجوده في معارضة المنفى، وهو قد فعل ذلك بالتأكيد، فانّهم أيضاً فعلوا الشيء نفسه. لقد فعلوا ما هو أكثر من ذلك بآلاف المرات، وتلقوا ثمناً كبيراً لما فعلوا بدون شك.

من المؤكد أن عصابة الثلاثة عشر قامت بخيانة صديقها ورفيقها في المنفى سواء كان عميلاً أم لا.

بدا لي في حينها، كما يبدو لي الآن، بأنها لم تكن قضية طائفة تخون أخرى، أو سياسياً يخون طمعاً في السلطة، وإنما كانت أقبح نوع من أنواع الخيانة: الخيانة التي تحصل في داخل العائلة الواحدة، بين رجالٍ ينتمون إلى الطائفة نفسها، مؤمنين بأنّ طائفتهم قد ظُلِمت ومن حقها أن تصل إلى السلطة، رجال عملوا لعقود من أجل إسقاط الطاغية... وفي يوم سقوطه، يبدأون بطعن أحدهم الآخر من الظهر! إذا كان أولئك الذين سيصبحون قادتنا الشيعة الجدد لا يترددون عن خيانة شخصية بارزة من بينهم، فماذا عنا نحن عامة الشيعة، ناهيك عن غير الشيعة، من هو الذي لن يكونوا مستعدين لخيانته؟

•••

أفهم أن يخون أحدهم بلده من أجل طائفته، أن يقاتل إلى جانب جماعته حتى وهو يدرك أنها تقترف خطأً، فهو يقاتل لأنه واحد منهم ويشعر بانّ عليه أن يكون مع جماعته أيّاً كانت الظروف. عدم الوقوف

مع جماعتكَ أمرٌ غير وارد؛ هناك حتى نوع من الشرف في ذلك. عندها يكون الشخص الوحيد الذي تمت خيانته، هو أنت، مبادئك وقناعاتك وطموحاتك. أفهم ذلك، ولكنني لا أفهم كيف يخون الفرد جماعته. هكذا كانت خيانة قابيل لهابيل. خيانةٌ كهذه لا يمكن مغفرتها.

هل كانت عصابة الثلاثة عشر تشعر بالغيرة من السيد مجيد؟ طُعِنَ في يوم سقوط الطاغية. ما معنى ذلك؟ كما وطُعِنَ في أقدسِ بقعة في أقدسِ مدينةٍ للشيعة في العالم. هل لهذا معنىً كذلك؟ ألم يهمهم انه طلب نجدة أصدقائه يوم مقتله؟

من المؤكد لا أحد منهم كان مهتما بمعرفة من هو القاتل. لم تشأ عصابة الثلاثة عشر أن تتحدث عن الموضوع. بل انّهم لم يريدوا ان يعرف أحد في العالم الخارجي حتى عن حصول عملية قتل. أكثرهم علمانيةً كانت لديه خطط، كما أخبرني عمّي، لاستخدام حركتنا من أجل تقسيم المعسكر الإسلامي، ليس فقط على أساس طائفي، بل وأيضاً داخل الطائفة الشيعية نفسها. أرادوا أن يجلبوا بيت الصدر إلى مجلس الحكم من أجل إضعاف بيت الحكيم وحزب الدعوة، حزب رئيس الوزراء. قالوا للمحتل انّ كل مشاكله ستختفي حالما يدخل سيدنا إلى خيمتهم، بدلاً من تركه يخربها من الخارج.

وجدت نفسي تدريجياً أنقلب على ذات الأشخاص الذين كنت في السابق معجباً بأفكارهم: أفكار مثل مظلوميتنا الشيعية التي لا مثيل لها تحت حكم صدام، وحول الدولة الطائفية السنية الأزلية التي حكمت العراق، وحقنا الإلهي كشيعة في السلطة وأخذها من السنة سواء بالمكر أم بالقوة، ثم بعد ذلك تلطيخ وجوههم بالتراب دون الأخذ بنظر الاعتبار مقولة أئمتنا، «ان العين بالعين ستجعل العالم كله أعمى.»

هؤلاء العراقيون الأجانب لم يفهمونا. كل ما كان يفهمونه هو ان لا يحترق بيت القش الذي تعبوا في إنشائه وبنائه، بسبب قضية تافهة بالنسبة لهم: مقتل السيد مجيد.

أمّا عمّي، فبالرغم من أنه بدا لي كأبي الهول، يصعب التوغل في داخله وقراءة ما يفكر به، فقد أصبحت علاقتنا أوثق في الأشهر التي تلت. لكنني لم أعذ أشاركه بما أُفكِرُ به كما كنت سابقاً. تعلّمتُ الحذر، وأدركتُ ان مسألة قتل السيد مجيد تنطوي على مخاطِر ومُنزلقات بدأت بالكاد أميّزها.

شعرتُ بالوحشة، وحدي أتصارعُ مع قضيةِ قتل عمرها عامان، فراغٌ حتى صديقي حيدر لم يستطع أن يملأه تلك الأيام.

• • •

الخيانة لا يستهان بها. انّها كالسحابة السوداء تخيم شكاً وعدم ثقة داخل النفوس. ولهذا السبب أبقت عصابة الثلاثة عشر على الرسالة التي وقعوها سراً، الرسالة التي أقرّوا بها تغطية وغسل أيديهم من مسؤولية إراقة دم صديقهم. وأتفقوا أن لا يدعوا أحداً خارج حلقتهم، ولا حتى أصدقاءهم الأميركيين، تقع يده عليها. فتحوا الرسالة ورفعوها عالياً كي يقرأها المستشار السياسي الأمريكي الذي كان يجتمع معهم ومن ثم يخبر رؤساءه بمضمونها دون أن يزودوه بنسخةٍ منها. بعد ذلك قام كل عضو في عصابة الثلاثة عشر بإخفاء نسخته منها في مكان آمن كي يستخدمها لاحقاً ضد بقية أعضاء العصابة في حال تعرض هو أيضاً للخيانة مستقبلاً.

أصبحت تلك الرسالة وصمة عار عليهم، كما أصبح حبل الطاغية يوم الشنق وصمة عار عليّ.

«تعليق» مذكرة الاعتقال خُطِطَت لحفظ ماء وجه المحتل الذي كان يبحث عن مخرج من المأزق الذي وضعناه فيه باحتلالنا للضريح المقدس. فضلاً عن أن الثلاثة عشر لم تكن لديهم نيةٌ في إعادة فتح التحقيق في جريمة القتل عند وصولهم إلى السلطة، وقد تلقى عمّي تطمينات بذلك. ولكنه لم يكتف بتطميناتهم، بل تبعه بوعدٍ من كل واحد منهم على انفراد. كلهم، واحداً بعد الآخر، وعدوا بغلق الموضوع بالكامل وإتلاف الملف الذي أعدّه القاضي حال استلامهم السلطة، بطريقة قانونية طبعاً وعبر انتخابات حرة ونزيهة. كما أكدوا لعمّي انهم لا يستطيعون إلغاء الموضوع تماماً الآن ما دامت السلطة بيد المحتل.

في نيسان ٢٠٠٥ وبعد أن تولت السلطة حكومة شيعية، الأولى من نوعها في تاريخ البلاد، بل الأولى في التاريخ العربي بأكمله، إختفى ملف التحقيق الأصلي حول مقتل السيد مجيد. وتم إطلاق سراح اثنين من أتباع سيدنا الذين إعترفوا، والذين تمت إدانتهم بالجريمة حسب الملف الأصلي. ثم استُبدل الملف الأصلي بآخر جديد يستند على شهود جدد جاءوا بهم، بينما اختفى الشهود السابقون أو ربما غادروا البلد، أو حدث لهم ما هو أسوأ من ذلك.

لم يصدق أحد بمحتويات الملف الجديد، بما في ذلك رئيس الوزراء الجديد الذي أمر باختلاقه ـ وهو المعروف بكلماته الفارغة وخطبه الطويلة المملة. أنا لم اصدق بمحتويات الملف الجديد، ولا للحظةٍ واحدة. لا أحدَ صدّق بمحتوياته، لو افترضنا أنهم كانوا عارفين بوجوده في الأساس، حيث إن الحكومة حاولت أن تخفي حقيقة وجوده. أي ملف تحقيقي هذا الذي يقول فيه جميع الشهود «لم أر شيئاً» أو «لا أتذكر» أو «لم أكن هناك». كان الملف الجديد خالياً من

التفاصيل، أو حتى أيّ معلومة محددة. ظهر أن كل شيء إتسم بالغموض. علِم الجميع انه كان زائفاً. لكن الآن، وبوجود الملف الزائف، بات بالإمكان إغلاق القضية بأكملها، والتغطية على من تورطوا.

لا أحد مسؤولٌ عن حادثِ القتل في ملف التحقيق الجديد. قُتل السيد مجيد على مرأى مئات الناس لكنّ لم يتم تحميل أحدَ مسؤولية قتله. ولأنّه لا وجود للمسؤولية، فإذن لا وجود للمحاسبة. لقد قام الثلاثة عشر بقلب كل شيء رأساً على عقب: فلأنّه لم يكن من مصلحتهم أن يحاسبوا أحداً، تقرر أنه لا وجود لمن يمكن محاسبته. كانت جريمة قتل بدون قاتل!

الملف الجديد خطّى خطوةً أخرى، حيث أنه لامَ السيد مجيد نفسه بحادثِ قتله! فقد نصّ الملف ان السيد مجيد حرّضَ الجمهور بخطابٍ غير مناسب في صحن الضريح. اضطربَ الحاضرون، كونهم فقراء وبسطاء ويخافون الله، وكونهم قد جاءوا فقط للبكاء والصلاة على الإمام. احتدّت الأمور ـ كما ورد في الملف الجديد ـ وقفزَ الحشد على السيد غاضبين من كلماته وبسبب العبارات النارية التي أطلقها مرافقو السيد عليهم من دون سبب ـ كما ورد في الملف الجديد ـ ومن ثم خرجت السكاكين التي لم يحركها أحد وإنما حركت نفسها، بدأت تنزلق داخل جسم السيد ثم تخرج، ثم تدخل وتخرج ثانيةً، من الخلف ومن الآمام ومن كل الجوانب... كلّ هذا بسبب سوء اختيار السيد لكلماته حين خطَبَ بالحاضرين في صحن الضريح تلك الظهيرة.

بعد صدور الملف الجديد، انقلبت الحكومة المنتخبة على القاضي المسكين الذي كان سبب المشكلة بالأساس، لأنه، حسب إدعائهم، فتح

ملف التحقيق الأولي من دون أن تكون له سلطة للقيام بذلك، إلا ان كانت سلطة الطاغية المخلوع، وبذلك يجب الشكِ في نواياه وميوله السياسية.

شنّوا حملةً ضده على أساس انه لم يكن مخولاً للنظر في القضية واستخدموا نفوذهم لطرده من وظيفته عبر اجراءات لجنة اجتثاث البعث ولجنة النزاهة، متهمينه بعدم الكفاءة. كانت اللجنتان خاضعتين لسيطرة أصدقاء السيد مجيد في عصابة الثلاثة عشر. وأي أصدقاء! ادعت اللجتان ان القاضي هو بعثي سابق، ربما كان يعمل لصالح الطاغية حتى وإن كان الطاغية هارباً ومختبئاً من قوات المحتل. وظلّوا يلاحقون القاضي أينما كان، حتى تدّخل الكرد وأوقفوا ذلك.

«توقفوا! هذا الرجل تحت حمايتي!» قال رئيس الجمهورية الكردي، أو بكلماتٍ أخرى مشابهة. حينها فقط توقف رئيس الوزراء الجديد، على الأقل ظاهرياً، عن محاولة النيل من القاضي.

مع هذا نجحوا بإعادة كتابة رواية رسمية للأحداث. كان علينا أن ننسى مقتل السيد مجيد بينما علينا أن لا ننسى الأعمال الوحشية التي قام بها الطاغية. تبرأ عصابة الثلاثة عشر من أية مسؤولية. الطاغية والقاضي وحدهما يتحملان المسؤولية، حتى في استحالة كونهما مسؤولين. «لننسى الماضي»، قالوا، عندما يتعلق الأمر بهم، ولكن «يستحيل نسيان ظلم وجرائم الطاغية» ـ هكذا بدأت أول حكومة منتخبة يقودها الشيعة في تاريخ العرب الحديث، بكذبة كبيرة.

• • •

الخيانة كالكفر، كلمة قبيحة. التخلي هو الحدث الأساسي التي تنطلقُ منه كل أنواع الخيانات. نكره ونعاقب المهرطق أو المرتد لكننا نتسامح

مع الذي لا يؤمن. لماذا؟ لأن المهرطق تخلى عن الله بعد أن آمن به، أمّا غير المؤمن فلم يتخلّ عن شيء لأنه لم يؤمن أصلاً. فعلاقته بالمجموعة ينظمها حلف اليمين أو وعده بالولاء. وبالتالي ليس هناك أي نوع من التخلي في العلاقة بين المؤمن وغير المؤمن. لكن التخلي هو صلب الموضوع في حالة المهرطق أو الخائن للأمة: كلاهما قبل ومن ثم تخلّى عن الجماعة. نعاقبهما بشدة لأنهما نموذجان ساطعان للخيانة، هما فرسان الخيانة لو صح التعبير.

دفاعاً عن عصابة الثلاثة عشر، هناك من سيقول انهم أُضطروا للخيانة، ضد إرادتهم، لقضية أسمى هي قضية الطائفة التي ينتمون إليها. اضطروا ان يضحوا بالعدالة لصديقهم السيد مجيد، حفاظاً على أرواح الآلاف في مدينة النجف في حرب آب ٢٠٠٤، ناهيك عن أرواح الملايين في عموم البلاد لو كان القتل العشوائي على يد المحتل قد وصل إلى داخل صحن الضريح في المدينة المقدسة. في نهاية المطاف، ألم يكن السيد مجيد مجرد رجلٍ واحد، بينما مسؤوليتهم هي انقاذ الملايين؟ ما يعتبره أعداؤهم، بل وحتى المواطن العادي، خيانةً، يعتبرونه ولاءً لطائفتهم. أنقذوا الشيعة على حساب السيد مجيد. خانوه، نعم، لكن أهدافهم كانت سامية. كيف أجد تفسيراً آخر لما حدثَ؟ هل يمكن الجمع بين الإثنين: الخيانة والولاء المطلق؟ لا أعلم.

في عالم الطاغية، كل شخص كان لابد ان يخون شخصاً آخر في فترةٍ أو أخرى. في ذلك العالم، خيانة الأصدقاء أو الجيران أو أشخاص آخرين من طائفتك شيئاً طبيعياً. هل كانت عصابة الثلاثة عشر تتبع قواعد ذلك العالم، عالم الطاغية، حتى بعد اختفائه؟ هل بقوا حبيسوا ذلك العالم، وليس العراق الجديد الذي يدّعون أنهم جاءوا لبنائه؟

أريد أن أصدق، بل أنا بحاجة لتصديق أنّ عصابة الثلاثة عشر هم

أشخاص شرفاء. أريد أن آخذهم على محمل الجد. لقد تم إنقاذ أرواح الكثير في النجف، بمن فيهم أنا وحيدر، عندما توقف القتال. ربما الرسالة التي وقعوها سراً، والتي بتوقيعها خانوا صديقهم الذي على أية حال كان قد مات، كانت ثمناً بسيطاً يمكن دفعه لقاء حفظ حياة عشرات الآلاف من إخواني الشيعة.

لنفترض صحّة هذا التصوّر. لكن يبقى عليّ أن أسأل: كم شخصاً يجب أن نحافظ على حياته لتبرير التضحية برجلٍ واحدٍ؟ ولمن نحن، أنا وحيدر، مدينان في نهاية المطاف بإنقاذ حياتنا في النجف صيف ٢٠٠٤؟ إلى الثلاثة عشر، أم إلى آية الله العجوز الذي نهض من سرير المرض ليقوم بشيء لم يكن يريد أصلاً القيام به، والذي كان يعرف ان ما فُرِضَ عليه هو أصلاً خاطئ، لكنه كان مُلزماً أمام الله وضميره على القيام به؟

قتل حميم

في تلك الجمعة القارصة البرد من شتاء ٢٠٠٥، زارني حيدر في بيتي مرعوباً وبحالة يرثى لها. تكلم بجملٍ متقطعة ومشتتة يصعب فهمها.

«يجب أن أتحدث إليك... صديقي العزيز... أحتاج إليك... أحتاجك الآن... هناك أشياء فضيعة تحصل»، قال بصوت حاد وهيستيري. «فضيع... فضيعٌ أكثر مما تتصور، صدقني! أعرفُ أنك لن تصدقني. انهم يقتلون رجالاً جيدين... تعال معي. يجب أن تقابله.»

«هوّن على نفسك صديقي. لا أفهم كلمة مما تقول. استعذ بالشيطان وقلّ لي عن ماذا تتحدث؟»

«انّهم يقتلون طياري وضباط القوة الجوية العراقية! يغتالونهم سراً في وسط الظلام»، قال وصوته يقترب من الصراخ. «انه أمرٌ فظيع! يجب أن نفعل شيئاً.»

«اهدأ. خذ نفساً عميقاً. من هم الذين تتحدث عنهم؟»

«إيرانيون، عملاء سريون وسطنا...»

«مازلت لا أفهمك. من هو الشخص الي تريدني أن ألتقيه؟»

«أسمه عباس، هو ينتظرنا في المقهى. تعال... تعال... لنذهب الآن. لقد وعدته انّك ستأتي. هو طلب أن يقابلك أنت... تحديداً. أريدك أن تشهد ما سيقوله.»

في طريقنا إلى المقهى حاولت أن أخفف من قلق حيدر بإسماعه ما اعتقدت أنه نكتة. «لماذا تحتاج طائرات ميغ ٢٥ المدفونة في الرمال إلى طيارين وضباط؟» قلت مع ضحكة خفيفة، مذكراً اياه بأننا شاهدنا الأمريكيين يخرجون الطائرات العراقية التي دفنها الطاغية في الصحراء خارج النجف قبل أقل من عامين. «أشك بوجود طيارين يرغب العملاء الإيرانيون باغتيالهم.»

لكنه كان جاداً في كلامه: «أنا أحدثك عن طيارين وضباط القوة الجوية السابقين... قلت سابقين وليسوا حاليين. انهم يلتقطونهم الواحد بعد الآخر.»

«لكن لماذا؟»

«لتصفية الحساب... أو لتجريد هذا البلد من مواهبه... كيف يمكنني أن أعرف السبب؟»

«هذا جنون! هؤلاء الأشخاص، إن وجدوا، فأعمارهم متقدمة اليوم ولا أظن أن بمقدورهم ممارسة الطيران، كما إننا لا نمتلك شيئاً يطيرون به.»

لكنّ صديقي لم يكن يصغي اليّ. وكأن عالمه كان يتداعى ولم يعد هناك شيء يمكنني فعله لتخفيف شعور المرارة في داخله. حالما دخل وقف إطلاق النار في النجف حيز التنفيذ، انهارت علاقته مع أبيه تماماً، وهي ساءت خلال القتال لأن الاثنين كانا يقفان على طرفي نقيض. بالغ حيدر في رد فعله تجاه ما فعله أبوه حينما تخلى عن عائلته في النجف من أجل عائلة أخرى في طهران. تحولت بهجته بعودة والده وشعوره بالفخر بما حققه في المنفى إلى غضب بسبب ما اعتبره خديعة من الأب. لم يتأثر حيدر بعدم إخلاص أبيه لأمّه بقدر تأثره بعدم صدق أبيه

معه، وشعوره بالخجل أمام أصدقائه. رُسِمت الخطوط الحمراء داخل العائلة، مثلما رُسِمت داخل المدينة. امتدت الكراهية من الأم، إلى العائلة، إلى المدينة، كتموجات على سطح بحيرة، لتصل إلى الطائفة والبلد والأمة.

بالنسبة لحيدر، فإنّ والده بات خائناً لفكرة العراق، كما لأهله الشيعة. سمعته يقول ان خيانة أبيه، ان صحّ وصفها بالخيانة، هي أيضاً خيانة لأهل البيت عليهم السلام. وكلما حاول أبو حيدر أن يدافع عن نفسه، عن حقه الذي منحه الله في الزواج بأكثر من امرأة، كلما تنامى شعور أبنه غير المعقول بالخيانة.

أهم مصدر للنزاع في داخل البيت كان مساعداً في العشرينيات من عمره، أسمه نجم الدين، جاء مع أبو حيدر من إيران. اتسمت لهجة نجم الدين بلكنة فارسية قوية وبطرق تعبير لم نعتد على استخدامها ولكنه كان يدعي أصوله العربية من كربلاء. بالطبع حاول حيدر ان يتحرى عن هذا الشاب، لكن لم يتمكن أحد ممن سألهم حيدر من معرفة أصله، مما جعل حيدر متيقناً بأن نجم الدين كذاب. الأكثر من ذلك، ان نجم الدين نام في غرفة أقرب على أبو حيدر من غرفة أبنه، رغم ان غرفة حيدر كانت أجمل، وهي حقيقة حاولت مراراً مواساة حيدر بها. لكن الشيء الغريب فعلاً، الذي أثار قلق حيدر وأمه، هو اختفاء نجم الدين المتكرر لعدة أيام.

لم يعرف أحدٌ السبب وراء ظهور نجم الدين واختفائه المفاجئ، أو ما هي طبيعة وظيفته. كان أبو حيدر يسميه «مساعداً»، والذي تم تعيينه بسبب أهمية العمل الذي يقوم به أبو حيدر في مكتب النجف التابع لبيت الحكيم. وكثيراً ما كان نجم الدين وأبو حيدر يغلقان الباب عليهما

ويتحدثان لوقت طويل بالفارسية التي لم يكن حيدر وأمه يعرفانها. في العادة كان نجم الدين يختفي بعد هذا النوع من الاجتماعات.

* * *

عند وصولنا إلى المقهى، أشار حيدر إلى ركن بعيد في المقهى حيث كان هناك رجل جالس وظهره للحائط متظاهراً بقراءة جريدة.

عباس، كان رجلاً في منتصف الأربعينيات، ممتلىء البنية بشعر قصير حليق وشارب خفيف. يرتدي بنطلوناً وقميصاً أبيضَ، يدل على إنتمائه للطبقة المتوسطة المتعلمة. وكان على الطاولة التي أمامه قدحٌ من الشاي لم يرتشف منه شيئاً. تبادلنا التحية. طلبت شاياً، بينما كان حيدر مضطرباً لدرجة أنه لم يقوَ على شرب شيء: «أخبره بما أخبرتني»، قال متحمساً، «قُل له، أخبره»، وكانت الكلمات تخرج بسرعة من فمه.

«أريد أن أنضم إلى جيش السيد وأن أخدم حركته»، قال لي عباس بصوت هادئ وبتركيز، وقد وعى فجأةً ان حيدر ليس الشخص المناسب لتبني قضيته. «أتمنى أن تشهد لي عند عمّك. لدي مهارات فنية ويمكنني أن أخدم كثيراً. قيل لي أنك الشخص الذي يجب أن أتحدث إليه.»

«بكل احترام، أخي عباس، أنا بالكاد أعرفك. ما هي المهارات التي تتحدث عنها؟»

«خدمت في القوة الجوية العراقية في الثمانينيات، وقمت بعمليات إنقاذ وطوارئ على الخطوط الأمامية. يمكنني إصلاح أي عطل يصيب محركات المركبات العسكرية، واستحداث بدائل لها عندما لا تتوفر الأدوات الاحتياطية.»

«نعم، نعم، نعم»، قاطعه حيدر، «لكن أخبره لماذا تريد الانضمام إلى حركتنا. ذلك هو الأمر المهم الآن.»

نظرت مباشرة إلى عباس وقد علا وجهي تعبير يوحي بتساؤل مشابه لما قاله حيدر.

«أحتاج إلى الحماية»، قال وهو يبادلني النظر.

«ممّن؟»

«لست في وضع يسمح باتهام أحَد. كل ما أعرفه هو ان أصدقاء وزملاء لي ممن خدمت معهم خلال الحرب الكبرى مع إيران، تم العثور عليهم في الأزقة مقتولين جميعهم برصاصة في رأسهم، وغالباً في عتمة الليل. عمليات القتل يقوم بها محترفون، لا وجود لشهود أو علامات تعذيب أو انتقام من أي نوع على الجثث. كل الأدلة على القتلة تتم ازالتها، وغالباً ما يجري إخفاء الجثة وتغطيتها بالازبال لتأخير اكتشافها وتعقيد عملية التوصل إلى هوية الجثة ومن قام بالاغتيال.»

«محترفون!... هل سمعت ذلك صديقي... قال محترفون»، قال حيدر بعصبية. «إنه عمل منظم لا يستطيع القيام به إلا مخابرات حكومية... من يمكنه عمل ذلك سوى الحرس الثوري الإيراني؟ لا يمكن لمسلح عراقي أن يقوم بذلك بمفرده.»

«ولكن لماذا يريد الحرس الثوري الإيراني ان ينغمس بمثل هذا النوع من القتل الخالي من المعنى؟» سألتهُ، ثم اتجهت بنظري نحو عباس:

«ما الذي تعتقده؟»

«ليس لدي تفسير واضح، لكن عملية القتل تتكرر بنفس الطريقة وكأنها جزء من عمل منظم. انهم يستهدفون الضباط السابقين في القوة الجوية. لقد شكلنا في ما بيننا نحن ضباط القوة الجوية، شبكة من

الضباط المتقاعدين كي نعلم أحدنا الآخر بما يحصل ونوفر الحماية ان سمحت الظروف. كذلك قمنا بالتحقيق بعد كل عملية قتل، لمعرفة كيف تتشابه العمليات. واستنتجنا أن من يقوم بالقتل لديه طريقة خاصة في العمل. إذا لم يكن الدافع جزءاً من أجندة سياسية، فإنّ دافعه المحتمل الآخر هو الانتقام.»

أعجبتني طريقته بالتفكير المنهجي. «أكمل»، قلت له.

«عدا ذلك، فليس عندي سوى التخمين. ذكريات الحرب الكبرى تركت أثراً عميقاً هنا كما في إيران. لقد خسروا ثلاثة رجال، غالبيتهم لم يصلوا سن البلوغ، مقابل كل رجل فقدناه. سقط منهم ضحايا بالملايين. ست عشرة سنة مضت على تلك الحرب وهي لا تكفي لتضميد الجراح التي خلفتها ثماني سنوات من سفك الدماء. لكنني لا أعرف إن كانت عمليات القتل منظمة من قبل مخابرات دولة أو من التنظيمات غير الحكومية للعسكريين الإيرانيين المتقاعدين. ليس لدي أي تفسير لدوافعهم غير الانتقام. السيد وحركته وطنيون ومحبون لفكرة العراق، لذلك جئت إليكم.»

«هل تستهدف عمليات القتل الغامضة تلك الضباط الشيعة والسنة على حدٍّ سواء؟»

«نعم، لايوجد تمييز. اثنان من الضباط الذين تم قتلهم، أحدهما طيار والآخر يعمل في الصيانة، كانا صديقين مقربين لي، وهما شيعيان من مدينة الكوت التي ولدت فيها. من يقوم بهذه العمليات يكره كل ما هو عراقي ولا يعير اهتماما للطائفة أو القومية التي ينتمي إليها الضحايا.»

«لكن لماذا يستهدفون الطيارين وضباط القوة الجوية فقط؟ لماذا لا يستهدفون ضباط الصنوف الآخرى؟»

«ربما يفعلون ذلك. كل ما أعرفه هو أن أصدقائي ورفاقي في القوة الجوية مستهدفون بالقتل. لا أعرف الكثير بخصوص قطاعات الجيش الأخرى.»

أخبرت عباس انني سوف أتحدث إلى عمّي، وانني وحيدر سندعم انضمامه لحركتنا. تصافحنا وافترقنا. أبدى عمّي اهتماماً غير اعتيادي بالقضية، والتقى بعدها مع عباس على انفراد، والذي أصبح فعلاً عضواً في جيشنا خلال أسبوع واحد. ثم أرسل عمّي رسالة شفهية إلى بيت الحكيم الذي كان الأقرب إلى إيران في تلك الأيام، فحواها ان عباس صار تحت حماية بيت الصدر، وان حصل أي أذى له، فإنّ ذلك اعتداء علينا وسنعرف كيف نردّ عليه.

• • •

لكنّ حيدر لم يترك الموضوع. فبعد أسابيع قليلة من تأمين سلامة عباس، جاءني مجدداً. التقينا في ذات المقهى. لم يعد يذهب إلى بيته كثيراً، الأمر الذي سبب لأمه حزناً شديداً. استأجر غرفة في أحد البيوت المشرفة على السقوط في منطقة خربة من المدينة، ليعيش في مكان يختلف تماماً عن غرفته النظيفة المرتبة التي تفوح منها رائحة ماء الورد، والتي كانت أمه تعتني بها دائماً.

جاءني حيدر بلحية كثة وشعر أشعث وعينين متورمتين بسبب قلة النوم. كان يتنقل بنظراته من طاولة إلى أخرى في المقهى وهو يحاول العثور على الأخطار التي شعر أنّها تلوح في الأفق أراد مني أن أقوم بمهمة غاية في الصعوبة لا يقبلها العقل.

قام بمتابعةِ نجم الدين، ذهب وراءه مرتين إلى مدينة الصدر في

بغداد حيث بقي هناك لعدة أيام، ومرة إلى كربلاء. كان مقتنعاً أن نجم الدين قاتل محترف يعمل لإيران، مرتبط بأبيه، ومتورط بأعمال القتل التي وصفها عباس. فتّش غرفته وعثر على مسدس، وليس معتاداً لدى العراقيين اقتناء هذا النوع من السلاح، بل هم يفضلون الكلاشينكوف التي تم توزيعه من قبل الطاغية في التسعينيات، وظلّت متوفرة على نطاق واسع منذ ذلك الحين.

اعترف حيدر بأنّه لم يرَ نجم الدين يقتل احداً، قائلاً «أنه كان دائماً ينجح في الاختباء منّي في اللحظة الأخيرة». لكن عمليات القتل التي تابعها عباس وأصدقاؤه كانت دائماً تحصل ليلاً بشكل سري وبمسدس، وهو ما يثبت في نظر حيدر تورط نجم الدين.

ثم قفز خيال صديقي إلى كيل اتهامات فظيعة لنجم الدين بقتل «الوطنيين العراقيين» كما صار يحلو له تسمية الضحايا. حاولت بطرقٍ عديدةٍ إقناعه بأنّه بحاجة إلى دليل قبل الإقدام على أي عمل قد لا تحمد عواقبه.

«ماذا لو لم يكن لعمليات القتل تلك علاقة بالوطنية العراقية»، قلت له، «او بخدمتهم في الحرب الكبرى مع إيران، بل لها علاقة بعضويتهم ونشاطهم السابق في حزب البعث؟ هؤلاء الرجال، الذين صادف أنهم كانوا ضباطاً، قد قُتلوا لأنّهم كانوا بعثيين.»

«هراء!»، صرخ حيدر، «ما الذي يدفع عمّك إلى التصدي لحماية عباس لو كان بعثيا؟ لقد تحرى عن خلفيته، أليس كذلك! لا أحد في حركتنا شديد الاحتراز في هذه الأمور مثل عمّك.»

كان العراق يشهد عمليات تصفية للحسابات. قتل الطاغية العشرات من بيت الحكيم كما فعل مع بيت الصدر. وقد كان بحكم المؤكد أن

الأعضاء الأحياء من تلك العوائل سيسعون إلى الانتقام. ربما هذا ما كان يحصل، وفي تلك الحالة فانّه من غير المحتمل أن تكون إيران هي من يقوم بحملة ضد الضباط السابقين، وعلى حيدر ان لا يستعجل القيام بشيء على أساس تصوره ان الإيرانيين يفعلون ذلك.

لكن هذه الطروحات لم تعجب حيدر. لا شيء مما أقوله يقنعه بعكس ما يرى. انطواء حيدرعلى نفسه وغربته نحو أبيه جعله يتصرف بتخبط وان يركز على نفسه دون الآخرين. كذلك فقد صبره تجاه امّه التي بدأت هواجسها لما يحصل لابنها تفوق غضبها على أبو حيدر، مما ضاعف من الضيق لدى حيدر.

وأنا استشعر كل ذلك، سألت صديقي بماذا يفكر، ولماذا أراد لقائي.

«أريدك أن تحقق مع نجم الدين.»

«ماذا!» صرخت مصدوماً. «ماذا تتوقع منّي أن أسأله؟ ولماذا تتوقع منه أن يصغي اليّ؟»

«انّه بانتظارنا في مكان ليس ببعيد»، قال حيدر. «أنت أفضل منّي في استخدام الكلمات ويمكنك أن تصل إلى أصل الموضوع. فقط اجعله يعترف بأنّه يعمل لصالح إيران. لديّ جهاز تسجيل صغير نستطيع استخدامه لتسجيل اعترافه... ها هو، انظر»، قال وهو يسحب جهاز تسجيل صغيراً من حقيبة بلاستيكية كان يحملها.

«تقول انّه بانتظارنا؟»

«نعم، أسرع»، جذبني حيدر من ذراعي وهو يقودني خارج المقهى. سرنا في طرق ملتفة لمدة خمس عشرة دقيقة، حتى وصلنا إلى بناية شبه مدمرة. قادني حيدر ونحن نقفز فوق الأنقاض عبر ما يبدو انه كان صالة

كبيرة، حتى بلغنا الغرفة الوحيدة المتبقية من البناية ويبدو انها رُممت عشوائياً، حيث وجدنا نجم الدين. كان مقيّداً إلى أنابيب بارزة من الحائط الكونكريتي، وقد تعرض وجهه إلى الضرب المبرح، وعيناه متورمتان. حاولت ان أجسّ النبض في عنقه لكنني لم أفلح، الا ان جسده ما يزال دافئاً.

«لقد انتهى، مات. حيدر، ماذا فعلت!»

«لقد تركته حيّاً... أقسم... فقط ضربته قليلاً... وقد اعترف بكل شيء.... ثم ذهبت لأعثر على جهاز التسجيل وقد استغرق ذلك بعض الوقت... كان عليّ أن أجد شخصاً لاستعيره منه... ثم جئت بحثاً عنك.»

اللقاء

عدة أسابيع مرت قبل العثور على جثة نجم الدين وتشخيصها، خلالها اختفى حيدر. فتشت في كل مكان في النجف ومدينة الصدر لكنني لم أعثر عليه. وفي غضون ذلك، عاد بيت الحكيم إلى موقعه المسيطر في المدينة، وإزدادت مكاتبه لتهيمن على مكاتبنا، وانتشر أعضاء فيلقه لحماية الضريح بينما توارى جيشنا.

وبعد فترة قصيرة من تسلم أول حكومة يقودها الشيعة للسلطة، وصل إلى عمّي طلب من رجل دين بارز في بيت الحكيم يرى هناك «مصلحة مشتركة» ـ قاصداً مصلحة الشيعة ـ في أن يعقد اجتماع بين عمّي وأبو حيدر يحضره شخص محايد بمكانة أعلى منهما ويحظى بثقة كليهما. وتم اختيار أحد مساعدي المرجع الأكبر ليقوم بالوساطة. في ذلك الوقت، لم يكن عمّي يعرف بما حلّ بنجم الدين ولم أكن أعرف بعد انه تم العثور على جثته في البناية المهجورة حيث رأيتها آخر مرة.

لدى العرب مثل شهير، «أنا وأخي على ابن عمّي، وأنا وابن عمّي على الغريب». حيدر كان بمثابة الأخ بالنسبة لي. لذلك لم أنبس ببنت شفة عن نجم الدين، وبالتالي أصبحت متواطئاً مع حيدر آملاً ان يُنسى الموضوع وسيظن الجميع ان نجم الدين قرر ببساطة أن يعود من حيث أتى في طهران.

كان عمّي يتصور ان الاجتماع سيدور حول مناقشة الاستراتيجية الجديدة للحركة الصدرية التي أطلق عليها سيدنا اسم «المقاومة السياسية»، لتحل محل استراتيجيتنا القديمة المتمثلة بـ «المقاومة المسلحة» التي وصلت ذروتها في معركة النجف في شهر آب الماضي. لحقت بجيشنا خسائر كبيرة خلال القتال، لكنه لم يتفكك. اعتقد عمّي أن حسابات بيت الحكيم تدرك ان قوة جيشنا في النجف آخذة بالتراجع، لكن الوقت لم يحن بعد لضربة قاتلة. فرغم تراجعنا عسكريا في النجف، فإن وضعنا في بقية أنحاء البلاد، خصوصاً بغداد، آخذ بالتحسن. إذن كان هناك مجال للمناورة برأي عمّي الذي رحّب بزيارة أبو حيدر مصراً أن تكون الزيارة في بيته.

بدأت المناورات بين الطرفين برغبة عمّي بأن يكون الاجتماع في بيته. حين وافق الجميع على ذلك بدون تردد، إعتقد عمّي انه ربح الجولة الأولى. في غضون ذلك بدأت حركتنا تخفف من هجومها اللفظي على إيران التي رفعت من حجم مساعداتها العسكرية إلى حركتنا، بما أثار انزعاج عمّي الذي كان قد قبل الدفعة التي أرسلها الإيرانيون عام ٢٠٠٤ وكأنه صاحب الفضل عليهم. الآن صارت الأسلحة تأتي بناءً على طلب حركتنا وتضم معدات أفضل وأنظمة اتصالات، و«مستشارين» إيرانيين يعملون مع جيشنا، وهو أسوأ التطورات الممكنة في نظر عمّي. كل هذه الحسابات حصلت في الأيام التي سبقت الاجتماع ـ وهو بتقييم عمّي سبب آخر جعل بيت الحكيم، المرتبطين أكثر بإيران، يدعون إلى هذا الاجتماع.

كان عمّي في مقدمة القادة البارزين في حركتنا الذين عارضوا هذا التقارب مع إيران، ويقال ان السيد اتخذ موقفاً مشابهاً ـ فوالده كان يمقت رجال الدين الإيرانيين ويعتقد انهم حرموه من المكانة التي

يستحقها في المدينة المقدسة. لكن الإغراء الذي تمثله الأسلحة الإيرانية والمدافع الإيرانية والمستشارون الإيرانيون والألغام الإيرانية المصممة لاختراق المدرعات الأمريكية، هو ما دفع السيد، كما يقول عمّي، إلى قبول دخول الشيطان بيننا. كما قد تحولت أولويتنا الآن للتصدي لموجة الهجمات بالسيارات المفخخة التي يقوم بها أعداء أهل البيت من الوهابيين الذين استهدفوا الطائفة الشيعية في محلاتها وجوامعها وأسواقها ومواقع زياراتها. وحيث انّ نذر الحرب الطائفية الشاملة كانت تلوح في الأفق، فإن فرص التعاون بين السنة والشيعة، وهو الهدف الذي طالما سعى إليه عمّي وسيدنا، تراجعت كثيراً.

• • •

وصل الوفد إلى بيت عمّي في ظهيرة أول الخميس من تموز. كان الوسيط رجل دين وقوراً من عمر عمّي يرتدي عمامةً سوداء. في صحبته رجل دين أصغر سناً يرتدي عمامة بيضاء يبدو أنه مساعدٌ له. أمّا أبو حيدر فكان يرتدي زياً أسودَ علامة على الحزن، وكان بصحبته رجلان ارتديا السواد أيضاً.

أمّا عمّي فقد ارتدى دشداشته الحريرية البيضاء بعد أن كويت ونظفت بشكل ممتاز. ولاستفزازهم قام عمي بدعوة الشيخ الذي يدير مسجدنا المحلي والمروج للشائعات، منها الكارثة التي حلّت على بيت أبو حيدر حين نقل الشيخ قصة زواج أبو حيدر الثاني في إيران إلى أم حيدر. بدا الشيخ أكثر أناقةً من عمي بعباءته البيضاء المنجمة تماماً مع عمامته المرتبة البيضاء. كان جدي، الذي ليس من عادت الحضور إلى مثل هذه المناسبات، حاضراً أيضاً وبذات مظهره الدائم مرتدياً دشداشته

البيضاء العتيقة التي تحتاج إلى الغسل. جلس إلى جانب عمّي مما أضاف المزيد من الغرابة على المشهد. أمّا أنا، فقد جلست في الخلف محاولاً قدر الإمكان أن لا أكون مرئياً لأحد.

جلس المعسكر الأسود على أحد جانبي الغرفة، ثم على بعد مقعدين فارغين، جلس المعسكر الأبيض على الجانب الآخر. ملأ جسد عمي الثقيل أكثر كراسي البيت فخامة، بينما كان الآخرون يجلسون على الأريكة وقد أعيد ترتيب الغرفة كي تتناسب مع الحدث. كان الشيوخ الثلاثة، اثنان بعمامة سوداء وواحد بعمامة بيضاء، يجلسون متحفزين كملاكمين في وضع الاستعداد بانتظار أن يقرع جرس بدء النزال. بينما كان أبو حيدر يجلس باعتدال، مستقيم الظهر، وبهدوء واضح. وحده جدي كان يتصرف كالمعتاد بدون تحفظ، ظلّ يحرك جسده على مقعده حتى وصل إلى المستوى المرغوب فيه من الراحة، دون أن يبالي بالحاضرين.

كالعادة، فإن الساعة الأولى لهذا النوع من اللقاءات ليست سوى إهدار للوقت. بدأت بالحديث عن الفساد المتفشي في بغداد، والتقييمات المختلفة لمجموعة الوزراء الجدد في الحكومة المنتخبة، والتهديد الذي تمثله القاعدة وحلفاؤها العراقيون لطائفتنا، والوضع السيئ للبنى التحتية في النجف، وما إلى ذلك. تم تقديم الماء البارد والشاي، وتبعه البسكويت والقهوة العربية، ثم صحون مليئة بكل أنواع الفواكه، وقد تولى الخدمة ذات الرجل العجوز الذي خدمنا خلال الحديث مع أبو عمار في مكتب عمّي. لم تظهر خالتي أبدا، بل اكتفت بتحضير كل شيء في المطبخ.

أخيراً، عندما أراد الوسيط الوقور أن يكسر الجليد ـ ـ وهو وحده الذي كان بمستطاعه عمل ذلك ـ ـ فانّه خاطب عمّي بطريقة مفاجئة.

اختار أن يفتح الحديث بمدحِ سعة معرفتي وأخلاقي وولائي لأصدقائي. صُدِمتُ بهذه الافتتاحية، وراودني الشعور بأن هناك شيئاً وراء هذا المديح. حتى عمّي تفاجأ. أدرك الجميع ان المجاملات قد انتهت وبدأ وقت الدخول في الموضوع الرئيسي للقاء. أنهى الوسيط خطبته المنمقة بطرح سؤال على عمّي:

«كنا نتساءل إن كان بوسع ابن أخيك المحروس أن يخبرنا شيئاً عن مصير المسكين نجم الدين.»

«نجم الدين؟» سأل عمّي. «أخشى انني لا أعرف عمّن تتحدثون.»

تدخل أبو حيدر كاسراً صمته:

«نسيبي.»

كان نجم الدين شقيق زوجة أبو حيدر الثانية! هل كان حيدر يعرف عن ذلك؟ أمّ ان أبو حيدر أخفى هذه الحقيقة عن عائلته في النجف، حتى بعد أن أصبح موضوع زواجه الثاني علنياً، من أجل أن لا يعقد حياته أكثر بإضافة الملح على الجرح ان كشف عن هوية مساعده؟

«نحن جميعاً إخوة»، واصل أبو حيدر حديثه محدقاً بعمّي وكأنّه لا يوجد شخص آخر في الغرفة. كان كلا الرجلين يحسبان الوقت وأصابعهما تمر بقلق على حبّات سبحتيهما». ابني هو مثل ابنك، خصوصاً وهو ملتزم بقضية سيدك وبيت الصدر»، قال أبو حيدر وهو يتحدث بدقّة وبهدوء في غرفة عمّها الصمت باستثناء صوت حبّات السبح التي تتصادم مع بعضها كبندول الساعة.

«انا احترم استقلالية ابني وليس لدي أيّ تحفظ على اختياراته» استمر أبو حيدر، «لكنه شاب ومتهور، وكمعظم من في عمره يميل إلى عدم التفكير قبل الإقدام على فعل، وهو مختلف في ذلك عن ابن أخيك،

الذي كنت أسمع عن صداقته لابني ونصائحه الحكيمة له حتى وأنا في طهران خلال سنوات المنفى الصعبة. وأنا شديد الامتنان لذلك.»

«الشكر لله»، قال عمّي بأدب، لكنّه مازال محتاراً وبانتظار أن يعرف ما الموضوع وما وراء كل ذلك المديح.

«الشكر لله»، ردّ أبو حيدر وهو يومئ برأسه، بينما كان جميع الجالسين يسرعون في تحريك حبّات سبحاتهم. وبعد توقف للحظات، استأنف أبو حيدر كلامه، «نعم، حمداً لله على رابطة الصداقة التي نشأت بينهما منذ الطفولة. أملي الوحيد أن يثبت ابني انه يستحقها.»

صمت لبرهة ثم واصل حديثه، وهو ينظر باتجاه عمّي، «اختفى ابني عن الأنظار ولم يعد يزور عائلته، بما في ذلك أمّه المسكينة التي تعاني الكثير بسبب قلقها عليه. نريد إنقاذه من نفسه. آخر مرة تمت رؤية نجم الدين حين كان بصحبة حيدر وهما يتجهان من بيتي إلى السوق. بعد ساعة أو اثنتين، هناك من رآه مع ابن أخيك»، قال، وهو ينظر نحوي مع ابتسامة لطف تعلو وجهه، «في مقهى قرب السوق. لم يكن نجم الدين معهما، لكن مرتادي المقهى الذين كانوا جالسين قالوا ان حيدر بدا قلقاً بينما كان ابن اخيك يفكر معه ويحاول تهدئته، بدون فائدة على ما يبدو.»

توقف أبو حيدر هنا، دلالةً بأنّه وصل إلى نهاية حديثه عبر تناوله لكوب الشاي الذي بدأ يرتشف منه ارتشافة طويلة وبصوت مزعج. لم يقل صراحة ما يريد لكن كل شيء صار مفهوماً ضمنياً. وصار لزاماً على عمّي ان يظهر انه فهم المطلوب منه.

بدأ عمّي كلامه بامتداح حيدر وتدينه والتزامه «بتعاليم الإسلام» وقيامه بواجباته على أكمل وجه، «خصوصاً تجاه أهله الشيعة». تحدث

عن سنوات صداقتنا الثلاث عشرة وهي «سنوات التكوين»، قال في تلميح غير مباشر لغياب أبو حيدر في تلك السنوات، مضيفاً أنّه حاول ورغم «قابلياته المحدودة» أن يكون «أباً للاثنين»، ليعوضهما فقدان أبويهما الحقيقيين بسبب «قسوة الطاغية.»

اختتم عمّي بالثناء على الإمكانيات الممتازة لحيدر في الرياضة وشجاعته كجندي في الميدان خلال معركة النجف، وهي إشارة الغرض منها إغاضة أبو حيدر لأن رجاله قاتلوا إلى جانب الحكومة وربما اشتبكوا مع حيدر مباشرةً. ثم قارن ذلك بـ«إمكانياتي الممتازة في الدراسة»، وكيف ان كلا منّا أكمل الآخر. «لقد كانت صداقتهما رائعة وغير اعتيادية، كحجري مغناطيس ارتبطا ببعضهما من القطبين المتعارضين». وعند تلك الجملة المزوقة، أنهى كلمات المديح بالتوجه نحوي قائلاً:

«هل رأيت حيدر في المقهى يوم اختفائه؟»

«نعم عمّي»، أجبته.

«هل رأيته بعدها؟»

«كلا.»

«واصل أبني ولا تتوقف. أخبر أباه بكل ما يحتاج أن يعرفه. أريد الحقيقة، شرحا شاملاً وكاملاً. هذا ليس وقت...»

في تلك اللحظة تدّخل جدي في مسار الحديث، رافضاً بوضوح توبيخ عمّي الهادئ لي، غير مدركٍ ان عمّي لم يكن يقصد توبيخي بل أراد أن يرسل إشارة إلى الوسطاء بأنه أخذ على محمل الجد إمكانية أن يكون ابن أخيه متورطاً في مصير نجم الدين.

«اترك الولد ولا تزعجه»، قال بحدة مخاطباً عمّي، «انه نموذج للاستقامة والصدق. الكل يعرف ذلك!»

استفدت من مقاطعته التي منحتني لحظات كافية لأفكر بكيفية الإجابة. أدرت رأسي ببطء نحو أبو حيدر الذي كانت عيناه مثبتتين عليّ الآن.

«كان كما وصفته، يا عم، قلقاً وحزيناً وبدا مضطرباً. وقمت ما بوسعي لتهدئته.»

«لماذا كان حزيناً؟» سأل أبو حيدر بصوت واطئ، محاولاً استدراجي لمزيد من التفاصيل ليشبع فضوله. إدراكاً مني لخطئي، رحت ألقي ما يشبه الخطاب.

«كان حزيناً لأسباب كثيرة. قابل قبل فترة قصيرة واعظاً من طلبة سيد صادق، وكان يقرأ كتابه المسمى قاضي السماء. زار أتباعه الذين يعيشون كجماعة صغيرة في بستان شمال النجف. تم تحوير المكان لكي يتلاءم مع الحاجة لاستيعاب أتباعه. أعرف ان حيدر بقي لعدة أيام وقد تأثر بالحياة الجماعية البسيطة التي تعيشها تلك العوائل، بانتظار نهاية الزمان التي يعتقدون انّها وشيكة، ويتطلعون إلى الاشارات التي ترد في الكتب المقدسة حول الموضوع. أستطيع القول إن حيدر تأثر بشدة بطرق وأسلوب معيشة هذه الجماعة المنعزلة، المختلفة تماماً عن الفوضى السائدة في كل مكان آخر من البلد. تحدثنا عن ذلك وأفهم لماذا هو انجذب إلى طريقة عيش هذه الجماعة. المشكلة كانت في ادعاءات إمامها الذي يزعم ان لديه اتصالاً مباشراً بالإمام الغائب، ومن خلال هذا الاتصال عرف أن ظهوره وشيك. وقد أعْد جماعته أنفسهم لظهوره، ولذلك تجمّعوا في البستان بالانتظار...»

«هل قال شيئاً عن نجم الدين؟» قاطعني أبو حيدر.

«كان حيدر حائراً وحانقاً جداً، يبحث عن وسيلة لإراحة نفسه. وكان منزعجاً من وجود نجم الدين ومن حقيقة أن غرفة نجم الدين كانت أقرب إليك من غرفته... حاولت أن أقول له أنها ليست مشكلة، وان غرفته رغم كل شيء أجمل... وهل هناك أحد سيرغب بالنوم في الخزانة الكبيرة التي اتخذها نجم الدين كغرفة.... لكن حيدر عنيد كما تعرف يا عمّ... من الصعب حمله على تغيير موقفه... في داخله، كل ما كان يرغب به ولكن لم يكن يعرف كيف يقوله، هو أن يحظى باحترامك ويصبح محل ثقتك.»

«هل ذكر أنّه كان مع نسيبي عندما التقيتما في المقهى؟»

«لا، عمّي.»

«هل أنت متأكد يا ابني؟ هذا أمر مهم للغاية.»

«أنا متأكد تماماً.»

«هل تقسم على القرآن؟»

«نعم، سأفعل.»

«شكرا... هل تعرف أين ابني الآن؟»

«لا أعرف، عمّي، والله الشاهد»، هذه المرة يمكنني أن أحلف باسم الله دون أن أشعر بالتردد لأنني لم أكن أعرف فعلاً مكان حيدر.

«لقد بحثت عنه في كل مكان ولعدة أيام بلا جدوى. قيل لي أنّ هناك من رآه في بغداد، وانّه سافر إلى هناك. لكن لا أحد يعرف إلى أين ذهب تحديداً. حتى أنني لا أستطيع التأكد من صدق الشهود الذين قالوا أنهم شاهدوه.»

«هل تعتقد انه بحالته النفسية في ذلك اليوم كان قادراً على قتل نجم الدين؟»

«عيب عليك أبو حيدر!» صرخ جدي من مقعده. «كيف تسأل أعز أصدقائه سؤالاً كهذا؟ هل تطلب منه خيانة صديقه الأقرب على نفسه؟»

احتوى أبو حيدر غضبه تجاه جدي، لكنه لم يستطع أن يخفي احتقاره بنظرته المزدرية نحوه، قبل أن يلتفت إليّ، متوقعاً جواباً منّي وكأن جدي لم يقل ما قاله.

«لا، يا عمّي. مستحيل»، كذبت.

«أخي حيدر غير قادر على الإقدام على فعل شيء كهذا.»

بعد اللقاء

كذبتُ. كان علي أن أكذب. كم كانت بسيطة، كذبة نابعة من القلب وطبيعية... حتى كُدتُ نفسي أصدقها. في حينها بدا لي ان في قول الحقيقة عيب. لن أتخلى عن صديقي. لن أخونه. كذِبتُ ليس لأنّ قول الحقيقة سيكون ذا أثر فظيع على حيدر، بل لأنني أخ له في السلاح وفي الحياة، وعارٌ عليّ عدم الدفاع عنه. جدي فهِمَ ذلكَ، ولهذا تدخّلَ واستفزَ أبو حيدر. ربما هذا ما جعله يصر على حضور اللقاء. بالنسبة لي، كان هذا جانباً لم ألحِظَهُ سابقاً في شخصية جدي، وكأنني أراه للمرة الأولى. لقد فقد جدي صديقاً عزيزاً، جد حيدر، بسبب خلاف سياسي طفيف دار بينهما. تلك كانت نقطة تحول في حياته لا يمكن العودة إليها وتعديلها، وربما أراد أن يجنبنا أنا وحيدر كل تلك العقود من الكراهية والمرارة بين الأصدقاء.

جاء أبو حيدر إلى بيتنا بحثاً عن أجوبة، مقتنعاً أنّه سيجدها فيه. لكن الأجوبة لم تأت، وكانت هناك مرارة في ذلك. نجم الدين كان قريبه، ليس بالدم بالتأكيد، ولكن نسيبه رغم ذلك. والأسوأ، عاش في بيته وتحت حمايته. هنا تكمن التزامات أخرى تم انتهاكها: بيت أبو حيدر، صلته بنجم الدين، وتكفله بحمايته. كلها خُرِقت لتجلب العار والإهانة لأبو حيدر. هدرُ الدمّ يتطلب هدر دم جديد. تلك كانت القاعدة. وهذا ما كان سيحصل لحيدر لو أقدمت علىّ خيانة صديقي. في تلك اللحظة،

تم اختزال العالم إلى خيارين: أمّا عاره أو عاري. وبالطبع، هذا لم يكن خياراً بالنسبة لي.

أذن، على من سيوجه أبو حيدر اللوم؟ فهو لا يمتلك ما يكفي من المعلومات، وبذلك اختار أن يوجه اللوم كلّه نحو بيت الصدر.

وبعد فترة قصيرة من الاجتماع، وصلت المعلومات إلى ضباطنا الأمنيين بأنّ أبو حيدر كان اليد الخفية وراء مظاهرات استفزازية حصلت خارج مكاتبنا ومراكزنا في النجف بتهمة انها أصبحت ملاذاً للبعثيين وان حزب البعث اخترق حركتنا منذ زمن السيد صادق. وبعد فترة قصيرة، قام رجال ميليشيا من بيت الحكيم بالإغارة على مكاتبنا وضرب العاملين فيها ومطالبتهم بعدم العودة إلى فتح المكاتب مجدداً.

لقد لعِبَ أبو حيدر ورقته الأولى ضدنا.

بعد أن استشار السيد، ردّ عمّي بسرعة وقوة. أمر بتعبئة الآلاف من أعضاء جيشنا في جنوب العراق، وفي الليل قاموا بالإغارة على المئات من مكاتب فيلق بدر وإحراقها وتخريبها. وقد شوهد حيدر في بغداد وهو يزج نفسه بجنون في القتال ضد ألوية أبيه. هل عثر عمّي عليه بعد الاجتماع ودفع به إلى القتال؟ لا أعرف، لكنني متأكد أن لعمّي دوراً في ذلك.

كان رد عمّي الحاسم على المظاهرات الهزيلة التي أطلقها أبو حيدر، ضربة معلم: تصفية الحسابات لجراح قديمة تعود لعام ٢٠٠٤، وإعادة موازنات القوة بين الشيعة والشيعة لصالحنا، والتمهيد لهيمنتنا في معارك بغداد القادمة.

• • •

بعد أسبوعين وصل إلى مسامع عمّي أن لدى أبو حيدر نسخة من ملف التحقيق الأصلي الذي أصدر المحتل على أساسه مذكرة الاعتقال بحقّ سيدنا، والتي تم إلغاؤها من قبل أول حكومة شيعية منتخبة.

دعاني عمّي إلى مكتبه.

«يهددنا أبو حيدر بملف يتعلق بموت السيد مجيد. يبدو أن الملف أُعدّ من قبل قاضي قام باستنطاق الشهود بعد دفن الجثة. أريدك أن تجد هذا الرجل المتعجرف. أريدك أن تعطي لهذه المهمة أولوية قصوى. أريد الملف الأصلي، وأريد أن أعرف هل هناك من يمتلك نسخاً أخرى منه، وأريد أن أعرف أسماء كل الشهود الذين تحدّثوا للقاضي والذين وردت أسماؤهم في الملف. هل أحتاج أن أذكّرك ثانيةً بمدى أهمية هذا الموضوع؟»

جدّي

اثنان من البيوت الثلاثة الكبار لشيعة العراق التقوا في بيت عمّي، لكن شبحَ بيتٍ ثالث، بيت الخوئي، كان حاضراً أيضاً. إذا كان أبو حيدر يبحث عن طُرقٍ أخرى للانتقام من مقتل نسيبه، فإنّ رهانه الأفضل هو الملف الأصلي لمقتل السيد مجيد. كان يعلم بوجوده، وقد وقّعَ بيت الحكيم على تعليق مذكرة إلقاء القبض، ومن ثم إغلاقه، لكن هل كان بحوزته نسخة منه؟ عمّي أعتقد أنه لا يمتلك النسخة، ولذا أراد مني أن أعثر عليه بسرعة.

لا أحد في مكتب رئيس الوزراء، أو في وزارة العدل تمكن من تحديد مكان وجود النسخة الأصلية أو أيّ صورةٍ عنها. «لا بد أنها ضائعة أو أكلتها الجرذان»، قال موظف الأرشيف في وزارة العدل. أكلتها الجرذان فور إلغائها على ما يبدو! وَحَلَّ الملف الجديد مكانها ـ الملف الذي احتوى شهادات شهود لم يتذكروا شيئاً، ولم يُحملوا أحداً المسؤولية، والذي اعتُبر فيه موت السيد مجيد حادثة مؤسفة سببها سلوكه المندفع! قمت بالتفتيش في الرفوف وفي الملفات بنفسي ولم أعثر على شيء.

سُمِحَ لي بدخول مكتب رئيس الوزراء الذي كانت ملفاته في حالة فوضى يرثى لها. مفهوم الأرشفة لم يكن قد تعرفوا عليه بعد، إلى الحدّ الذي لم يكن هناك حتى شخص مسؤول عن المكان. عثرتُ على

الملفات غير النشطة المرمية بالقرب من مرحاض تنبعث منه رائحة كريهة. أنفقت ساعات في التفتيش في تلك الملفات دون أن أعثر على شيء ولكنني عثرت على مراسلات مع الأمم المتحدة وقد تبعثرت في أرجاء المرحاض، وسط أوراق متكدسة أخرى. بالطبع، لم يكن مطروحاً أبداً الذهاب إلى الأمريكيين الذين لا بد أنهم يمتلكون نسخة منه. لذلك أصبح خياري الوحيد هو العثور على القاضي الذي أغده.

لكن العثور على شخص يسعى للاختباء، خصوصاً في بغداد التي تم نقله إليها حسب ما علمتُ، لم يكن أمراً سهلاً. إنتظرتُ بصبر، وفي الوقت نفسه ووزعتُ الخبر بين كل معارفي للحصول على معلومات عن مكان عمله الجديد وكيفية الاتصال به.

الصدقُ يقال: كان لي هدف أبعد مما أراده عمّي منّي. أردت أن أعرف الحقيقة مهما كلفتني بخصوص تلك الجثة المطعونة أكثرَ من مائة طعنة سكين، والمرمية ككيس من القمامة في زقاقٍ محلتنا على بعد أمتار من منزلنا، الجثة التي كان صاحبها إبناً لأحد أكبر المراجع الشيعية في القرن العشرين.

• • •

بعد شهور قليلة من اللقاء بأبي حيدر، بدأت صحة جدّي بالتدهور. لم يحدث فشل في أحد أعضائه أو إنهيار مفاجئ في صحته ولكنه أصبح يذوي ويضمحل ببطء يوماً بعد يوم. عندما مرضت أمي بقيت عندي شخصيتها التي عرفتها طيلة حياتي بصورة ذكريات بل وحتى أوهام. أما جدّي، خلال فترة مرضه، ذلك الجد الذي أرادت مني أمي ان أتعرف وأتقرب عليه، تحلّلت شخصيته. لم يعد لها وجود.

هو لم يتوقف فقط عن الرغبة بالعيش، بل وتوقف أيضاً عن الإيمان بنفسه. انهار داخلياً، مبعداً نفسه عن حياته ومعتقداته السابقة. بدا الأمر وكأنّ الموت البطيء حطّم صورته عن نفسه بحيث لم يعد حتى من يحبهم قادرين على التعرف عليه. رأيت الاشمئزاز في وجه عمّي وهو يبتعد عن جدّي في كل مرة من المرات القليلة التي شاهده فيها. امّا جدّي فلم يعد حتى قادرا على ملاحظة ذلك.

والشيء الغريب، تعلمت في الفترات القصيرة التي كان يستعيد فيها عقله، أن أرى خصاله الحسنة التي لأجلها أرادت أمي مني أن أتعرف عليه أكثر. لكن حتى القليل من الحبّ الذي استعدته له وأنا أراه يذوي سائرا نحو قبره، اختفى عند وفاته. كان بمستطاعي التعايش مع ما طرأ على وجهه من تغيير فصار يشبه جمجمة وهيكلاً عظمياً. لكنّ كان من الصعب تحمل لغته الحمقاء وسلوكه الطفولي وشتائمه المتساقطة كالقنابل على رأس عمّتي كلما حاولت مساعدته. في النهاية، غدا رجلاً بلا أي إحساس، مغتاظاً دائماً، لا يعرف حتى ان يستذوق الطعام بل كان يبصقه في وجه عمتي كلما حاولت أن تضعه في فمه. ومع تزايد تصرفه بتلك الطريقة الوقحة كنت أحاول الابتعاد عن الغرفة. لم يعد لدى المرأة المسكينة التي بلا أطفال، لا حول ولا قوة، مع زوج يزدريها ويستخدمها وكأنها خادمة، ولم يعد لها من ملجأ بعد وفاة أمي سوى رعايتي.

مع ذلك كنت أزور جدّي في مرضه، لا لأطمئن على صحته بل لأنني ظننت بأنه يعرف أشياء كثيرة مهمة أريد أن أعرف المزيد عنها.

•••

أول محادثة جرت في مراحل مرضه الأولى بعد أن أخبرته برسالة أبي إلى أمي، التي كان يعرف كل شيء عنها.

«أمك قرأتها لي في اليوم الذي تلقتها منه. طلبت منها ان تخفيها.»

«لماذا؟» سألت، لكنه لم يجبني وأشاح بوجهه عنّي.

«هل يعلم عمّي بهذه الرسالة؟» سألته بأصرار.

«لا. لاتخبره عنها!»

«لم لا؟»

«ذلك أفضل!» قال، ورفض ان يواصل مناقشة الموضوع أكثر. «لا أحد عدا أمك وأنا، والآن أنت، يعرف بوجود هذه الرسالة. يجب أن يبقى الأمر كذلك.»

«لا أفهم جدّي. أنت وأمي كنتما دائماً قريبين من بعضكما، بل إنكما أحياناً وقفتما بصفٍ واحدٍ ضد عمّي. لم أسمعك ولا مرة واحدة تنتقدها أو تسمعها كلمة سيئة.»

«كانت أمك، رحمها الله، ملاكاً، ملاكاً... هل تسمعني. هي لم تكتفِ بأن أحبّت أباك، بل كانت سنده. هل تعرف معنى الخدمة في الجبهة خلال تلك الحرب اللعينة، دائماً بعيداً عن بيتك، بدل العمل بوظيفة مكتبية مريحة؟ فقط لأنك شيعي وأوراقك الثبوتية تقول أنك ولدت في النجف! كان يبدو محطماً كل مرة يعطونه بضعة أيام إجازة. كانت دائماً تعيد التوازن إليه كخياط ماهر يصلح بدلة ممزقة. ما كان ليستطيع إكمال تلك السنوات بدونها. دائماً كانت تعطيه كتاباً جديداً ليأخذه معه إلى الجبهة. أتذكر أحد تلك الكتب، ذهبت إلى بغداد لشرائه. «مأساة الحلاّج»، أعتقد هذا كان عنوانه...»

«اعطتني الكتاب لأقرأه قبل شهور من وفاتها...قالت انه كان كتاب أبي. قرأته بإمعان...»

«كان كتاب أبيك، أنت على حق، ولكنها هي من اشترته له. اعتادت أن تقول ان وظيفة الأمهات العراقيات هي إعادة الحب الغائب إلى قلوب أطفالهن. هل عرفت بذلك؟»

«نعم جدّي. حدثتني عن ذلك.»

«لماذا تعتقد انّها قالت ذلك؟»

«لا أدري. كل الأمّهات يقلن الشيء نفسه.»

«لا تقل هذا! أمّك ليست ككل الأمّهات. لا تفكر بها على هذا النحو أبداً. كانت إنسانة استثنائية. فهمت أشياء لم يكن أبوك قادراً على فهمها. فهمت ان العراق بلد لا ثقة فيه، بلد يسوده الطعن في الظهر. وحيثما لا توجد ثقة، لا وجود للحب». بعد هذه الجملة، بدا وكأنّه قد أرهق، وضع رأسه على المخدة وأغلق عينيه.

«جدّي، هل أنت على ما يرام؟» سألت بقلق، وأنا أقترب من وجهه الصلب ذي العظام البارزة. فتح عينيه ونظر نحوي.

«كان أبوك، رحمه الله، يتطلع دائماً إلى الأعلى وينظر في الأفق وما بعده. كان متسامحاً، بل كان مؤمناً بأن الناس طيبون بالفطرة. لم يحمل أي ضغينة تجاه أي شخص. أحبته أمّك لهذا السبب لكنها كانت تعرف متى عليها ان تنظر إلى الأسفل، إلى عالم مليء بالأفاعي، وأن تأخذ بيده لتقوده كالأعمى مخترقة بشاعته. كانت عينيه... وهو لا يرى شيئاً بل يتبعها أينما توجهت.»

صمتَ جدّي. شعرت بالإحراج، فجدّي لم يكن شخصاً معروفاً

برقته. عندها، لا أعرف ما الذي جعلني أسأله هذا السؤال: «هل أحببتها؟»

لكنه لم يجب، متظاهراً بأنّه لم يسمعني.

«بدونها»، واصل جدّي، «كان أبوك سيموت قبل موته الحقيقي بزمنٍ طويلٍ.»

«هل تعّرض أبي للخيانة في ١٩٩١؟»

«طبعاً... لابد أنّ الشخص كان يعرفه... وبالتأكيد من النجف، لأنّه لا يمكن لأحد أن يصف لرجال أمن صدام، وبدقة كافية، المكان الذي تواجد فيه أبوك سوى شخص يعرف النجف جيداً.»

«ماذا كان أبي يفعل هناك؟ لماذا قاموا بكل هذه الجهود بحثاً عنه؟»

«كان يساعد السيد مجيد الخوئي على الهرب.»

«السيد مجيد! الرجل الذي قتل في ضريح الإمام يوم سقوط الطاغية!»

«طبعاً، من غيره؟ ألا تعرف شيئاً؟»

«هل أنت متأكد يا جدّي؟»

«انا متأكد. لقد كبرا معاً... كانا صديقين مقربين من بعضهما... ذهبا إلى ذات المدرسة... ولم يفترقا الا حينما ذهب أبوك إلى الجامعة، ومجيد إلى الدراسات الحوزوية... لكن خلال أسابيع الانتفاضة الصعبة، كانا معاً، كأخوين لا يفترقان... كان الأخ الذي لم يحظ به أبوك أبداً.»

«ماذا تعني بالأخ الذي لم يحظ به أبي؟ ماذا عن عمّي؟»

«عمّك... لا يتحدث... لا يشارك الآخرين بما يفكر... لديه قدرة لا مثيل لها على التآمر والشك. أبوك كره سلوكه دائماً. كان هذا طبعهُ! لا أدري من اين ورث هذه الصفات. لم يرثها منّي!»

ثم لاذ بالصمت، ولم يشرح أكثر. اكتفى بالحديث والغمغمة مع نفسه معظم الوقت، أحياناً كان من الصعب عليّ متابعة سلسلة أفكاره، لكنني التقطت هذه الجملة من بين ما قاله.

«أبوك كان يتعذب من الأكاذيب.»

«أكاذيب؟ أي أكاذيب ياجدّي؟»

«كل الأكاذيب... أكاذيب بيضاء أو غير بيضاء، كالتي يستخدمها الناس كل يوم. لم نكن أنا وعمّك مثله. هناك حاجة أحياناً للكذب. هذه صفة ورثها عمّك مني للأسف! واعذرني ان قلت لك ان عمّك يتفوق عليّ في الكذب. ليغفر لي الله؟»

«طبعاً سيغفر لك، جدّي... هل تؤمن بالله؟»

لم يردّ علي، فقط اكتفى بالنظر نحوي بدون تركيز.

ثم فجاة قال: «هل تعتقد ان حيدر يؤمن بالله؟»

«أنا متأكد من ذلك جدّي... بدون أدنى شك.»

«فكّر بحيدر، بماذا فعل أو ما قد يفعل، ثم فكر بما قلته لي الآن، يا ابني. الآن كف عن الكلام». ثم أشاح بوجهه بعيداً، وغرق بصمت عميق، وكانت تلك إشارة لي كي أغادر. انحنيت برأسي وبقيت، لم أحرك ولا عضلة واحدة، وجاءت مكافأتي بعد دقائق قليلة حين بدأ يغمغم مجدداً.

«لا انا ولا عمّك نشبه أباك... كان رجلاً نبيلاً... نبيلاً جداً... لم يخلق لهذا العالم... لكنه كان عنيداً. يعلم الله كم كان عنيدا ذلك الرجل!»

في تلك اللحظة بدا أنه يفقد السيطرة ويزداد اضطراباً. راح رأسه يتحرك

بقوة من اتجاه إلى آخر وكأنه يريد أن يلطمه بالمخدة، وبدأت راحة يده اليمنى المفتوحة تضرب غطاء السرير. تغرغرت عيناه المصفرتان. اقتربت منه ووضعت يدي فوق معصم يده اليسرى وضغطتها بما يكفي لتذكيره انني ما أزال موجوداً معه في الغرفة. ثم استدار فجأة نحوي وقبض بقوة على كتفي. كان وجهه شاحباً وعيناه تلمعان وقزحية العينين تزداد إصفراراً. لكنه لم يستطع أن ينطق بأي كلمة. وكأنه كان يغص بالكلمات. طوقته بذراعي لأهدئه، وبعد فترة وجيزة، وضع رأسه مجدداً على مخدته وهو منهك. بقيت واقفاً إلى جانبه حتى غط في نوم عميق.

• • •

كانت هناك أشياء كثيرة لم أعرفها. ما الذي حصل في الماضي بين عمّي وجدّي؟ بدأت أتساءل مع نفسي بصراحة أكبر، لماذا كان عمّي واقفاً بالقرب من الجثة المرمية في الزقاق قبل ثلاث سنوات؟ هل كان متورطاً بالقتل بطريقة أو أخرى؟ لماذا يظهر كل هذه السرية والتحايل كلما طرح موضوع مقتل السيد مجيد؟ لماذا لم يخبرني ان السيد مجيد كان صديقاً قريباً لأبي؟

وماذا عن علاقة عمّي مع أخيه؟ صحيح انه كان يكبره بست سنوات ولم يتلق تعليماً بعد الثانوية العامة، بل علّم نفسه بنفسه. بقي في النجف وحقق نجاحاً جيداً في التجارة وتملك ثلاثة محلات في السوق الكبيرة المقابلة لساحة الميدان. بينما، ذهب أبي إلى بغداد لإكمال دراسته الجامعية ثم التحاقه بالجيش في العام الذي ولدت فيه إلى حين هروبه من الخدمة العسكرية بعد حوالي العقد من الزمن عندما دعي مرة أخرى للخدمة رغم تسريحه.

هل اختلف الأخوان؟

تحدّث عمّي في ذلك اليوم في مكتبه عندما كنا نتكلم عن عصابة الثلاثة عشر عن أبي بوصفه «طوباثياً» يمتلئ قلبه «بحب العالم». جرّ الكلام بيننا بعد أن ترك أبو عمار ورفاقه الغرفة، ولن أنسى أبداً كيف فقد عمّي صلابته المعهودة. «المشاعر هي علامات ضعف»، كان يقول دائماً. إلا أنّ عمّي ضعف ذلك اليوم وقادته عواطفه. ربما كان يفكر بي، تلك كانت المرة الوحيدة التي رأيته فيها عاطفياً. حتى أنذكر أنني رأيت دموعاً... كتلك التي رأيتها في عيني جدّي ومازالت تراودني إلى اليوم، تماماً كما أتذكر الكلمات التي قالها ذلك اليوم: «ربما جعلته أفكاره وأسلوبه في الحديث شخصاً محبوباً، وأنا لم أكن كذلك. لكنها أيضاً جعلته غير قادر على فهم طبيعة الإنسان، كونه أنانياً وليس طيباً بالفطرة.»

تلك كلمات شخص أحبّ الرجل الذي يتحدث عنه لكنه أيضاً ساخطٌ عليه لسبب ما.

المحادثة الثانية

جاءت المحادثة الثانية بعد ما يقارب الأسبوعين عندما حصل تحسّن طفيف في وضع جدّي الصحي. خلالها سألته عمّا كان يفعله أبي والسيد مجيد في النجف خلال انتفاضة ١٩٩١.

«يجب أن تفهم ان الجثث كانت في كل مكان... فوق أكوام الزبالة، وفي الأزقة... جثث البعثيين، والمتمردين الشباب الذين أغاروا على مراكز الشرطة ومقرات الحزب، وكذلك جثث العابرين من رجال ونساء أبرياء قتلوا في صراع الطرفين... كلّها جثث شيعيّة. بعضهم جرح وربما زحف نحو زاوية مظلمة ليموت هناك. دار السيد مجيد وأبوك في أنحاء المدينة لجمع الجثث التي تمكنوا من العثور عليها، تحديد هوياتها إن كان ذلك ممكناً، ثم دفنها شرعياً تنفيذاً لفتوى المرجع آية الله الخوئي المعروفة في اليوم الثالث للانتفاضة في آذار١٩٩١. فيها حث الجميع على القيام بواجبهم كمؤمنين بدفن الموتى بكرامة وفق الطقوس الملائمة والامتناع عن التمثيل بأحد أو سرقة أي شيء.»

«هل رأيت ذلك بعينيك ياجدّي؟»

«نعم، رأيته. خرجت من البيت في ظهيرة اليوم الأول، حتى منع عمّك كل من في البيت من الخروج ووضع حارساً في داخله وكلّف

أحدهم بشراء حاجاتنا اليومية. أمرنا جميعاً أن نبقى في البيت، وأن لا يخرج أحد منّا بعد ذلك.»

«ماذا رأيت؟»

«رأيت مئات من الشباب الصغار ـ أصغر منك ـ يزدادون ويصبحون آلافاً. لم تكن أعمارهم تتجاوز الثمانية عشر عاماً... اندفعوا من الأزقة والشوارع الخلفية ليهجموا على مراكز الشرطة ومقرات الحزب المحاذية لضريح الإمام. في البداية كانوا يحملون الهراوات والسيوف والمسدسات، وفي نهاية اليوم صارت بحوزتهم رشاشات وأسلحة اوتوماتيكية. وعند غروب الشمس، سقط الضريح والفناء بيد المتمردين الذين أقاموا محاكمات شكلية للسجناء الذين أعتقلوهم خلال الأنتفاضة، وكما قاموا بحز الرقاب وأطلاق عيارات نارية عشوائياً بلا تعيين.»

«وأبي؟»

«في البداية، ذهب هو والسيد مجيد بحثاً عن طفل صغير، ابن الجيران... أعتقد أن اسمه كان أحمد وعمره ثماني سنوات... أرسلته امّه إلى السوق بدقائق قبل أن نبدأ الانتفاضة. كانت في حالة هستيرية... تلطم وتمزق ملابسها وتجر شعرها. رغم أنهما كانا مشغولين بملايين الأشياء الأخرى، قرر السيد مجيد وأبوك أن يذهبا بحثاً عنه.»

«هل وجداه؟»

«بعد ساعات. قام بائع الخضروات بأخذ أحمد معه حينما جاء ليشتري البصل من دكانه، وأضطر إلى إغلاق الدكان لحمايته من اللصوص... استغرق الأمر وقتاً طويلاً للعثور عليه.»

«لم أتخيل ان السيد مجيد من هذا النوع»، قلت محدثاً لنفسي لكن جدي الذي صار متيقظاً جداً الآن سمعني.

«أي نوع من الناس كنت تتوقع أن يكون السيد مجيد؟»

«لا أعرف. عميل أمريكي، كما قال عمّي.»

«ماذا تقول!» رذ بصوت عالٍ، ثم قام بجهد كبير لسحب نفسه ووضع ثقله على مرفقيه، وعيناه الغارقتان في تجويفهما تبرزان إلى الإمام، ليقول «لقد كان رجلاً نبيلاً، شريفاً، ابن أبيه بكل ما للكلمة من معنى. اسأل احمد وأمه!» ثم سقط على السرير ليضع رأسه على مخدته.

لم أعرف ما أقول بعد ذلك. وجدت نفسي محتاراً بين مشاعري تجاه عمّي وبين عواطف جدّي. في ظروف أخرى كنت سأتجاهل ما قاله جدّي باعتبارها انفعالات رجل عجوز، لكن ذلك لم يعد يبدو صحيحاً هنا. أذهلتني كل تلك الأشياء التي لم أعرفها، وربما لن أعرفها أبداً... ثم قال جدّي:

«شاهدت أباك مرة واحدة أخيرة بعد ذلك.»

«ماذا كان يفعل؟ ماذا قال...»

«جاء قبل مغادرته ليخبرني انه يعتقد بصحة ما فعله أخوه في منعنا من الخروج من البيت وجعلني أقسم على القرآن ان لا أسمح لا لأمك ولا لك بالخروج بحثاً عنه. كان في طريقه لمقابلة السيد مجيد الذي كان مصدوماً مثل أبيك بسلوك المتمردين. كلاهما تصور ان العنف سيقضي على الانتفاضة. قام الشباب، تحت إشراف رجال دين، باقتحام المباني العامة. كانوا يقتلون أي مسؤول حكومي يرونه، ويسرقون أي شيء يمكنهم حمله، بعدها يفرغون علب الكيروسين ويرمون بعود الكبريت فيها ليهربوا سريعاً نحو مبنى حكومي آخر. رأى أبوك بعض أصدقائي

المقربين يقتلون، من بينهم شيوعيون سابقون ويساريون مثل فلاح عسكر ورضا الفاهم وحسن النجفي.»

«لماذا يقوم المتمردون بقتل شيوعيين عجائز؟ ربما هم لا يعرفون أصلاً ما هي الشيوعية. شيء لا يُعقل.»

«لم يقتلوا لهذا السبب، يا ولد! لاتكن أحمقَ! هؤلاء كانوا فنانين وشعراء موهوبين كسرتهم الأيام، قام البعث بشرائهم بعد سحقه للشيوعية في العراق، وأجبرهم كي يكتبوا أغاني تمدح صدام وحزبه. حزبنا كان يضم كل المثقفين العراقيين في عز أيامه، وظل كذلك حتى السبعينيات. ألم تعرف بذلك أبني؟ هل أخبرتك سابقاً عن قصة صديقي حسن النجفي؟»

«لا، لكن أخبرني عن أبي.»

«كان حسن صديقه أيضاً. كنت معتاداً على تنظيم أمسيات شعرية وكان حسن يبرز دائماً كنجم لها. يلقي على أسماعنا بعض قصائده القديمة. حضر أبوك جميع أمسياته... فحسن لم يبدُ أنه يؤمن بأي شيء، وهو لم يكن أبداً شيوعياً منتظماً... كان فقط يحب عمله، واستغل الآخرون هذا العمل لأغراضهم السياسية. هل تعرف كيف بدأ كل شيء... لا، طبعاً لا تعرف! قام شقاوات البعثيين باقتحام حفلة زفافه، ضربوا زوجته، آذوا أبوها، وحطّموا كل شيء. في اليوم التالي، تلّقى المسكين حسن مكالمة تلفونية مباشرةً من الطاغية. كان ذلك... عام ١٩٧٨! نعم عام ١٩٧٨، قبل ان يصبح صدام حسين رئيساً. قال أنه آسف جداً بسبب ما حصل، وهو شخصياً سيضمن إلقاء القبض على المسيئين ومعاقبتهم، ان قام حسن بتأليف بعض القصائد عن إنجازات

الثورة البعثية في العراق. كان عرضاً يصعب على المسكين حسن أن يرفضه...»

توقف جدّي عن الحديث عندها. «ثم ماذا حصل جدّي؟ يجب أن تخبرني الآن.»

«حزّوا رقبة المسكين حسن في فناء الضريح. قالوا انه متعاون مع النظام، واعتبروا ذلك عدالةً.»

ساد الصمت بيننا. حاولت أن أتخيل مشهد الأمسيات الشعرية التي نظّمها جدّي لكن الصور تأتي إلى خيالي ممزوجة بمشهد حسن وهو ينزف بالقرب من ضريح الإمام، ومشهد السيد مجيد وهو يطعن في نفس المكان بعد اثني عشر عاماً، وصورة أبي وهو يركض هنا وهناك كدجاجة مقطوعة الرأس محاولاً إنقاذ من يمكن إنقاذه. حاولت، لكنني فشلت في فهم كل ذلك.

«مسكين حسن»، قال جدّي فجأةً، ثم بدأ بالبكاء وترديد كلام غير مفهوم مع نفسه... وكأن وجهه الشاحب قد لامس التربة التي سيدفن فيها بعد حين.

«أنفق أفضل سنوات حياته يبحث عن الفن والمثل العليا، لكنه في النهاية غرق بالدماء المتدفقة من حنجرته المقطوعة كالشلال في الفناء... عار عليهم... عار علينا... ما هي عجينتنا؟ من أيّ طينةٍ خلقنا الله؟ هل نحن حيوانات تذبح وتُقطع أوصالها؟»

«نحن ضحايا، جدّي... لقد كنّا دائماً ضحايا. لكن اطمئن، اننا نقاتل لتغيير ذلك.»

«لا شيء مطمئن فيما تقول يا ولد!» ردّ عليّ بشكل مفاجئ. «في ١٩٩١، رأيت من سمّيتهم ضحايا! ظلموا وآذوا أكثر ممن ظلمهم...

هؤلاء ليسوا رجالاً!» قال محدثاً نفسه بدل الحديث معي. «أن يكون الإنسان ضحية أفضل من أن يفقد شرفه وإحترامه لذاته.»

ذعرتُ! هل يكمن الشرف في الوضع المزري الذليل للضحية؟ أم في القتال من أجل التحرر من العبودية ووضع الضحية؟ لقد انضممت إلى جيش الإمام لمحاربة الوضع المزري للضحية. ما يقوله جدي هو أنه لو كان نضال الضحية للتحرر من عبوديته ذهب إلى حد حزّ رقبة المسكين حسن، ذلك شيء لا يمكن تبريره. بالتأكيد لا يمكن تبرير الانتقام كما أخبرنا الله تعالى. لكن الطاغية لم يترك لنا من خيار سوى مواجهة النار بالنار. استخدام العنف لإثبات الوجود كفرد أو كجماعة أمر صحيح أياً كانت النتائج! كيف يمكنني أن أقول لإنسان تعرض لكل هذا الآلم والإذلال أن يلتزم بقواعد معينة في سلوكه وهو يخوض حرب حياة وموت من أجل أن يبقى وان يجعل من نفسه إنساناً جديداً؟ لن نتّبع القواعد في النجف خلال معركة آب ٢٠٠٤. ولم يتبعها المحتل أيضاً. لماذا علينا ان نتوقع من ثوار انتفاضة ١٩٩١ ضد الطاغية ان يتبعوها إذن؟

٢٠٠٦

العدالة

ماضيّ، وماضي حيدر، وماضي كل من قفز إلى المستقبل بعيون مغمضة في عام ٢٠٠٣، كان حكم الطاغية الذي استمر مدة أطول من عمر ثلاثة أرباع سكان العراق. هنالك جيلان من العراقيين لم يعرفا شيئاً سوى الطاغية وحكمه. اما ماضي جدّي فقد رأى فيه العراق بأشكال مختلفة تماماً، إلى الحد الذي يظنُّ المرء ان العراق عدة بلدان لا علاقة للواحد بالآخر عدا الاسم. شاهد كل الحروب والثورات وأنواع القسوة والحط من شأن البشر، أو ربما هذا ما تصورته حتى انفجرت خزانات الألم الشيعي في ٢٢ شباط، اليوم الذي قام به الوهابيون بمهاجمة ضريحنا المقدس في سامراء. وثقوا أيدي الحرس، وفجّروا ضريح الإمامين العسكريين، وصوروا العملية، ونشروا كل تلك الصور في وسائل الإعلام بقصد الاستفزاز. نجحوا في ذلك. استُفززنا نحن الشيعة، وغضب السيد، وشعر عمّي باليأس. كسح الغضب الأرض كموجة عارمة.

حتى ذلك الوقت، تحملنا نحن الشيعة وبصبر كل العنف الموجّه نحونا. لم نقم بالرد حين فجّروا في مرّة واحدة ٢٧٠ رجلاً وإمرأة منا خلال زيارة دينية، وحينما استهدف الانتحاريون مساجدنا وأسواقنا، وأعراسنا، وأي تجمع لنا.

حتى ذلك الوقت، كانت الحرب بين التشيع الإيراني والتشيع

العراقي، بين بيت الحكيم وبيت الصدر، تجري في الخفاء. ثم خضنا هذه الحرب بعنف فيما بيننا، وراح ضحيتها المسكينان منتصر ونجم الدين.

حتى ذلك الوقت، كنّا نصغي لكلمات ضبط النفس والتعقل الصادرة عن المرجع الأكبر، كلمات تشبه تلك التي قالها معلمه واستاذه آية الله الخوئي خلال انتفاضة ١٩٩١... أصغينا وأطعنا، وحصرنا قتالنا بالمحتل. ثم دعانا للتعقل مجدداً واحترام قدسية مساجد وبيوت المسلمين جميعاً. لكنّنا لم نصغِ هذه المرة، فقد تجاوز انفجار الغضب الشيعي المكتوم كلماته المتعقلة.

أصدرت الحكومة بيانات التنديد وانتقدت التحريض «الأجنبي». انقسم البرلمان وسط الاتهامات المتبادلة بين أطرافه. وضاعف بيت الحكيم حملة الاغتيالات الليلية القذرة ضد الموالين للنظام السابق أو من يعتبرهم كذلك، قائلين بأن حزب الطاغية المنحل هو المسؤول عن العمل الشنيع في مرقد سامراء.

وحده سيدنا من استطاع أن يفهم نبض الشارع وأن يحرر قوته، دافعاً بنا إلى أرجاء المدينة. بدأت الحرب الشيعية السنية في بغداد أقل من ستة أشهر بعد نهاية الحرب القديمة ضد المحتل في النجف. كانت حرباً حكمتها لغة عصابة الثلاثة عشر، لكن نحن من قادها على الأرض.

حالما بدأت الحرب حصل شيء غريب لم يتوقعه أحد من قبل: شيعة بغداد الذين كانوا يوماً خائفين، ولم يكنّوا أي ود لعصابة الثلاثة عشر، أصبحوا ينظرون لنا كمنقذين ويحتمون بنا، نحن جيش الإمام. حتى عندما لم نكن نحن من يغير على المناطق السنية ويقوم بالانتقام ويجبر السنة على الخروج من بيوتهم ويقتلهم عند نقاط التفتيش ويسرق ممتلكاتهم، كان الناس يظنون انه جيشنا.

أصبح جيش الإمام الذي كان يشيد الجميع ببسالته في مواجهة المحتل في صيف ٢٠٠٤ يزرع الرعب في قلوب السنة. أصبحنا المارد الكبير في بغداد، البعبع الذي يجوب الشوارع ليلاً موقعاً رعباً لا مثيل له. حتى رجال الشرطة ارتدى أعضاؤها ليلاً ملابس تشبه ملابسنا وادّعوا انهم يقاتلون باسم سيدنا. أنشأوا نقاط تفتيش غير قانونية استخدموها لسرقة العابرين الأبرياء وقتل كل رجل يحمل اسماً سنياً أو يخرج من حيّ سني.

الأسود لوننا، سواد حالك من أعلى رأسنا إلى أصابع أقدامنا، وحتى قناع وجهنا أسود. هكذا ألبسنا فرق الموت الخاصة بنا، وكم كان مظهرهم مرعباً، حتى لو لم يكونوا في وضع اقتحام بيت وسحب أفراد عائلته إلى جهة مجهولة. تم لصق صور سيدنا على حائط كل بيت سني، والويل لكل من يجرؤ على رفعها سواء كان رجلاً أو امرأة أو طفلاً.

ظلت هذه الأمور تحدث باسمنا على مدى عام. كيف تحولت الحربُ ضد الاحتلال إلى هذا؟ حاول عمّي إيقافها، كما ان سيدنا الذي فوجيء بالرعب الخارج من تحت عباءته، حاول أيضاً أن يضع حداً لتلك الحرب، لكن بلا طائل. كنت أتنقل بين مواقع الاشتباك وأحث الجميع على التعقل، لكن ذلك كان كمن يريد ان يطفئ نار الجحيم بأكواب الشاي.

تغيّر حيدر خلال تلك الحرب من شخصية الرجل القلق المرعوب الذي ضرب نجم الدين ضرباً مبرحاً، إلى شخصية قائد المجموعة المشهور بقسوته وشدته مع أعدائه السنة كشهرة مواقفه ضد «العملاء» الإيرانيين مثل نجم الدين. محاربة الإرهاب السني جعلته شخصاً آخر.

صار اسمه يُذكر كلما تم العثور على مجموعة من جثث السُنة التي ثُقبت أيديهم وأرجلهم بالثاقب الكهربائي. الضربة القاضية، كانت حفرة اخترقت الجمجمة على طولها بالثاقب الكهربائي. القتلة المرادفون من الطرف السني، كانوا يفضلون السكين، على أساس أن أصحاب النبي كانوا يستخدمون السكين لقطع رؤوس خصومهم على صلبهم. هكذا واجه السكين السني الثاقب الكهربائي الشيعي طيلة معركة بغداد سنة ٢٠٠٦. رجالنا الذين عملوا تحت قيادة حيدر، ومن بعدهم كافة صفوف جيش الإمام، أخذوا يسمونه ذو الفقار، نسبة إلى سيف العدالة الخاص بالإمام الأول. أمّا أعداؤه فسموه عزرائيل.

بحثت عن حيدر في كل مكان، لكنني لم أجده خلال تلك الأيام المظلمة. في لحظة معينة يتواجد في مكان ما، ثم يختفي. الأثر الوحيد الذي يتركه هو الجثث الفاسدة والشائعات حولها كالذباب. ربما كان من الأصلح أن لا نلتقي، فلو حدث هذا لساءت الأمور بيننا كثيراً. كنّا ننتمي إلى ذات الجيش لكن في معسكرين متناقضين خلال تلك الحرب.

حينما تسنت لي فرصة لقائه، بدا لي انه قد خفّف من غليانه، أو ربما هذا ما أردت أن أعتقده. فحيدر لم يكن هو ذاته الذي كنت أعرفه بل أصبح شخصاً آخر حوّلته أقدار هذا البلد، كما حولت الكثير من الشباب العراقيين: مرةً يسعى لقتل الأمريكيين، ثم إلى قتل أقرانه من الشيعة، وتارة يكره الإيرانيين. والآن هو ينظف المدينة من السنة العرب. قام حيدر بتغيير أعدائه وحلفائه بسرعة مربكة طوال العام. ولكن حين انتهت معركة بغداد كنا قد سيطرنا على نصف المدينة، وأبعدنا ثلث سكانها السنة العرب، وفرضنا سيطرتنا على معظم المناطق الشيعية فيها.

• • •

أكتب «نحن»، وأسألُ نفسي: من «نحن»؟... لم أفكر بهذا السؤال حتى خطر على بالي ما قاله جدّي في واحدة من لحظات يقظته.

«وانت!» قال جدّي بازدراء، «ما الذي تفعله في هذا الجيش الفوضوي؟ أي جيش هذا! لابد ان أباك وامك يتقلبان في قبريهما؟ جيشك المنتظر هذا! تنتظرون من؟ تصورتك أذكى من ذلك.»

«جدّي! انك تهين سيدنا الكبير، حفيد النبي وابن الشهداء الذين ماتوا جميعاً من أجل العدالة!»

«العدالة!» صرخ بوجهي. «لقد حزّوا رقبة صديقي حسن النجفي لأجل تلك العدالة! ومات أبوك لأجلها. ومات مئات الآلاف من الرجال ممّن كانوا في صفه. وصديقي القديم، جدّ حيدر، مات أيضاً من أجلها قبل ثلاثين سنة.»

«إعتقدتُ انكما اختلفتما...»

سقط منهكاً في سريره، وبدا أن التجوفات في خديه أصبحت أكثر عمقاً.

«أتعتقد ان بسبب خلافنا حول كيفية مواجهة الفاشيين، لم أعرف كيف مات ومن أجل ماذا؟ ربما كانت شجاعته جعلتني أبدو صغيراً. ربما لهذا السبب أحمل تجاهه بعض الضغينة. هل فكرت بذلك؟ نعم، هو مات لأجل العدالة في عالمنا... كلهم ماتوا من أجلها منذ زمن طويل وقبل ان يولد سيدك. هل تجرّأ سيدك ان يرفع إصبعه الصغير بوجه الديكتاتورية الفاشية؟ أبداً، ولا مرة. هل قام سيدك أو أبوه بالدفاع عن كل أولئك العراقيين التقدميين الذين سبقوهم وضحّوا بأنفسهم من أجل العدالة؟ أبداً، ولا مرّة. على العكس قالوا انهم ملحدون، ويجب ان يسحقوا باسم الله العليّ القدير.»

ثم ارتفعت نبرة صوته وبدأ يصرخ. «أين هي العدالة في ذلك؟ أين؟... هيا أخبرني! أشعر بالاشمئزاز من كل الأشياء النبيلة التي يقول الناس أنهم مستعدون للموت لأجلها. أعطني سبباً لكي أعيش، لا لكي أموت!»

«رجاءً، جدّي.... إهدأ. الصراخ ليس جيداً لصحتك... لكي تعيش... نعم أتفق معك. هذه هي حقيقة الأمر. أنا أعيش من أجل العدالة، أو في الأقل أسعى لتحقيقها... هل هناك خطأ ما في ذلك؟»

«كلا، لا تعش من أجل العدالة. انها حماقة»، قال لاذعاً. لكنه بعدها بدأ يهدأ، وقال:

«لقد ولدنا على هذه الأرض لكي نعيش. الحياة هي هدية لها غرض واحد، أن نحياها.»

«لكن ألا نحيا من أجل غاية سامية؟»

«عِش من أجل أن ترى الضوء في عينيّ حبيبتك، ولترى جمال سرب الطيور عند الغروب... عِش من أجل متعة النظر إلى الهلال وتذوق عصير الرمان. العدالة ليست سوى وسيلة كي نعيش من أجل هذه الأشياء. انها لا تحل محلها... في اللحظة التي يسعى الناس فيها للعدالة بنفس حماسهم للحياة، فانها تتحول إلى وحش قادر على ارتكاب فضاعات لا تصدق، وهذا المسعى هو جريمة بحد ذاته. ليحمينا الله من رجال يملأهم الحماس من أجل العدالة! عدالتهم هي نذير بالموت! لا تحاول أن تبحث عن تلك العدالة يا ابني، لأنك ان فعلت ذلك ستجد خرقاً لها في أصغر مخالفة، وحتى عندما لا توجد أيّ مخالفة. هذه هي طبيعة الأشياء...»

«أليس من مسؤوليتنا نحن الشيعة أن نصحح الأخطاء التي ارتكبت بحقنا في الماضي؟»

«كيف؟ ليس الماضي سوى قناع من الذكريات التي نشكلها ونعيد تشكيلها في عالم يتغير كل يوم. الماضي يعيش فقط في خيالنا وأحلامنا. ما بك يا ابني؟... انظر إلى نفسك. مقاتل في جيش ينتظر كائناً سحرياً ليخرج من غيبته من أجل تحقيق... تحقيق ماذا؟ العدالة؟ وفي اللحظة التي يظهر فيها، يفترض أن تكون تلك إحدى علامات نهاية العالم. ما معنى تلك العدالة إن كنّا سنزول جميعاً في لحظة ظهورها؟»

المنتظر

انتميت لجيش الإمام لأنني كنت أتوق إلى العدالة. لم أمارس الطقوس الدينية في بيت عمّي لكنني صرت أقوم بها بعد انتمائي للجيش.

علّمنا شيخ مسجدنا المحلي والذي حضرَ اللقاء مع أبو حيدر في بيت عمّي أنّ العدالة هي جوهر الإسلام وليس الحب كما هو الحال في المسيحية. انها العدالة التي تنصف الفقراء والمظلومين الذين مشيت باكياً معهم في الطريق إلى كربلاء قبل ثلاث سنوات وهي العدالة لفلسطين التي ابتلعها اليهود. توطدت روح الأخوّة بيني وبين بقية الجنود بالذهاب إلى الجامع والإصغاء إلى خطب الجمعة، والصوم وتعلم قول عبارات معينة في التسبيح والشكر لله. القتال من أجل العراق هو قتال لأجل العدالة، كما آمن أبي قبلي، وهي تعني محاربة الأجانب الذين يرغبون بالاستحواذ على العراق وعلى بقية البلدان الإسلامية، كما فعل اليهود مع فلسطين.

بقِيّت معي هذه المبادئ وأنا اليوم جنديّ في جيش الإمام أؤمن بأنّ الإسلام بحد ذاته هو العدالة للمسلمين في كل بقعة من العالم. لم أكن وحدي في هذا، بل كان معي جميع أبناء محلتنا الذين يتوقون للعدالة بالدرجة الأولى ومن ثمّ طقوس دينهم والتفاسير الحرفية للنصوص القرآنية. ترعرُعنا في مدينة مقدسة ترك هذا الأثر فينا، وجعلنا مضطرين

لتحمل حماقة الزوار من الريفيين البسطاء. وهؤلاء عندما انضموا إلى جيش الإمام أتوا مع دوافع تختلف كثيراً عنّ دوافعنا.

اختلطت خلال سنوات وجودي في جيش الإمام بأنواع مختلفة من رفاق السلاح. كنت أحسد شخصاً مثل منتصر بسبب بساطة عالمه وشدّة ارتباطه بذلك العالم. أحياناً يحتاج الإنسان ان يعيش الأشياء العادية والبسيطة جداً، ان يراقب أمه مثلاً وهي تنظف غرفته، أو يستمع إلى ثرثرة عمته حول ما تحتاج إلى شرائه من السوق. هذه هيّ الحياة، كان يريد أن يقول لي جّدي. ولكنها اختفت بعد سقوط الطاغية. لم أعد أعيش العادي والبسيط. حالما اندلعت حرب العراقي ضد العراقي في شباط ٢٠٠٦، وبشر بها البعض باعتبارها العدالة المطلقة المفقودة عندنا نحن الشيعة، عندها حلّ محلّ البساطة والعقلانية، نعم والحياة نفسها، تخيلات مخيفة وغريبة ملأت عقول تلك الأرواح البسيطة لتطرد معتقدات سابقة مثل العدالة لفلسطين أو العراق أو الولاء للعائلة والبلد.

«ان سقوط الطاغية هو علامة»، قال لي أحد هؤلاء المجّندين المتحمسين البسطاء. «وصول المحتل هو علامة!»

«علامة على ماذا؟»

«اقتراب نهاية الزمان وعودة الإمام الغائب.»

«هل عاد من غيبته؟»

«نعم.»

«من هو؟»

«لقد عاد بجسد سيدنا... من أجل أن يقيم العدالة المطلقة. نحن جيشه الذي سينتقم من الظالمين. نحن سيفه وصخرته التي سيقف عليها لإقامتها.»

«لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، والاّ لأخبرنا السيد بنفسه.»

«أنا متأكد مما أقوله. إخبرني، لماذا يقوم السنة إذن بتفجير مراقدنا وقتل زوّارنا؟ يريدون قتل سيدنا. لذلك يجب أن نجتثهم... وهناك علامات أخرى لا تحصى...»

«مثلاً؟»

«الفوضى، السيارات المفخخة، إنقطاع الكهرباء، شهداؤنا الشيعة يتراكمون في الطرقات، السنة يخبئون النواصب من الحاقدين على أهل البيت في محّلاتهم وبيوتهم... علينا إجتثاثهم... حتى هذه الحكومة التي هي أكثر فساداً من صدام، لصوص يسرقون بشكل علني... هذه كلها علامات. الدجّال قادمٌ. إنه عائد...»

«من؟»

«الدجّال. ألم يتنبأ السيد صادق بذلك؟»

«لا أدري.»

• • •

شباب صغار، بل صبيان، تملأ رؤوسهم أفكاراً كهذه، هم الذين كانوا في مقدمة من إرتكب عمليات القتل والنهب في صيف ٢٠٠٦. أخبرني شيخ محلتنا، الذي سبق له وحدّثني عن ماضي جدّي الشيوعي والذي كان حاضراً الاجتماع مع أبو حيدر في بيت عمّي، بأنه ليس من الحكمة استعمال العقلانية مع هكذا نوع من الناس.

«ان شكّكت بأي شيء، ابني، أو طلبت تفسيراً عقلانياً له، سيختل عقلك.»

«لكن يجب أن أستزيد في معرفة ما اؤمن به، وان أكون قادراً على أن أفسره لنفسي. حياتي كلها دارت حول طرح أسئلة لا جواب لها.»

«مثل ماذا؟»

«مثل معرفة القصة الكاملة وراء اختفاء أبي. عرفت مؤخراً ان أبي كان صديقاً قريباً للسيد مجيد. كانا كأخوين كما أخبرني جدّي مما يجعل الأمور معقدة بالنسبة لي. هل كنت على علمٍ بصداقتهما يا شيخ؟»

«طبعاً. كانا رجلين طيبين وصديقين. لكنهما ميتان الآن. فلماذا تعذب نفسك في التفتيش في عوالمَ مظلمة قد انقضيت ومضت؟»

«لا أعرف شيخي»، رددت عليه وعيناي تدمعان. «لا أعرف. ربما مازلت أعيش في ذلك الظلام وأطرح أسئلة بحثاً عن مخرج منه، كي أتخلص من الشياطين التي تزورني في أحلامي.»

كنا نتناول طعامنا في بستان نخيل يقع في ضواحي النجف. كنت أحاول السيطرة على مشاعر الفوضى التي تملكتني بالنظر إلى أعلى سعف النخيل كي لا أحرج نفسي أكثر. كانت بداية المساء وشبح الهلال يتغلغل بضوئه بين سعفاتها.

«هل يعتقد سيدنا انه هو المنتظر الذي سيأتي لجلب العدالة الأبدية على الأرض؟» قلت باندفاع.

«لا يعتقد ذلك»، ردّ الشيخ وقد بدأ يفهم ما الذي يجري. أكل اللقمة الأولى من الخبز والجبن الذي كان معه وألمح لي بعينيه كي أبدأ بالأكل أيضاً.

«اذن، لماذا لا يقول ذلك بصوت عال وواضح؟» سألت وأنا اشرع بتناول لقمتي من الجبن محاولا الاسترخاء وأنا أمضغ لقمتي.

«يجب عليه أن يكون حذراً. في حلقات العلم يرفض ادعاءات أنصاره الأكثر حماساً.»

«هو حذر كي لا يخسر جميع المتحمسين له؟»

«نعم.»

«لكن أليس في ذلك بعض الانتهازية!»

«انظر إلى النخلة التي فوق رأسك. انها ليست مجرد نخلة بل هي رمز للراحة والضيافة. يقول لنا الله تعالى ان هذه الأشجار مباركة ولها مكان في الجنة، وهناك ستنتصب قبة الصخرة فوق شجرة كهذه عند منبع أحد أنهار الجنة. النبي غطّى بيته بجريد النخل وأقام أوّلَ مساجده كسقف فوق أشجار النخيل. الا ترى كثرة المعاني في شيء بسيط مثل النخلة؟ لا تقلل من شأن الرموز، فهي التي تقود المتطوعين إلى الانتماء إلى جيش الإمام اعتقاداً منهم انها ستشكل الطليعة التي سيعتمد عليها الإمام عند ظهوره. انها مهمة لبث الحماس في نفوس الجماهير وجعل قلوبهم تنبض بالإيمان. لايمكن الاعتماد على فهم الأمور من خلال العقل فقط، فحركتنا تحتاج إلى الاستفادة من القوة الكامنة في فكرة الإمام المنتظر.»

«هل سنحقق أهدافنا في يومٍ ما؟»

«لا تخلط بيننا وبين الميليشيات الأخرى. نحن جيش أفكار يعطي هيكلاً أخلاقياً يؤطر ويسند حماس المحرومين. حاجة الإنسان إلى أفكار عامة لتبرير نفسه وقضاياه هي واحدة من السمات النبيلة التي منحنا اياها الله.»

«إذن لن يتم حلّ جيشنا أبداً؟ هل سنبقى جنوداً للإمام المنتظر؟»

«ليس قبل ان تتحقق العدالة المطلقة على الأرض. ان قمنا بحلّه

فمعنى ذلك اعترافنا بالفشل. مهمتنا تاريخية تتجاوز المصالح الدنيوية بما في ذلك مصالحنا نحن الشيعة. إنها مهمة إلهية للتطهير يجب أن لا تلوثها تسويات وأنصاف حلول. بيت الحكيم لابد وأن يحل الميليشيا التابعة له حالما يتم دمجهم بالقوات الأمنية الحكومية. ولكن نحن لن نفعل ذلك أبداً. ننتظر الإمام المعصوم فنحن جنوده، ولسنا جنوداً للآخرين. انها فكرة رائعة وعميقة إن فكرت بها ملياً.»

«وهل هناك جانب سياسي؟»

«السياسة موجودة دائماً. لكننا لا نساوم حينما يتعلق الأمر بمقاومة الظلم، كما فعل حبينا الحسين.»

«اذن أين هي السياسة هنا؟»

«ببساطة... في الانتصار. عمّك هو استاذ في ذلك. تريد ان تنتصر، صحيح؟»

«طبعاً... لكنني لم أعتقد ان السلطة بحد ذاتها هي ما نسعى إليه؟»

«لا، هي ليست ما نسعى له. غايتنا العدالة المطلقة، غير المشروطة، ومن ثمّ النصر.»

«وما هي المخاطر على المدى البعيد في الاعتقاد بأن سيدنا مختار من الله؟»

«فكّر بما يمكن أن يحدث إذا مات السيد، لا سمح الله، وكلانا يعرف انه سيموت في يوم من الأيام. مناصرونا من البسطاء سينهارون، لن يتمكنوا من قبول ذلك. نحن نواجه مشكلة كبيرة لأنّ مناصرينا يفتقرون إلى التعليم ومعظمهم أمّيون. هنا تحديداً تكمن أهمية الرجال الاستثنائيين المتعلمين مثلك.»

«أنت تشرفني كثيراً، شيخي. أعتقد أنني فهمت ما تقصد. لكن...»

«ما هو مصدر قوة سيدك، يا ابني؟» قاطعني الشيخ ثم مضى ليجيب على السؤال الذي طرحه.

«فكرة عودة الإمام إلى الظهور تحمل وعداً بانتقام المحرومين من الأثرياء والظالمين. انه وعد الإمام المنتظر المخلّص للمحرومين. من خلاله سيستعيدون حقوقهم وكرامتهم. حتى لو لم يكن سيدنا هو الإمام المنتظر ذاته الآ انه الممهد لظهوره.»

«وكأنّنا عدنا إلى حيث بدأنا؟»

«ليس إن فكرت بقلبك، ابني. دع عقلك يستريح.»

«استعملت كلمة انتقام شيخنا... تصورت انّنا نتحدث عن العدالة؟»

«لا يمكنك ان تصل إلى أحدهما دون الآخرى.»

اسماء الأشياء

رغم اننا كنا أول ميلشيا تظهر بعد سقوط الطاغية، الاّ ان هناك الكثير من الجماعات المسلحة ظهرت بعدنا. عدد كبير إلى الحد الذي اضطرني ان احتفظ بسجلات مبوبة داخل دفاتر مخصصة لتسجيل أسمائها. بدأ كجزء من طبيعة عملي لفهم ما يجري ـ وهو ما توقعه عمّي منّي ـ ولكن مع الوقت حفزني فضولي لفهم غرابة ما يحصل.

• • •

سأبدأ بجيشنا، جيش الإمام المهدي، الذي كان بعض المعاديين له يسمونه بالجيش الوردي، إشارةً إلى حبوب الأمفيتامينز الوردية التي كانت إيران تجهز مقاتلينا بها منذ العام ٢٠٠٦. بعض الجماعات المنشقة من جيشنا أخذت تستقلُ عنا وتنشط. أهم تلك الجماعات هي حزب الفضيلة الذي لديه نفوذ واسع في البصرة ويدّعي أعضاؤه عدم ارتباطهم بالجماعات المعارضة المنفية سابقاً. يجب أن نضيف إليها أيضاً جيش المختار الذي لا أعرف عنه سوى القليل، ومنظمة نسوية تسمى بنت الهدى تدعي انها تابعة لعصبة الهدى وأنهن نساء محاربات تعهدن بالولاء لسيدنا ولبيت الصدر كما أنهن يدعين أنهن قمن بعمليات انتحارية ضد القوات الأمريكية في العراق، وعصائب أهل الحق التي

إنشقت على نفسها فيما بعد، والتي تحصل على كل دعمها وتمويلها من إيران حيث يتلقى مقاتلوها رواتب تفوق ما نتلقاه.

جند السماء المؤمنون بقرب نهاية العالم، يصنفون من قبل البعض كحركة منشقة عن الصدريين، أزيلوا تماماً من على وجه الأرض بقصف جوي قام به الجيش الأمريكي مع وحدات برية من الجيش العراقي الجديد. مازال هناك الكثير من الغموض الذي يلف تلك العملية العسكرية، لكنه يقال أنها استندت على معلومات خاطئة مصدرها فيلق بدر التابع حينذاك لبيت الحكيم. إعتَقَدَ عمّي في حينها ان الحقير الذي فبرك تلك المعلومات كان أبو حيدر بالتعاون مع محافظ النجف وهو أيضاً من أتباع بيت الحكيم. اذعى كلاهما ان جند السماء كانوا فرعاً شيعياً للقاعدة، والمغفلون الأمريكيون صدقوا الرواية رغم معرفة الكل في النجف أن القصة كلها هراء. امّا لماذا لم يدرك المحتل حقيقة الأمر رغم كل المعلومات المتوفرة له، فهذا ما سيبقى أمراً لا يعلمه الأ الله.

كان حيدر قبل القضاء بطريقة مروعة على هذه الجماعة قد اعتاد أن يزور معسكرهم بين الفينة والأخرى من أجل التنفيس عما يشعر به من ضيق، لكن حمداً لله هو لم يكن هناك حين تم قصفهم. بعد ذلك، قام الجميع ـ الأمريكيون، وبيت الحكيم، والحكومة ـ بالتغطية على الفضاعة التي تم ارتكابها. وحده أبو حيدر كان سعيداً لأنّه نجح أخيراً بالانتقام لمقتل نسيبه نجم الدين.

عند تنظيم وتبويب المعلومات داخل الدفتر بدأت بوضع التصنيفات التالية : شيعية أو سنية، إسلامية أو وطنية، عربية أو عراقية أو كردية، سياسية أو إجرامية. لكن تلك التصنيفات كانت عمومية جداً ومحدودة الفائدة. لذلك حاولت ثانيةً تصنيفها على أساس الاتجاهات الفكرية باستخدام ميولها السياسية المعروفة أو التي يمكن تشخيصها عبر بياناتها

وتصريحاتها العامة. لكن ذلك أيضاً لم يفِ بالغرض. ثم حاولت ثالثةً ان أنظم الجماعات المسلحة على أساس نوع العمليات التي تقوم بها: سيارات مفخخة، هجوم مسلح، اغتيالات سرية، انتقام شخصي، عمليات انتحارية، وهكذا. وأخيراً صنفتها معتمداً على موقع الحدث: هجوم في الشارع، أو في المسجد، أو في المستشفى أو في مبنى عام، هجوم على الزوار أم على الموظفين ومن ضمنهم الشرطة... وتستمر القائمة.

وبغض النظر عن الكيفية التي صنفت فيها هذه الجماعات المسلحة، فقد اضطررت لإضافة عمود يختص بالهجمات العشوائية تماماً التي لا يمكن تحديد الغاية منها أو الفكرة التي وراءها. وحالما أدركت ان الهجمات المصنفة كـ «عشوائية» و«مجهولة» و«غير محددة» أخذت تتجاوز في عددها كل الأصناف الأخرى، أصابني اليأس في تصنيف الجماعات المسلحة التي تقوم بأعمال العنف.



لأعُد الآن إلى قائمة الأسماء: منظمات صغيرة لا تتوفر لديّ معلومات كثيرة عنها هي حركة ثأر الله، وكتائب الإمام حسين في البصرة، ولجنة القصاص العادل في مدينة الصدر والتي شكلت لتصفية الشيعة البعثيين في المدينة، وحزب الله ـ فرع العراق (هناك أكثر من حركة تحمل هذا الاسم في جنوب العراق ويجب ان لا يتم الخلط بينها وبين حزب الله اللبناني).

ومن ثم هناك أقدم جماعة مسلحة شيعية في العراق، والتي وُلِدت كحركتنا وحزب الفضيلة من رحم بيت الصدر: حزب الدعوة، الذي ترأس أفراد منه رئاسة الوزراء في العراق منذ ٢٠٠٣. وأقدم جماعة مسلحة تنتمي إلى حزب الدعوة هي قوات الشهيد الصدر. حزب الدعوة

ليس جماعة واحدة بل عدة جماعات، الكل تسمي نفسها بذات الاسم، حيث إن الحرس القديم والقيادة الجماعية أُزيحوا جانباً حالما تسلّم الحزب الحكم في عام ٢٠٠٥. بعدها ظهر حزب الدعوة بثوبه الجديد كتنظيم يعتمد على الهبات الحكومية والعطايا التي يقدمها مكتب رئيس الوزراء. وغالباً ما تساءلت فيما إذا كانت السرعة في عملية شنق الطاغية في كانون الأول ترتبط بالانقسامات داخل حزب الدعوة حينها، حيث كان جناح رئيس الوزراء يسعى لكسب المزيد من المصداقية عبر إعدام صدام حسين. الله أعلم.

وبمعزل عن المؤسسات الأمنية والعسكرية التي يسيطر عليها الحزب كليّاً، حزب الدعوة الحكومي يحاول تشكيل العديد من الميليشيات المنفصلة والممولة تمويلاً جيداً، وكل منها يرتبط برئيس الوزراء ويعمل بشكل سري. ومعروف عن هذه التنظيمات انها تدير السجون وتمارس التعذيب سراً.

تشكل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية عام ١٩٨٢ في طهران من أجل تصدير الثورة الإيرانية الي العراق. قام بيت الحكيم بتشكيله، وخلافاً لبقية الميليشيات الشيعية فإن المجلس لا يدين بالولاء لبيت الصدر. فيما بعد، قام المجلس بتغيير اسمه إلى المجلس الأعلى الإسلامي، مزيلاً كلمة «الثورة»، ليبعد نفسه عن فكرة الثورة الإيرانية. لكن نظرة الناس للأشياء لا تتغير بمجرد تغيير الاسم، رغم أنها كانت خطوة ضرورية لهم في العراق نظراً للتشكك الشعبي تجاه الارتباط بإيران. وفي ٢٠٠٥ قرر المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق اسمياً حلّ ذراعه المسلح، فيلق بدر، ونزع سلاحه وتحويله إلى منظمة للتنمية وإعادة الإعمار، ومن ثم غيّر اسمه ثانيةً إلى منظمة بدر. لكنْ

أحداً لم يأخذ كل هذه التقلبات في الأسماء على محمل الجد، بما في ذلك المحتل الذي كانوا يسعون إلى إرضائه عبر اللعب بالأسماء.

فيلق بدر تحول مع الوقت إلى ميليشيا رسمياً مستقلة، ولكن بالاسم فقط وليس بالواقع، وظلت قوية يسيطر عليها بيت الحكيم. أبو حيدر كان أحد قادتها. هذه هي الميليشيا التي قتلت منتصر عام ٢٠٠٣ حينما حاول سيدنا أن ينتزع السيطرة على ضريح كربلاء منهم، وهي الميليشيا التي أعطت المحتل معلومات مغلوطة قادت إلى تدمير وإفناء تنظيم جند السماء بأسره. قاتل هذا الفيلق إلى جانب الجيش الإيراني في الحرب الكبرى مع إيران، وربما انخرط مع الإيرانيين في معركة الفاو حينما كان والدي يقاتل في صفوف الجيش العراقي ضد العدوان الإيراني. لديهم سمعة سيئة بسبب اتهامات لم تثبت عن قيامهم بقتل الأسرى العراقيين الذين رفضوا تغيير ولائهم بعد أسرهم. بعد الاحتلال في ٢٠٠٣، اشتهر فيلق بدر بالقيام بأعمال قتل انتقامية ضد البعثيين ومسؤولي النظام السابق وضباط الجيش، لكنه لم يطلق رصاصة واحدة على قوات الاحتلال.

يجب أن لا أنسى جماعتين مسلحتين أخريين كان الإيرانيون يسيطرون عليهما: الأولى هي الامتداد في العراق لحزب الله في لبنان والذي يقوده السيد نصرالله. والثانية هي قوات القدس التي تُعد عملياً امتداداً للحرس الثوري الإيراني، الفرع المتخصص بالعمليات الخارجية. وتعمل هذه القوات على نحو شبه سري داخل العراق، وبعلاقة وثيقة مع فيلق بدر، وبتنسيق كامل مع السلطات الإيرانية. لكن من الناحية التقنية هي تعمل كميلشيا شكلياً مستقلة وتقوم بتجنيد المقاتلين وبعمليات عسكرية وكأنها منظمة عراقية. كما انها تقوم بتدريب عدد من الميليشيات الشيعية الأصغر حجماً والتي حظيت بموافقة إيران ويتم

تمويلها من هناك. وابتداء من ٢٠٠٤، بدأت قوات القدس وحزب الله باغراق العراق بالعبوات الناسفة القادرة على اختراق المدرعات الأمريكية، مما أرعب جيش المحتل.

•••

انتقل الآن إلى الميليشيات السنية. أبدأ مع هيئة العلماء المسلمين التي يقودها بعثي سابق، حارث الضاري. يدّعون أنهم لا يمتلكون ذراعا مسلحاً وانّهم يعبرون عن اهتمامات أكاديمية، لكنني شاهدت مئات من المسلحين يقومون بدوريات في مقرهم المعروف بجامع أم القرى (المعروف سابقاً بجامع أم المعارك) حينما زرت المكان في حزيران ٢٠٠٣ (وبعد التحري ثبت ان اسم ذراعهم المسلح هو كتائب ثورة العشرين). يعملون كمضلة سنية كبيرة تقدم الارشاد للتنظيمات السنية المسلحة وبالأخص حركة المقاومة الإسلامية العراقية، وتدعم محاربة المحتل وعملائه. ثم هناك فروعٌ مختلفة لتنظيم القاعدة في العراق من بينها الجماعة الإسلامية المسلحة ـ فرع الفلوجة، والحركة الإسلامية في بلاد الرافدين، وحركة التوحيد والجهاد التي كان يديرها الأردني أبو مصعب الزرقاوي حتى قتله الأمريكيون عام ٢٠٠٦، والآن يقودها شخص آخر اسمه الحركي أبو بكر البغدادي، وهو من مدينة سامراء.

هناك جماعات لا تقل خطورة تحمل أسماء مثل جيش محمد، والجبهة الإسلامية المتحدة لتحرير العراق، وجيش الفاتحين، وجيش أهل السنة والجماعة، وجيش رجال الطريقة النقشبندية (وهي منظمة صوفية يقودها عزت الدوري، نائب الرئيس في ظل حكم صدام)، وجند الإسلام التي تضم في صفوفها عدداً من العائدين من أفغانستان،

والجيش الإسلامي، وأنصار الشريعة، وجيش العزة والكرامة، وجنود الصحابة (الذين ذاع صيتهم بعد تفجيرهم لمسجد شيعي في السيدية)، ومجلس المجاهدين، والامارة الإسلامية في العراق، وحماس العراق، وأنصار الإسلام، وجنود الله، وجيش أبو بكر الصديق، وفيلق اسود البراء بن مالك الانتحاري، وجيش أسود الوحدة الإسلامية، وجيش الرعد، وأنصار أهل السنة، وفيلق الوحدة الإسلامية لسيف الحقيقة، وأنصار اللواء الاستشهادي، وجيش أم المؤمنين، ولواء الغضب الإسلامي، وحركة الجهاد، وحركة الرد الإسلامية، وسرايا الغضب، وجيش عمر بن الخطاب، وفيلق عمر الذي هو تنظيم سني شديد التطرف ليس له علاقة بجيش عمر. وقد استثنيت بقايا حزب البعث، مثل فدائيو صدام، لأنهم فقدوا قيمتهم أو تحولوا إلى منظمات بأسماء أخرى، من بينها منظمات سبق وأن ذكرتها.

غالباً ما كان للمنظمات الشيعية والسنية عدة فصائل عسكرية وبأسماء مختلفة. أحياناً يقوم الفصيل بتغيير اسمه بعد القيام بعملية فاشلة لا يريد تحمل مسؤوليتها، وقد تغاضيت عن الأسماء الإضافية لتلك الفصائل دون ان ادّعي بأنني عددتها جميعاً. كثير من الجماعات المسلحة القائمة أو التي اختفت لم أعرف عنها أيّ شيء سوى الاسم: أمناء الصحوة، أبناء الإسلام، جنود الإسلام، أنصار الجهاد في العراق، أنصار السنة، أنصار ابن تيمية، تنظيم الوحدة والجهاد، ثوار الأنبار، جيش عمر، قوات الخندق للجهاد، قوات رسول الله، قوات الفاروق، كتائب الحق المبين، كتائب الزلزال، قوات الله أكبر، الخ.

من المستحيل إدراج كل الأسماء. هل لك أن تعُدَ حباتِ الرمل على شاطئ دجلة؟

اهمية أن يكون اسمك عمر

لديّ صديق طيب تعرفت عليه في بغداد عام ٢٠٠٦ اسمه عمر، وهو اسم مكروه عندنا نحن الشيعة، رغم أن اسم أبيه هو علي واسم عمّه عباس، وكلاهما اسمان يعظمهما الشيعة. وهذا الاسم سبب له الكثير من المشاكل. لم يواجه أبيه وعمّه أي مصاعب وهما يتجولان في شوارع بغداد التي سيطرنا عليها عام ٢٠٠٦، لكن المسكين عمر بقي يلازم البيت خوفاً من قتله بسبب اسمه. بكلمات أخرى، لم يظهر عمر على ما كان عليه في الحقيقة؛ ظهر على ما كان يراه الآخرون فيه. حينما يرى جندي في جيشنا الاسم عمر، أثناء تفتيش اعتباطي في واحدة من مئات نقاط التفتيش التي نصبناها في شوارع بغداد على سبيل المثال، يختفي الإنسان الحقيقي من أمامه، بما ذلك صديقي العزيز، ولا يبقى سوى اسمه الذي يعود إلى ثاني خليفة راشدي بعد الرسول، عليه السلام، الذي تعلّم هذا الجندي من شيخه ان يكرهه ويلعنه عدة مرات في اليوم ليحصل على الثواب، وكلما لعنه أكثر زاد ثوابه.

لذلك يبدو انه حينما يكتسب اسماً ما دلالة معينة في ذهننا، فإن أي شيء أو شخص يحمل هذا الاسم، مهما كان جميلاً أو ورعاً، سيغدو إنعكاساً لتلك الدلالة. ليست هناك عدالة في ذلك، كما ثبت في حالة المسكين عمر، الذي كان يحتمل ان يثقب رأسه بالثاقب الكهربائي ان تم إلقاء القبض عليه في إحدى نقاطنا للتفتيش، أو إكرامه بأكواب من

الشاي لو تم تفتيشه في إحدى نقاطهم للتفتيش. كل ذلك يدل على أهمية الأسماء التي تعطى للأشياء.

حينما انتظمتُ بجيش الإمام للمرة الأولى، لم انتبه لاسم حركتنا، ولا لأسماء الجماعات الأخرى. كان رأيي انه «مجرد اسم! ما قيمة الأسماء بأي حال؟» ولكن بعد محادثتي مع الشيخ عن جيشنا، وملاحظة كيف أن بعض أعضائنا يتصورون أن اسمنا هو علامة على نهاية الزمان، صرت أهتم أكثر بالأسماء. ما الذي تعنيه تلك الأسماء؟ هل يدّل الاسم على طبيعة الشيء، أم انه مجرد رمز غير مهم، جاء بالمصادفة ولا علاقة له بطبيعة المُسمى؟

أتذكر في طفولتي كنت أتخيل الأشخاص عبر أسمائهم. تصبح خصائص ذلك الشخص متصلة باسمه. فمثلاً، اسم صدام يعني الشخص الذي يجابه ويتغلب على الصعاب. ذهلت في حينها لمدى التطابق بين الطاغية الكبير واسمه الذي اكتسبه عند ولادته. طبعاً ليس هناك أب يعرف نوع الابن الذي سينجبه. إذن كيف حدث وتطابقت الشخصية الداخلية للطاغية مع اسمه بهذه الدقة؟ كان ذلك أحد الأشياء الغامضة والعجيبة التي طالما انشغلت بالتساؤل والتفكير بها وأنا أكبر. لذلك، لو حدث وتمت تسمية مولود جديد من جيل أبي باسم صدام، فسأجد نفسي مضطراً إلى النظر إليه وكأنه أيضاً قاتلٌ صلفٌ وطاغية يقسو ويقتل كصدام.

الاسم، علّمنا الشيخ الطيب في محلّتنا، هو علامة تشير إلى معرفة ما هو مُسمى؛ غرضه الامتياز. لذلك شعرت بالقلق وأنا أرى في دفاتري انه كان هناك ٢٦٨ تنظيماً مسلحاً منفصلاً ناشطاً في مرحلة ما بعد صدام بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٦، وجميعها حملت اسم الله أو أحد اسمائه الـ ٩٩ الحسنى، أو اسم نبيه أو صحابته. وهذه التنظيمات الـ ٢٦٨ ارتكبت

ما معدله ١٠٦ هجمات يومياً في العام ٢٠٠٥، وفقاً لإحصاءاتي. أهناك تناقض، سألت نفسي، بين كل هذه المفترضات والمشتقات والاستنتاجات على اسمه تعالى، وبين ما يفعله هؤلاء من أعمال عنفٍ وتدمير؟

كان شيخنا يستمر بالقول إن الماضي والحاضر والمستقبل كلها مضمونة في داخلِ الاسم الواحد. فهو - أي الاسم - قد يشير إلى شيء موجود، كالدين، أو غير موجود، كالعدالة في العالم. حينما يقسم الناس باسم الله، فإنهم يفعلون ذلك لأن أسماء الجلالة والنبي وإمامنا المنتظر كلها لايمكن تكرارها كفاية، وهي المفروض دائماً مليئة بالجمال والأشياء الحسنة، وخاصةً القدسية. فماذا عن كثرة الاستعمالات لاسم الجلالة من قبل كل هذه المنظمات المسلحة؟

ولكن، قلت لنفسي بعد الكثير من التأمل والتفكير، ان المعايير لا بد وان تختلف مع التنظيمات التي تأخذ اسم الجلالة عبثاً، وتعيد استخدامه مراراً وتكراراً، وثم تقتل وتسرق وتدمر. التضخيم والتكرار والمبالغة في استخدام اسم الجلالة، ومن ثم القتل والتجريح والتدمير، أيضاً باسمه، لا بد ان يتحول إلى نوع من الكفر. لا أعرف أيّ نوع، لكن أستطيع القول لا بد أن يكون أحد أنواعه. هذا لأن - كما قال شيخنا - لا بد وأن يبقى جوهرٌ ولو صغير للغاية، من اسمه تعالى، ولو كان هذا الجوهر ممسوحاً مسحاً شبه كامل نتيجة كل هذه الأعمال المقرفة، ممسوحاً إلى الحد الذي يمكن القول إن لا شيء بقي - عدا الاسم. في هذا الاسم، ولو كان وحده ما تبقى، توجد خيوط رفيعة من الذكريات العتيقة التي تشير إليه، سبحانه وتعالى رب العالمين. الخطأ الذي يرتكبونه إذن هؤلاء المضخمون والمبالغون باسمه انهم نسوا انه يبقى أثر منه دائماً في الاسم الذي اقتنوه عن باطلٍ، وهذا الأثر المندثر

من اسمه تعالى، مع كل التضخيم والتكرار والمبالغة في القتل والتدمير، قد تحول إلى رفضٍ للمسمى الذي هو الله الخالق القدير. الدلالةُ إذن ليست فقط لأهمية الأسماء التي تُعطى للأشياء، وإنما كون الإفراط والتضخم بأسماء الله سبحانه وتعالى هو بنفسه يشكل إهانةً كبرى له.

• • •

قدمت لعمّي تقريراً عن نتائج بحثي حول الـ ٢٦٨ تنظيماً مسلحاً التي نشطت في العراق بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٦. أرفقت معه عدة إحصائيات أخرى عن الضحايا والعمليات المسلحة في مناطق مختلفة وانهيار الخدمات في بغداد، والانقطاعات الكهربائية المتزايدة. قام بتصحيح وتعديل بعض تلك الأسماء، وراجع منهجيتي، وكان في العموم مرتاحاً لعملي، ولكني أحسستُ ان النتائج فاجأته.

نهض من كرسيه وطلب مني الجلوس على الأريكة المجاورة معه. كان هناك صحن مليء بالرمان على الطاولة المجاورة مع أطباق وسكاكين صغيرة. «جاءت من شجرتنا في البيت إلى هنا مباشرة»، قال عمي وهو يلتقط أكثرها احمراراً واحتواءً على العصير، وقدمها لي. قمت بتقسيم الرمانة إلى عدة أجزاء كما علمتني أمي. أخذ واحدة منها وأشار عليّ بعمل الشيء نفسه. أكل الرمانة يتحول أحياناً إلى عمل فوضوي، لكن ليس إن كان الشخص متمرساً على ذلك كما كنّا جميعاً في بيت عمي. الفن الرئيسي في هذه العملية هو في كيفية إخراج حبوب الرمان باستخدام الأسنان واللسان، بينما يتم استخدام اليد لتدوير القطعة من جهة إلى أخرى. إنه أمر يحتاج إلى تنسيق بين اليد والعين والأسنان واللسان، وكان عمّي يحب أن يتناول الرمان بهذه الطريقة.

«عمل ممتاز، يا ابني... ممتاز. لماذا لا أراك أكثر هذه الأيام، يجب أن نغير ذلك. كيف حيدر؟ ما أخباره؟»

«لم أستطع العثور عليه. لقد فُقِد في مخاض وثنايا الحرب في بغداد.»

«ربما لا يريدك أن تعثر عليه؟»

«أتصور أنك على حق. لم أخبرك من قبل عمي، حيدر فعلاً قتل نجم الدين. آسف لأنني لم أقل الحقيقة من قبل. لقد أخذ يتجنبني منذ الاجتماع مع أبيه.»

«هذا ما خمنته. إن عثرت عليه، تحدث معه. لقد أصبح مهووساً بالقتل. يقلقني هذا.»

«بالتأكيد. عمي، هل يمكنك أن تخبرني ما هي استنتاجاتك وآراؤك بعد قراءة التقرير؟ لقد أربكتني المعلومات التي دونتها.»

«طبعاً عليها أن تفعل ذلك. يمكنك ان تعيش مع القنابل والقتل والفوضى... قد تقنع نفسك بأن الأمور ستتحسن... لكن ما كل هذا! عوالم من الرعب تحوم بيننا! شيء مخيف حقاً». قال هذا وهو يهز رأسه مشيراً إلى الأوراق التي أعطيتها له.

«ما الذي تعنيه كل هذه الأرقام والأسماء ياعمّي؟»

«نهاية العراق، ابني... على أية حال، العراق كما عرفناه أنا وأنت.»

«لا، لا أصدق ذلك.»

«حالما سقط صدام، بدأ يتغير العراق... أنت تغيرت، السيد تغير، حتى أنا تغيرت.»

«كيف تغيرنا؟»

«عالمنا أصبح جديداً علينا. يريد الجميع أن يحكموا الآن، رغم أن لا أحد يمتلك ما يكفي من القوة ليفعل ذلك.»

«سيظل الجميع يتقاتلون اذن.»

«بالضبط. ومن سيبقى سيمتلك خرابة. ملك جالس فوق الأنقاض. لن يكون هناك بلد ليحكم... فقط موتى.»

«ميتون شيعة أم سنة؟»

«ليس للميتين طائفة.»

«هل العراق هش إلى هذا الحد؟»

«العراق مجرد اسم، ابني، لم يعد موجوداً كفكرة، فما بالك به كأمة. اسم... اسم آخر لتضيفه إلى الـ ٢٦٨ اسماً التي أعطيتني تقريراً عنها. كم أتمنى أن أقول شيئاً مختلفاً، لكنني لا أستطيع. ربما هشاشة البلد هي التي جعلته دائماً بحاجة إلى رجل قوي لكي يحكم مكوناته المختلفة. لكن الآن، حتى الاسم أخذ يختفي وبسرعة مخيفة. لاحظ، ليست هناك منظمة واحدة في قائمتك تشير إلى شيء اسمه العراق. لم يكن الأمر كذلك في الماضي.»

كان يشير إلى قوائم الأسماء الملقاة فوق طاولته، ثم التفت نحوي قائلاً. «على قلبك الآن أن يستوعب ما اكتشفه عقلك. علينا الآن أن ننسى كل ما تعلمناه، وأعتقدنا أننا نعرفه جيداً، لكننا ربما في الحقيقة لم نكن نعرفه.»

«كلامك كله ألغاز، عمي. لم أعد أفهم ما تقصد.»

«لكل فكرة نعتنقها، هناك واقع مطابق لتلك الفكرة التي تنبع الفكرة منها. وهذا الواقع يفسر تأثير الفكرة على مخيلتنا. العراق هو هكذا فكرة. عشية سقوط الطاغية كانت الفكرة لا تزال حيّة، بالكاد حيّة لكن حيّة،

رغم ما عانته من الإساءة على يد الطاغية. فكر بالعراق، الفكرة الكامنة في الاسم أقصد... فكر بها وكأنها سلةٌ من الأفاعي، بحيث إن رفعتَ الغطاء عنها يعني أنك أطلقت سموم قاتلة داخل غرفة مليئة بالناس. هكذا كان وضع الفكرة عشية سقوطه. مع ذلك، كانت الفكرة موجودة، كسلة مغلقة، وكان ممكناً نظرياً على الأقل رفع الغطاء والتعامل مع تلك الأفاعي الساكنة فيها بمهارة، بحيث تعود إلى السلة الواحدة تلو الأخرى.»

«ليس قتل الأفاعي، بل إعادتها إلى السلّة؟»

«تلك الأفاعي هي نحن يا ابني. أنت، أنا وكل هؤلاء الناس المنتمون إلى الـ ٢٦٨ منظمة مسلحة»، قال ويده تلوح إلى خارج الغرفة. «كيف تقتلهم؟ ثقافتنا نحن الأفاعي كانت دوماً ثقافة القبور والأضرحة، ثم غسل الموتى وتحجيب النساء. ليس لدينا شيء آخر. السياسة الجيدة في مثل هذه الظروف تقوم على ذكاء وفنّ إعادتنا إلى السلّة، وهذا سيكون أحسن شيء يمكن عمله بعد رفع الغطاء. لكن ما حصل فعلاً، وهذا معنى كل أرقامك وتقريرك، هو اننا لم نرفض العودة إلى السلّة، بل السلةُ بأكملها. رميناها بعيداً...»، قال باستياء وبصوت متعب، «بعد أن مزقناها تماماً.»

«والعراق؟»

«بات سؤالاً لنفسه.»

ابو منتصر

لو كان الضابط قد نادى «أبو أحمد»، على سبيل المثال، ما كان سيجذب انتباهي. لكنه صرخ على الجايجي، «أبو منتصر! شاي! المزيد من الشاي! إسرع!»

دُعيت للمشاورة في المقر الرئيسي لجيش الإمام شرقي بغداد. كنّا مجموعة من المقاتلين ذوي مهارات مختلفة، متظرين في غرفة الجلوس المجاورة لغرفة المقابلات التي يستخدمها قادتنا الكبار. دعينا لهدف اختيار المجموعة التي ستقوم بمرافقة الطاغية عند تسليمه إلى الحكومة العراقية. كانت وظيفة أبو منتصر هي الأدنى في المقر بأكمله: صنع وتقديم الشاي وخدمة الضباط التي تتطلب الهرولة المستمرة ما بين المطبخ وبين هذا أو ذاك الضابط، كلهم ينادون عليه، وأحياناً بنفس الوقت، ودائماً بأصواتٍ خشنة، طلباً لمزيدٍ من الشاي.

اسم منتصر هو واحد من أقل الأسماء شيوعاً بين الشيعة. قد يؤخذ الاسم بمعناه الحرفي، او، كما في حالة أبو منتصر، يرتبط بحرب الثماني سنوات مع إيران التي كنا جميعاً سعيدين لنصرة أهدافها خلال حكم الطاغية. تغيرت الأمور الآن، وأصبح الاسم منتصر، مثله مثل الاسم عمر، عبئاً على صاحبه، ليس فقط لأن العملاء الإيرانيين صاروا في كل مكان، بل وأيضاً لأن بعض جماعاتنا قد يغضبون ويسيئون إلى

صاحبِ الاسم ذي الدلالة البعثية، كون اسم منتصر يعني الانتصار في الحرب على الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

اتجهت نحو الجايجي وسألته إن كان قد اشتغل سابقاً في بيع المشروبات الغازية على الطريق بين كربلاء والنجف، وما إذا كان لديه ابن أكبر منّي ببضع سنوات. إندهش وأظهر سعادته لأنّ هناك من يعرف شيئاً عنه، وقال ان ابنه، منتصر، قتل في العام ٢٠٠٣. قلت له ان منتصر لم يكن صديقي فقط، بل انني كنت بصحبته حينما توفي. احتضنني بقوة والدموع في عينيه.

وحين انتهى احتضاني له بقي ممسكاً بيدي وأنا أنظر لكثرة خطوط وجهه المجدور، المليء بالألم والبساطة، بل وحتى الجهل لما يدور حوله في هذا العالم ـ بدا لي في تلك الوهلة وكأنه وجه الطيبة البشرية بذاتها، وقد أشرقَ فجأةً بابتسامةٍ وعينين لامعتين مغروقتين بالدموع. ترى لماذا أشرقت؟ ألكونه إلتقى بصديق لابنه؟ سألته عمّا يفعله هنا ومتى انضم إلى جيشنا. أجابني انه انضم بعد فترةٍ قصيرة من وفاة ابنه قبل عامين ونصف، وقد حُوِلَ إلى هذا المقر في بغداد قبل فترةٍ وجيزة.

«لماذا؟» سألته، وأنا مستغرب أن رجلاً كبيراً في السن مثله يفكر بالانضمام إلى جيشنا، بل ويتم قبوله. «لأنتقم لابني»، أجابني بيقين، مشيراً بالطبع إلى بيت الحكيم الذي كان مقاتلوه قد نجحوا في صدّ هجومنا الفاشل على مقرهم في ضريح كربلاء، ممّا أدّى إلى مقتل منتصر.

تحدثنا عن منتصر وكيف مات ـ وقد تجنبت التفاصيل المحزنة ـ وعن الاحترام العميق الذي يكّنه لأبيه، وعن بسطاله الأسود العزيز عليه ـ والذي، نعم، كان قد ارتداه حينما جاء إلى مركز التطوع ـ وعن وطنيته وروح التضحية التي تمتع بها، واحترامه للآخرين، خصوصاً

رفاقه في السلاح. لكن قبل كل شيء تحدثنا عن حبه للعراق، وهو شيء أدركت سريعاً ان منتصر ورثه عن أبيه. لم يكن حبّا مجرداً ونظرياً، بل كان حبّا مرتبطاً بالمكان، بشارع عاش فيه، أو محلّ لبيع الخضروات كان يزوره، بالمحلة التي سكن فيها، وحتى بمنطقة الأهوار الجنوبية التي قام الطاغية بتجفيفها. أخذ يتحدث حتى عن النباتات التي زرعها منتصر تحت بستان النخيل على مقربة من بيتهم القديم (الذي استحال إلى انقاض الآن)، والكلب الذي احتفظ به منتصر لكن أباه أخفاه عن عيون الجيران الذين يعتبرون الكلاب غير نظيفة.

ثم فجأةً وهو يتكلم بشغف، خطرَ ببالي ما عليّ فعله: عليّ ان أعطي أبي منتصر البسطال الأسود الذي منحه ابنه لي. سأرجعه إلى مالكه الأصلي الذي لم يعد لديه شيء آخر يذكره بأبنه. طبعاً لم يقبل للوهلة الأولى، وأصّر على القول انها رغبة ابنه بمنحي البسطال وأن عمره تجاوز سن القتال، وان البسطال في العموم لم يكن مريحاً ويسبب تقرحات في القدم... كلها كانت إعذاراً ولكن على الرغم من ذلك، شعرت خلالها انه سعيد بالفكرة.

أصررت على أن منتصر أعطاني البسطال ليس كهدية بل من باب الثقة - كانت كذبة، ولكنها كذبة بيضاء - وأنه طلب مني أن أسلمه لأبيه إن جمعتنا الأقدار يوماً، وان عملي أيضاً حولني إلى إنسان متجول، يتنقل من مدينةٍ إلى أخرى، ومن بيتٍ إلى آخر، ولذلك لا يستطيع حمل الكثير معه، ولكل هذه الأسباب، هو في الحقيقة سيكون صاحب الفضل عليّ بقبوله البسطال، وليس العكس، لأنه قد ساعدني على الوفاء بوعدي لابنه.

في النهاية وافق أبو منتصرعلى أخذ البسطال، وشكرني كثيراً ووعد بإخبار أخته وعائلتها وشيخ الجامع المحلي بأن وصيته ووصية ابنه هي

ان يعاد البسطال إليّ عند وفاته. شكرته وقلت له ان ذلك يشرفني كثيراً. أصرّ على ان اكتب له عنواني على ورقة ـ لا أعتقد أنه يعرف الكتابة ـ وسيقوم بإعطائها إلى أخته كي تنفذ الوصية. سجلتُ عنوان بيت عمّي في النجف.

انتهت مقابلتي مع لجنة الاختيار وتم إلحاقي بالوحدة التي وكِلَ إليها حراسة الطاغية، ومن ثم طلبت من أبي منتصر ان ينتظر لبعض الوقت حتى أسرع إلى مكان سكني وأعود إليه بالبسطال. انتظرني لحين عودتي، وكان جالساً على الدرج الذي يؤدي إلى البناية الكونكريتية التي استخدمناها كمقر لمكاتبنا في مدينة الشهيد الثاني، مدينة الصدر، وكانت المقابلات قد انجزت وغادرت كبار الشخصيات المكان.



بعد أسابيع قليلة، فكرت بالقيام بزيارة مفاجئة إلى أبي منتصر في محل عمله. كنت ماراً في المنطقة ولم يكن لدي أي التزام محدد، شعرت انها ستكون بادرة لطيفة. لكنه لم يكن هناك، وقد حلّ محلّه شاب حافي القدمين يرتدي سروالاً ممزقاً وقذراً، يقوم بتقديم الشاي مستخدماً ذات الغلّايات وقوري الشاي الذي يستخدمه أبو منتصر.

سألت عن أبي منتصر وقيل لي انه ذهب برحلة قبل جمعتين مع أخته وابنتيها الصغيرتين إلى مدينة النجف وهو يقود سيارة سكودا روسية عمرها عشرون عاماً، حيث أدوا الزيارة لضريح الإمام وقضوا الساعات بعد الظهر مع الأطفال في فناء الضريح. وفي طريق العودة صادف نقطة تفتيش للجيش الأمريكي، لكن بسبب ضوء الشمس الساطع على عينيه، لم يتمكن من رؤية نقطة التفتيش في الوقت المناسب، أو لم يتمكن من

رؤيتها بالسرعة اللازمة، بل وعلى الأرجح لم يفهم - ولا أيّ منّا كان يفهم - الإشارات اليدوية والصوتية التي ابتكرها المحتل من أجل تخفيف سرعة سير السيارات لإيقافها. قام الجنود الشباب المارينز من ذوي العيون الزرق، بفتح نار رشاشاتهم متصورين أن انتحارياً يقود السيارة (مظهر سيارة السكودا لم يغير شيئاً لأن هذا السيارات القديمة كانت تستخدم بكثرة في العمليات الانتحارية). ترنحت السيارة المتهالكة أصلاً إلى جانب الطريق واصطدمت بحاجز كونكريتي ثم انفجرت مما إحرقت كل من فيها في الحال. تم التعرف على هويات المسافرين عبر لوحة السيارة. بعد بضعة أيام جاءت قوة أمريكية تتكون من عدة مركبات همفي إلى بيت أخت أبو منتصر لتقديم العزاء، مع رزمة من الدولارات التي أخذها زوج أخت أبو منتصر.

حيدر

في النهاية وصل حيدر إليّ قبل أن أصِلَ إليه. لقد شاخ بشكل غير طبيعي في ثلاث سنوات، هذا ما خطر ببالي وأنا أرى الخطوط الجديدة على وجهه.

حضنني بقوة مقبلاً وجنتي، وبادلته الشيء نفسه والدموع تنهمر من عيني. استغرق الأمر عدة دقائق قبل ان نتوقف عن ذلك، ولكن بقي كل منّا يمسك كتف الآخر بقوة. قلت، «يا الله، كم إشتقتُ لك جداً. أين كنت؟ لماذا كنت تتجنبني؟»

تطلع نحوي بهدوء، وقد عاد الشباب إليه لوهلة، وقال، «لم استطع... أعني رؤيتك.»

«رؤيتي؟ حيدر عزيزي، انا... لقد مشينا على النار سويةً.»

«أعرف صديقي، أعرف... لهذا السبب شعرت بالذنب كثيراً... أنت وقفت معي دائماً كما حصل في ذلك الاجتماع البغيض...إن شاء الله ستخلد روح ذلك الرجل في النار إلى الأبد.»

لم يستطع ان يرغم نفسه على النطق باسم أبيه. «طبعاً أقف إلى جانبك...» قلت، «ما الذي كنت تعتقده...»

«أعرف انك لن تتخلى عنّي. ليست تلك هي المشكلة. انا... كيف أقولها... كنت أشعر بالخجل أمامك، رغم معرفتي انك لا تصدر حكماً

علي... لكننا نعرف بعضنا بشكل وثيق جداً»، قال وهو يصدر ضحكة صغيرة.

انهمرت دموعي وأنا أطوقه بذراعي وكلي آسفٌ على ما آلت إليه أمورنا.»

في وقت لاحق مساء ذلك اليوم، وبعد عشاء ثقيل في محل كباب قرب بيته، عدنا للحديث في السياسة. ذكرت ما كان يحصل في بغداد من تطهير للأحياء السنية، و«الشائعات المشينة» عمّا كان يقوم به، والتي رفضتها في كل مرة جاء ذكرها، قلت له.

«عن أي شائعات تتحدث؟» سألني.

«يتبادل الناس قصصاً عن قيامك بإرعاب سكان تلك الأحياء وتعذيب السجناء السنة مستخدماً الثاقب الكهربائي.»

لم يُبدِ غضباً تجاه ما قلته كما كنت أتوقع منه.

«ليس هناك ما اعتذر عنه، ولا أنت صديقي، لا تعتذر نيابة عنّي. مصلحة الجماعة تستدعي أحياناً القيام بأشياء فظيعة.»

«حيدر، لا أفهمك... نتحدث عن عراقيين مثلنا. معظمهم أبرياء من التفجير والقتل الذي يحدث باسمهم.»

«لقد انقضى زمن النحيب واللطم. براءتنا ذهبت. نحن الشيعة غالباً ما كنّا نفتقر إلى العزم والنزعة الذاتية لندافع عن كرامتنا، وللشجاعة لنتجاوز ضعفنا. لكن الظروف غيرتنا. نحن شيعة الآن، أولاً وأخيراً وقبل كل شيء!» قال بصوتٍ يرتفع تدريجياً. واستمر قائلاً:

«نحن شيعة أولاً ثم عراقيون ومن ثم عرب! كل شيء أصبح خياراً بين الموت والحياة... يجب أن نتحرك، ونواجه أعداءنا الذين لطالما تحركوا ضدنا، ونتحرك بحماس وقوة. سيكون الصراع حول من يحكم

من دموياً. وليس هناك من طريق غير النصر أو الهزيمة. انها حالة حرب ونحن طائفة تحارب أخرى. امّا اختيار الحياد وذرف دموع التماسيح على تصاعد العنف فإنه، في هذه الأيام، وهذه المرحلة، خيار غير أخلاقي، بل دعني أقول انه خيانة. هل تريدنا ان نعقد صفقةً مع قوى الظلام؟»

«لكننا سنخسر هكذا حرب، صديقي العزيز»، قلت بصوتٍ عالٍ ملوحاً بيدي في الهواء. «سيخسر الجميع... لا بد أن تكون هناك خطة، أساس أخلاقي نسند أعمالنا إليه. هنالك بالتأكيد قوانين يجب أن نراعيها... هناك دستور...»

«دستور! لا يعني شيئاً»، قاطعني بذات الحماس، «مجرد كلماتٍ على ورق، لا قيمةً لها حينما تكون هويتك وحقك في الوجود في خطر. حينما انضممنا إلى جيش الإمام نفضنا أيدينا من تلك القوانين التي تتحدث عنها. اننا الآن نطيع قانوناً أسمى. بأي حال، إن كانت هنالك قوانين ودستور، أين هي الدولة التي تطبقها؟ ألا تحتاج القوانين إلى العنف كي يتم فرضها؟ ان لم تكن هناك دولة، ما الذي علينا أن نعمله... قل لي... لماذا تتردد؟... دعني أقُلها نيابة عنك: نفذ القانون بيديك، قم بالعنف بنفسك، سمِّه دفاعاً عن الذات إن شئت.»

«هل تقول بأن بوسعنا أن نقوم بأي شيء نريده وانّ أي شيء يُفعل تجاهنا، بالمقابل، مشروع؟ ما الذي سيضع نهاية لكل ذلك؟ لا يمكن للعنف أبداً أن ينهي نفسه بنفسه.»

«لم يطلق سيدنا علينا تسمية جيش الإمام المنتظر من فراغ. نحن جنود لديهم رسالة، ورسالتنا تقوم على فكرة عودة الإمام ومعه قيام العدالة المطلقة، غير المشروطة بأي شيء. علامات هذه العودة في كل

مكان. كل ما نقوم به في مثل هذه الظروف ينطوي على مخاطر. لكن الخطر لا يعني بانَّ علينا ان نتردد أو نراوغ خوفاً من إفراطنا بالعنف أو، لا سمح الله، خوفاً على مصيرنا من العنف المقابل. انا اتقبل المخاطرة التي تحتضن العنف بكل سرور، وأقبل الحكم والشرعية لكل ما قمت به، وهذه الشرعية ستضفى علي فقط عن طريق العنف.»

«أنت تقول ان العنف بذاته يمكنه ان ينجح في تحديد الصواب والخطأ.»

«ليست مسألة صواب وخطأ ـ ولا أعتقد أنّنا نختلف حول ذلك ـ بل المسألة إن كان ذلك العنف الذي نمارسه قادر على حسم صراع الحياة والموت الجاري الآن لصالحنا. هذا هو السؤال الوحيد المشروع. لا أمتلك جواباً بعد. سيأتي الجواب مع الزمن. لكنني أعرف ان ما أقوم به، وما تقوم به أنت، سيحدد المستقبل غداً. نحن الشيعة الآن نعيد صناعة أنفسنا وهويتنا من خلال هذا الصراع. ان ربحنا فأننا سنولد أحراراً من جديد، وسنتخلص أخيراً من قرون طويلة من الخنوع الذي ظل يطوقنا. نحن على وشك ان نقف بقامات عالية، فخورين بما نحن عليه، نتوقف عن النحيب واللطم كما تفعل العجائز في الجنائز. في مثل هذه الأوقات، أخشى أن أشخاصاً طيبين مثلك لا مكان لهم في صراعنا هذا. وحدها الأفعال وعلاقات القوى على الأرض هي التي تقرر المصير.»

«أصغِ لنفسك حيدر! العنف ليس خلاقاً لشيء، بل مدمر للنفوس وللدنيا. يصنعُ الوحوش ولا يصنع أبطالاً». أخذت برفع نبرة صوتي، وكنت أشعرُ وكأنَّ جدي يصغي إليّ الآن. «تتحدث عن حسم الأمور لمصلحتنا نحن. عن أي «نحن» تتحدث؟ سينتهي الأمر بنا إلى أن نكون

مثل الأفعى التي تأكل ذيلها. كيف يمكنك أن تربح ضد نصفك الآخر؟ ألم نقاتل جنباً إلى جنب مع السنة حينما حاربنا المحتل في النجف قبل عامين؟ ألم يقفوا إلى جانبنا حينها؟»

«ذلك يعود إلى الماضي حينما كانت توحدنا كراهية المحتل. أمّا الآن فنحن بحاجة إلى أن نولد كشيعة مجدداً، صديقي»، ردّ حيدر، وهو يخفض صوته دون أن يغير خطابه، «من أجل أن نولد كعراقيين غداً. مع سقوط الطاغية وانسحاب المحتل، اكتشفنا نحن الشيعة معنى وجودنا على هذه الأرض، والاتجاه الذي يجب أن نأخذه كطائفة من أجل أن ننفذ الوعد الذي تقتضيه عودة الإمام. نقاتل من أجل ذلك المعنى. لم يعد الأمر يتعلق كثيراً بوجود المحتل. بالضرورة هو قتال بين العراقيين بدأ به أعداؤنا، كارهو الشيعة. ليس لدينا من خيار سوى ان نرد عليهم حتى النهاية. في القتال لا مجال لأن نكون بالغي الحساسية تجاه الخطأ وممارسة التجريب من خلال الكلام والدبلوماسية. انتصارنا سيحولُ جرأتنا إلى نظام جديد عادل. ثم وبعد أن ينتهي كل شيء، أعدك صديقي، سوف تجدني أندفع إلى الخط الأمامي، أقف بين يديْ إمامي المنتظر، وأترك له الحكم على ما فعلته باسمه.»

لم يتحرك موقفه قيد أنملة. كلماته كانت كالأسمنت، خالية من التساؤلات التي كان يحملها سابقاً، بعد لقائه بالشيخ المجنون الذي حمل أفكار السيد صادق إلى أقصى التطرف والسخف.

«اذن، قل لي صديقي العزيز، أنت سعيت إلى لقائي... تعرفني جيداً... لابد وأنك تعرف ما سأقول... ما الذي تريده مني؟»

«إفتقدتك... أحتاجك.»

حيدر ومنتصر

«احتاجك»، قال. أحسست بالدموع تريد ان تخرج من عيوني وأنا أتذكره يقول هذه. كم كنت أتمنى لو استطعت أن أفعل شيئاً له، لكنني أدركت أن إعادته إلى ما كان عليه سابقاً صار أمراً مستحيلاً. من أين أتت تلك الشياطين التي أحدثت كل هذا الضرر في صديقي؟ هل كانت موجودة في رأسه على شكل أفكار جديدة، امْ بقيامه بالقتل، مرةً بعد أخرى، والذي استسهله حتى لو كان ضحاياه أناساً أبرياء؟ الحرب لا تقتل فقط وإنما تشوه النفوس. كنت أفكرُ وأنا مستلقٍ على سريري ان ملامح وجه حيدر لم تهرم بشكل غير طبيعي وحسب، وإنما ذبلت. يمكنني رؤية ذلك ليس في الخطوط التي ارتسمت على وجهه، بل في عينيه، فقد أصبحتا باردتين وعدوانيتين. ربما لصراعه مع أبيه دورٌ في ما آلت إليه حاله. تأثر كثيراً بالعملية الغادرة التي أدّت لقتل أصدقائه في بستان جند السماء. أصبح شديد الغلاظة تجاه خصومه، لكنّه ظلّ يعيش حرباً مع نفسه. أنقذته صراحته ونوعاً من البراءة في شخصيته. وإن كان قد تحول إلى مرجل من العواطف المضطربة، الاّ انه احتفظ بعقل جعله يفهم أنه هو أيضاً قد خان. أصبح منفياً في داخله من وراء هذه الخيانة تجاه أبيه، بل أصبح جداً بلا قلب. لا يقع اللوم كله على والده بسبب نجم الدين الذي رافقه حين عادَ من العراق، ولا الجريمة التي لا تُغتفر لزواج أبو حيدر من امرأة ثانية خلال السنوات التي قضاها منفياً في

طهران. ألم يعاقب الأبن أباه كفايةً عندما التحق «بالعدو»، إن جاز التعبير، جيشنا، جيش الإمام؟ ألم تكن هذه قمة الحرج لأبو حيدر، القائد الكبير في بيت الحكيم؟

تظل الخيانة دفينة في قلب الخائن والضحية، لا تحتمل الاستجواب لمن يعيش في دوامتها. وما أفضل وسيلة للهروب من تلك الدوامة والتغاضي عنها غير أن يغرق الإنسان نفسه في عملٍ يتقنه ـ القتل في حالة حيدر ـ وان يمارسه بإفراط شديد، مركزاً كشعاع الليزر على المهمة المنوطة به، دون أن يفكر لوهلة واحدة بأن المستقبل سيتغير إلى الأبد بسبب ما يقدم عليه. مع هذا الحماس للقتل لابد أن تأتي مقاييس محددة للنجاح، كأن تكون حجم الأرض التي يتم السيطرة عليها، أو مستوى التطهير الذي مورس في محلة معينة، بالإضافة إلى القدرة على الإمساك بالأرض وإقامة كل الحواجز الضرورية من أجل حماية رجالك ورؤسائك لارضائهم، وإمدادهم بما يحتاجون.

لكن مثل هذا النجاح لا يأتي بدون ثمن: لقد أصبح حيدر متعجرفاً، سريع الغضب، غالباً من أجل أشياء طفيفة وبلا قيمة حقيقية، كما حصل حينما قام مرة بطرح أحد رجاله أرضاً أمامي لا لشيء سوى لأنه لم يؤد التحية بشكل سليم، رغم ان الجندي المسكين لم يكن يدرك وجود حيدر في الغرفة. لقد أصبح حيدر شخصاً لا يميز بين الإطراء والتظاهر والحقيقة. لم يعد قادراً على الاحتفاظ بصداقات، أو خلق أخرى جديدة، باستثناء صداقتنا.

لم استطع تجنب مقارنة حيدر بمنتصر، فكلاهما تشكّلَ من نفس العجينة التي خلّفها الطاغية. حملا في صدريهما ذات الشعور المبالغ به بالألم والمظلومية، دون أن ننسى انهما جنديان في الجيش نفسه الذي يقوم على تلك المظلومية المبالغ بها: جيش الإمام.

كنّا جميعاً شباباً عراقيين انطلقوا برحلة إلى عالم جديد حيث لا يشغلهم شيء غير أن يصبحوا أتباع السيد، ذلك الذي كان يكره رياضة تفوق فيها حيدر، أعني كرة القدم. لماذا يكره قائدنا شيئاً كهذا؟ لأنّ أباه، السيد صادق الذي تملكه الغضب من بيتي الحكيم والخوئي، قرّر ذلك. وليس لسبب آخر.

تمكن حيدر من البقاء حيّاً لأنه عرف كيف يتكيف مع التحولات السريعة التي كانت تحصل. لكن شيئاً ما في روحه دفعت الثمن لذلك، ليس بالموت بل بالعيش. تلك هي كلفة العيش في الأوقات المظلمة. على العكس، مات منتصر بشكل بشع وهو يتلوى ألماً، لكنه مطمئن النفس، وبقي الشخص المستقر الذي يمكن التنبؤ بخطواته والمحب للناس من حوله. كان منتصر رجلاً طيباً يحبه الجميع، يعيش على الأحلام، كما كانت والدتي ستصفه لو عرفته. أمّا حيدر فما كان قادراً على أن يكون كذلك. تكمن قوة منتصر في شخصيته وأخلاقه وليس في سرعة البديهة وقابليته لفهم نسبية ووقتية الأشياء.

لا شك في أنني أبالغ في فضائل منتصر، وأرى فيه مثالاً مفقوداً لعالم مفقود، بل قد لا يكون له وجود أصلاً. لا يهم. منتصر من أحتجته أن يكون.

ما كان منتصر سيحيا في العراق الجديد حتى لو كان قد خرج من معركة الضريح في كربلاء سالماً. شيء آخر كان سيودي بحياته. كانت طبيعته مغايرة لزمنه. هكذا كان موت البعض، مزامناً لصعود البعض الآخر، ليرسم المسافة التي قطعها جيل كامل من الشباب بعد الطاغية.

• • •

حيدر، الذي أصبح يعيش في عزلة حقيقية أصَر على ان انتقل إلى بيته في بغداد. بدأت أشعر انه يجبرني على البقاء معه، ربما ملقياً لنفسه بحبل نجاة لأنه أحسَّ بغرقه وكان يبحث بيأس عن يد تنتشله من دوامات الغدر التي تدور في رأسه. لم يعد لديه بين محبيه أحد سوى أمه، لكنها كانت تعيش بعيدة عنه في النجف، وقد كان من الخطر عليه أن يذهب إلى هناك. في تلك الأيام كنت أعتقد أنه لا يزال بإمكاني مساعدته. لكنني كنت مخطئاً.

بقيت في ذلك البيت لثلاثة شهور حتى اليوم الذي تلا شنق الطاغية حينما جمعت حاجاتي وغادرت بدون أن أقول وداعاً. البيت كان قد تم «تحريره» من أحد الضباط السابقين في مخابرات صدام، أو هذا ما زعمه حيدر. بيتٌ كالزريبة، بيتٌ بابه الخارجي يؤدي إلى ساقية مفتوحة لتصريف مياه المجاري، لكن ميل الحوض كان محدوداً جداً إلى الحد الذي لم تكن مياهه تتحرك ما لم يتم دفعه بخرطوم مياه نحو مجموعة البيوت المجاورة مرتين يومياً للتخلص من رائحتِهِ الكريهة. تحل هذه العملية اليومية محل أمانة العاصمة في حيّنا، ولا شك أن الحال نفسه حتى يومنا هذا.

فوق الساقية كانت هناك شبكة من أسلاك الكهرباء بارتفاع متر واحد تتدلى بشكل خطير فوق المياه الآسنة. كان الجميع يسرق الكهرباء من الجميع، ومن المستحيل حتى على أكثر الكهربائيين مهارة ان يعرف مَن يسرق مَن ومَن الذي يدفع ماذا. على أيةِ حال، فلا فرق هناك حيث لم تكن الكهرباء متوفرة أكثر من ساعتين ونصف يومياً مقارنة بخمسة أضعاف هذا الوقت في زمن الطاغية. لذلك نصب حيدر مولدة كهربائية وكان يحصل على وقودها من الخمس المدفوع للسيد من قبل محطة البنزين المجاورة.

حينما دخلت بيت حيدر، عثرت في غرفتي المطلة على الزقاق

بأسلاكه الكهربائية المتشابكة، على صرصورين ميتين، وآخر حي رفرف حالما قلبت الأغطية الموضوعة فوق سريري الحديدي. امّا حيدر، فقد اختار «لأسباب أمنية» أن ينام في غرفة قريبة من مؤخرة البيت، عند باب المرحاض الخارجية، التي تسربت منه رائحة مزعجة جداً لا يمكن القضاء عليها بأي معطر. لقد اعتاد خلال تواجده في بغداد أن يتكيف مع الجانب الدنيء من الحياة أكثر من أي فرد آخر. وفي الصباح، حينما كنت أحاول فتح حنفية الماء لغسل وجهي، أكثر الأحيان لم يكن هناك ماء يخرج منها، لأن بلاد النهرين تفتقر إلى الماء كما كان حيدر يقول ساخراً.

في الطابق الثاني من البيت، مروراً بغرفة حيدر، تواجدت ترسانة الأسلحة في غرفة مغلقة والتي مفتاحها معلق في سلسلة حول رقبته دائماً. احتوت الترسانة على درزينة من الرشاشات الاوتوماتيكية الخفيفة، معظمها كلاشينكوف، وثلاثة صناديق قنابل يدوية، وقاذفة مع صندوقين من الصواريخ، ومدفع رشاش ثقيل يمكن تجميعه سريعاً في سيارة بيك ـ آب ومصمم للاستخدام من قبل ثلاثة رجال. ولكن الذي جلب انتباهي هي البندقية القناصة، الـ «دراغونوف» القديمة السوفيتية، والتي استخدمها حيدر حينما كنت أساعده في تحديد الأهداف خلال معركة النجف عام ٢٠٠٤. كانت قد علّقت في مكان بارز على الحائط الأبيض المقابل للباب.

الغرفة بأكملها كانت قد عُزلت عن باقي البيت، وكأنها معبد. كانت تنفطُ نظافةً وخالية من الغبار، وحتى الأسلحة كانت مصفوفة بانتظامٍ مبالغ به على رفوفٍ صُنِعت خصيصاً لذلك الغرض. أما البندقية التي دُهِنت ولُمِعت جيداً، فكانت كالصنم تتوسط محراب الغرفة.

بغداد

لم يكن هناك أطفال يلعبون في الشوارع خريف وشتاء ٢٠٠٦ حينما إنتقلتُ إلى بيت حيدر. ولا حتى أشجارٌ قد تعوّضُ عن غيابِ الأطفال. قُطِعت الأشجار خلال فترات انتعاش العقارات، وأصبحت الساحات والحدائق العامة في المدينة جرداء، بعد أن كانت في يوم سابق مناطق جميلة يقطنها البغداديون. تُعرَفُ الفصول من درجة الحرارة، حيث أصبحت ترتفع بشكل غير مسبوق بسبب تدمير كل ما يمسُ بالخضرة. حتى صارَ من الممكن قلي البيض على سطوح السيارات المعدنية خلال أشهر الصيف. كانت كل الأسعار، ليس فقط العقارات، ترتفِعُ وتنخفضُ بشكلٍ حاد - ودائماً ترتفع أكثر مما تنخفض، متزامنة مع وَقْعْ طبول العنف التي خضعت لها المدينة.

بغداد التي استقررتُ فيها كانت مدينة يقطنها أناس عاديون، خائفون، بلا حول ولا قوة. ناس عاديون ويائسون بذات الوقت، ينطلقون بالطرقات والأماكن العامة بسرعة فائقة، كل ما يريدونه أن يلتجئوا إلى بيوتهم وان يقبعوا فيها. ناس عاديون، معدومو الثقة، يخافُ الواحد منهم الآخر. بدا وكأن المدينة تعيش المراحل الأولى لوباء طاعونٍ غامض، لكنها لم تصل بعد إلى مرحلة الذعر الشامل. مدينة بالكاد يسيطر أحدٌ عليها، تعيشُ فوضى، وعلى حافة الانهيار.

ماتت الرغبة بالظهور خارج البيت، وارتداء الملابس الأنيقة،

والاهتمام بما يحصل حولك، وارتياد المطاعم. ماتت الرغبة بالتجول بلا هدف وملاحظة كل ما يجري، أو الذهاب للتسوق أو النزهة، أو الجلوس في المقهى بدون عمل سوى ارتشاف الشاي والتطلع إلى الآخر... بينما الآخرون يتطلعون إليك.

في وقت وصولي إلى بغداد، رأيت المدينة منقسمة وأجزاؤها معزولة عن بعضها. جدران كونكريتية أقيمت بهدف السيطرة على التفجيرات، وجُمِّلت الحواجز عند نقاط التفتيش بزهورٍ بلاستيكية ـ مساهمة من جنود السيطرات بتجميل المدينة. هل هذا الامتداد العشوائي لخرائب سكنية، والتلال من الأزبال المتراكمة، والشبكات المتهالكة من مجاري المياه العاطلة عن العمل، والطابع السوقي الذي طغى على واجهات الشوارع البائسة المصبوغة بصبغ صيني رخيص... هل هذه هي حقاً مدينة هارون الرشيد الأسطورية، تساءلتُ؟ لربما هناك مدينة أخرى تحت الأرض لا تراها عيني. حيدر، ملك المدينة البائسة هذه، أخذ على عاتقه تبديد كآبتي باصطحابي بسيارته في جولة ليطلعني على معالم بغداد.

«انظر، هذه ساحة الاحتفالات»، قال، «وهناك «نصب الجندي المجهول»، وحينما سألته عمّا تبقى من المدينة المدورة التي بناها الخليفة أبو جعفر المنصور في القرن الثامن، أخذني إلى ساحة صغيرة في حي المنصور وقال، «انظر هناك... ها هو أبو جعفر المنصور بنفسه، فما حاجتك لمدينته المدورة؟»

نُحت تمثال الخليفة المنصور بطريقة مبدعة أخذت بالاعتبار كل التفاصيل، وكأن النحات قد جلس مع المنصور نفسه لعدة مرات من أجل أن يصنع التمثال بهذه الدقة ـ الأنف المعقوف، الجبين العالي دلالة على نبل صاحبه، اللحية المهذبة بمهارة بدون أن تبرز أي شعرة خارج

مكانها. صُنع التمثال من البرونز ليكون الخليفةُ نفسه وقد تم تجميده للأجيال في تلك الساحة التي وضع فيها. طبعاً، لا أحد يعرف من هو حقاً أبو جعفر المنصور ولا حتى مظهره الحقيقي. لكن النحات استلهمَ صورته من ثنايا مخيلته ليضعه متمركزاً ساحةً صغيرةً تتدافعُ فيها السيارات، لونه البرونزي قد تغير ليصبح مرقطاً بالغبار والطين، الزهور الميتة تلتف حوله في حلقات وكأنها تزين صنماً نشازاً.

هل مدينة الذكريات الزائفة هذه هي تلك المدينة التي تجول فيها الصوفي العظيم الحلاج الذي كان يجله أبي واعظاً الآلاف في الشوارع؟ أين تقع الساحة التي صلب فيها؟ اين تمت محاكمته؟ أو القصر الذي جرت تبرئته فيه؟ ما هي المسافة التي فصلت بين تلك الأمكنة عن الساحة التي صلب فيها ذلك الرجل العظيم؟ لا أطرح هذه الأسئلة بحثاً عن جواب دقيق بل رغبةً في التعرف على من اهتمّ بهذا التأريخ: إشارةً عامة للمكان، ربما علامةً مكتوبة، يمكنها أن تدلنا على المواقع المتعددة للأحداث. لربما حينها يمكنني ان أسير من علامةٍ إلى أخرى لأربط بين حاضر المدينة البائس مع ماضيها الخيالي. لكنني لا أستطيع القيام بذلك. ولا أحد غيري بإمكانه أن يفعلَ ذلك، لأن لا أحد يعرف.

• • •

عشنا في حي القاهرة في بغداد، على الجانب الشرقي لنهر دجلة. تقع هذه الضاحية الشيعية بين مناطق الكاظمية غرب دجلة ومدينة الصدر، التي هي القاعدة الاجتماعية لحركتنا، شرق دجلة. يمكن اعتبار مدينة الصدر أختاً لمدينة بغداد حيث عدد سكانها يقارب المليوني نسمة. حجمها وموقعها أعطاها أهميّة إستراتيجية للسيطرة على بغداد. وكانت

تطلقُ حركتنا عليها أيضاً أسم مدينة الشهيد الثاني، تكريماً لوالد سيدنا، السيد صادق، الذي اغتاله الطاغية عام ١٩٩٩.

ناسبني البيت لأنه يقع على بعد دقائق مشياً إلى جامعة الإمام جعفر الصادق في بداية شارع فلسطين، وان مشيت لمسافة فسيقودك إلى الجامعة المستنصرية التي سميت على غرار أقدم جامعة في بغداد ترجع إلى الزمن العباسي، والتي كنت أتردد عى مكتبتها.

يستغرق الوقت بالسيارة من بيتنا إلى ضريح الكاظمين حوالي ربع ساعة، عابراً جسر الأئمة الذي سقط فيه حوالي الف زائر وهم يتدافعون هروباً من شائعة وجود انتحاري بين الزائرين. أدّى الضغط الناتج عن تدافع العدد الهائل من الزوار وهم يحاولون الهروب إلى سقوط الكثيرين من على سياج الجسر. مما زاد الأمر سوءاً أن أحد الحمقى في الحكومة أمر بإغلاق الجسر من جانبه الآخر تحرزاً للأمن، فلم يبق أمام العابرين المساكين سوى السقوط من ارتفاع تسعة أمتار إلى النهر أو السقوط صريعاً تحت أقدام المتدافعين.

يتطلب الوصول إلى هذا الجسر من بيتنا المرور عبر منطقة الأعظمية السنية المجاورة. يربط الجسر بين أقدم محلتين في بغداد، إحداهما شيعية وبنيت حول ضريح الإمام موسى الكاظم، والثانية سنية وبنيت حول مرقد الإمام أبو حنيفة النعمان، مؤسس المذهب الفقهي الحنفي في العراق.

كان حلم حيدر هو احتلال المنطقة السنية، الأعظمية، قلعة القومية العربية في العصر الحديث. وكان ذلك سبباً في اختياره السكن في حي القاهرة المجاورة لها. أمنيتهُ كانت أن يقال عنه أنه الرجل الذي سجدت له مدينة الأعظمية. لم يحقق حلمه هذا بسبب مقاومة أهل الأعظمية

خلال الحرب الأهلية ببناء حواجز كونكريتة لمنع أشخاص مثل حيدر من الوصول إلى منطقتهم. علقّوا على كتل الكونكريت أعلاماً كتبت عليها شعارات مثل «غير مسموح بالدخول للشرطة ولا للإيرانيين ولا المجوس ولا للصولاغيين»، في إشارة إلى وزير الداخلية من بيت الحكيم الذي أدار سجوناً سرية لتعذيب السنة وكذلك هو الذي أمر بإغلاق جسر الائمة، وقد وُقِعَتْ تلك الشعارت باسم «أهل الاعظمية.»

على ما ذكر حيدر، كانت هناك ١٥٠٠ نقطة تفتيش في بغداد عام ٢٠٠٦. «يزودنا العاملون في تلك النقاط بمعلومات يتلقونها من أعلى المستويات في الدولة»، أخبرني بفخر. «وهم يعتمدون عليّ. هل تعلم ان ضباط الشرطة والجنود المتواجدون عند مدخل مدينة الحرية يستشيروني ما الذي عليهم فعله ان حصلت مشكلة؟ يريدون اتبّاع أوامري... لست مضطراً حتى أن أدفع ثمن تلك المعلومات. أقول لهم اذهبوا وفتشوا السيارات المشتبه بها. فيسألونني ما معنى المشتبه بها؟ فاجيبهم بما يخطر على بالي حينها! المهم انهم يثقون بي! هل تصدق ان جنود الجيش الجديد أكثر ولاءً لي من ولائهم لقادتهم ورئيس وزرائهم؟ هل تعرف كم يسهل عليّ تنظيم انقلاب؟»

«ماذا؟» قلت مرعوباً. «ولماذا تريد أن تفعل شيئاً كهذا؟»

«لا أريد. فقط أردت أخبارك بأن بوسعي القيام بذلك.»

«كيف؟»

«أمر سهل. أستطيع ان أحبس الجميع في المنطقة الخضراء عبر إغلاق مداخلها بعربات مسلحة ودبابة أو دبابتين، ومن ثم نشر رجالي في البرلمان وبنايات مجلس الوزراء. امّا خارج المنطقة الخضراء،

فسوف أطوق محلة الكرادة حيث ينشر بيت الحكيم قواته، عند ذلك علينا قتالهم إلى أن نقضي عليهم جميعاً.»

تجربتي في بغداد أكدت لي صحة مزاعم حيدر. فالميليشيا والقوات الأمنية يحكمون الشوارع الرئيسية. فخلال قيادتي السيارة لعشرين دقيقة ولبضعة كيلومترات فقط عند الشارع الرئيسي في محلة سكانها من الطبقة الوسطى، أحصيت ثلاث نقاط تفتيش وتسع عشرة عربة مسلحة، تنتصب اما في الطريق أو على جانبه. وهناك شخصيات غامضة تقوم بشراء صمت الجنود والضباط الموزعين في نقاط التفتيش مقابل القليل من الدولارات كي يسمح لهم باختراق نقاط التفتيش حاملين عربات مليئة بالمتفجرات تحرسها مركبات شرطة مؤجرة، وهو ما يسمح لهم عبور نقاط أخرى بدون أن يتم تفتيشهم.

بينما كنت أقود سيارتي عبر الأحياء الفقيرة جداً والتي تجهزنا بمعظم مقاتلينا ـ أحياء لا تقع على الطرق السريعة الرئيسية، بل خلف مناطق الطبقة الوسطى عبر شوارع جانبية لها ـ صعقني مشهد الحرمان الحقيقي: هياكل بيوت من طابوق كونكريتي، حطام سيارات مهشمة أصبحت ملعباً لأطفال قذرين بملابس مهترئة يحوم الذباب حول أنوفهم. لو تجرأتُ على الخروج من سيارتي أو حتى إن فتحتُ نافذتها، لانقضّوا عليّ كالنسور الجائعة ماذين أيديهم. أعتدت في النجف على رؤية متسولين كبار في السن، استسلموا لاقدارهم، وكنت أشفق عليهم وأتمنى لو أن بمستطاعتي تحسين حالهم. كانوا يجلسون في الظل عند بوابات المسجد المحلي وكنت أحب دائماً مشاركتهم غدائي. لكنني غير معتاد على مثيري الشغب العدوانيين هؤلاء، الذين يتدافعون فيما بينهم فيسقط العاجز ويُصفع الضعيف، يندفعون بوجوههم المصفرة البارزة التجاويف، ليضعوا وجوههم بوجهي، لا يتسولون بل يطالبون بالمال ويصبحوا عدائيين مرعبين ان لم يحصلوا عليه.

أحياء كهذه هي مستودعات للقسوة التي تقتل أي فضيلة بقيت في قلب الإنسان. الحدود بين الموت والحياة هنا تختلف عن مناطق بغداد الأخرى. لا أعرف أحَداً لا يعرف الخوف مثل حيدر، يمكنه التنقل بينها بسهولة. هو، مثلي، ليس بمستطاعته الخروج من السيارة في وسط واحدة من هذه الأحياء بدون ان يصحبه مرافقون مسلحون ـ وبالرغم من ذلك، فإن تلك الأحياء هي التي تعيش وتتغذى عليها حركتنا كالطفيليات.

وفي المساء، يخلف العنف العشوائي في النهار مكانه لشوارع مغلقة، زوايا مظلمة، أشباح غامضة، غياب الكهرباء، بل غياب الضوء بأكمله باستثناء ذلك المنبعث من الهيترات الكهربائية لرجال الميليشيا في نقاط التفتيش التي تعمل على كهرباء مسروقاً. أحياناً لا تستطيع سماع ولا حتى نبض حياة واحداً عدا أنفاسك العالية التي تفزعك. وبين الفينة والأخرى، ينكسر الصمت بصوت كلب يعوي أو قطة تموء وتتأوه أو إطلاق رصاص من مكان بعيد. الأماكن الوحيدة المستثناة من هذا الوضع هي مناطق سكن السياسيين الفاسدين ورجال الأعمال من حلفائهم وزعماء الأحزاب والعراقيين الأجانب. في هذه الأماكن قد تجد مطعماً يبقى مفتوحاً لوقت متأخر، ودكان أو دكانين يرتادها أزلام مسلحون ورجال ظل يتوددون لرجال حماية وشرطة فاسدين، الكل متنافسون فيما بينهم في التذلل.

قام حيدر بنشر خريطة هائلة لبغداد على أرضية مكتبه، وفي الخريطة قام بتلوين المناطق المختلفة وطرق الوصول إليها. كانت لديه قصاصات ورقية تحدد مواقع المركبات المسلحة والقناصين ونقاط التفتيش الخاصة به وبالجيش والشرطة، وتلك التي يمتلكها العدو. قام بتحريكها حول الخريطة ليشرح الفائدة من المهاجمة هنا وليس هناك، وحجم القوة

الضرورية اعتماداً على ما نمتلكه في المخازن. درس المدينة كما يفعل القائد العسكري الميداني وهو يدرس ساحة المعركة. تعلمت الكثير من شروحاته.

محلتنا، مثلاً، قال وهو يشير إليها بمسطرته، تحاذي قناة الجيش الكبرى في الغرب. وقناة الجيش تقطع بغداد بخط مستقيم من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وتتألف من أربعة خطوط عريضة، هي الوحيدة من نوعها في المدينة مع جزيرة واسعة في الوسط حيث كانت تتدفق مياه القناة التي تحولت إلى بقايا ساقية.

بني الطريق السريع في بداية الستينيات في وقت ظهور قاعدتنا الاجتماعية في مدينة الشهيد الثاني والتي تحاذيه من الشرق. مضى وقت طويل على الستينيات حينما لم يكن يقطن بغداد أكثر من مليون نسمة. اليوم هناك ستة ملايين وكل اعتبارات التخطيط هذه لم تعد تعمل كما خطط لها، هذا ما شرحه حيدر لنا. انشأت قناة الجيش في الأصل للسيطرة على الفيضانات ولإصلاح الأراضي وكمبزل عام، ولكنها كانت أيضاً حاجز أمام تدفق أهل الأهوار من الجنوب ببيوتهم الطينية وأعدادهم الهائلة التي كانت تهدد باجتياح بغداد من الشرق. هناك اشاعات، قال حيدر، بأن البعث كانت لديه خطة طوارىء تتمثل بملء القناة بالنفط واشعالها في حالة حصول تمرد مدني.

«ولكن اليوم»، قال حيدر مشيراً إلى الخريطة بمسطرته، «الطريق السريع لقناة الجيش هو مفتاح انتصارنا في حرب السيطرة على بغداد. انه يسمح لسياراتنا المسلحة بالوصول سريعاً إلى الجانب الشرقي المترامي الأطراف لنهر دجلة، بما في ذلك بغداد القديمة، وربطه بالجنوب الشيعي للبلاد». اوضح لي كيف يمكن لرجاله التنقل سريعاً في الطريق السريع، وسهولة توجيههم ضربات سريعة إلى داخل وخارج

المحلات السنية المجاورة في الغرب حتى يتم إسقاطها واحدة بعد الأخرى لنقتحم عندها المزيد من الأراضي التي ننطلق منها لنشن هجوم جديد.

• • •

عندما تعيش في بغداد، تسمع الناس يطرحون على أنفسهم أسئلة من نوع: أيهما أسوأ، سيارة مفخخة أم انتحاري؟ لكل صوت هنا وقع غريب ومختلف، ويجب فصله وتمييزه عن غيره بحذر، بينما في النجف، تمتزج الأصوات معاً. حتى العيون في بغداد تتصرف بطريقة مختلفة، تتحرك سريعاً وباستمرار من اليمين إلى اليسار، وهي تتشكك بكل من تراه وما تراه. في السابق لم تكن تلك الشكوك تطال النساء، لكن حالما برزت ظاهرة الانتحاريات المفخخات اللائي يغطين أجسادهن بعباءات سوداء، صار الناس أكثر حذراً تجاههن. أخذ الرجال يتولون عملية التسوق، ومُنع الأطفال من الخروج إلى الشوارع. الخطر في أذهاننا كان مجرّداً، لكن الغريب في الأمر اننا صرنا نتكيف معه.

في البداية، غيّر العنف البغداديين بجرعات صغيرة جداً. وعلى غفلة من الزمن استيقضوا يوماً ليجدوا الجميع حولهم قد تغيروا ولم يعد أحد يشبه ما كان عليه من قبل. أخذ العنف يسحق الكل مزيلاً كل السمات التي كانوا يتصفون بها، محولهم إلى ذرات متشظية، معزولة تماماً، سواء كانت كعزلتي أو عزلة حيدر. العنف والعادات الجديدة التي ظهرت معه، أورثتنا مدينة لم يعد للثقة مكانٌ فيها، بينما تحول الشك من وسيلة للبقاء على قيد الحياة، إلى عرف سائد. في الهاوية التى آلت إليها بغداد هذه، باتت الخيانة نهج حياة.

الملف

عمل القاضي في بناية تضم المحكمة الخاصة التابعة للقسم الجنائي والتي أسستها السلطة المحتلة في عام ٢٠٠٣، وكان قد نقل إليها من النجف بعد فترة وجيزة من تأسيسها. يقع مكتبه على الجانب الآخر من الشارع الذي فيه قبر ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث، ويفصله عن باقي البنايات في المدينة برج الساعة. لكن الوصول إلى هناك كان معضلة، فالدخول إلى المنطقة الخضراء من جانب جسر الجمهورية يبدأ في الوقوف في طابور طويل من البشر يحاولون المرور عبر نقطة التفتيش العسكرية وحواجزها الكونكريتية المتعددة.

بعد فشلي في الوصول إلى القاضي موضحاً من انا ومن هو عمّي ولأي منظمة انتمي، أخذتُ بنصيحة صديقي حيدر باستخدام اسم جدي وموضحاً مدى ولاء أبي وحبه للسيد مجيد وكيف انه توفي وهو يحميه ويوفر له طريقة للهروب في عام ١٩٩١. كان هذا كافياً لحصولي على موعد لمقابلة القاضي.

انزلني حيدر من سيارة سيدان أنيقة كانت وحدتنا تستخدمها لمهام كهذه. كانت الخطة هي أني حالما اخترق نقطة التفتيش ستأخذني سيارة في انتظاري من مكتب رئيس الوزراء بعد أن زودت بالأوراق المطلوبة لذلك. كنت أبدو كأي موظف مدني، أرتدي بنطالاً نظيفاً ومكوياً مع قميص أبيض وجاكيت أزرق غامق. كل ما كنت أحمله بيدي هو كيس

من البلاستيك داخله عدة رمانات شهية مع علبة بلاستيك فيه حب رمان كلها من شجرة عمي الذي بعث لنا صندوقاً كاملاً منها كهدية عندما علم أن حيدر يستضيفني في بغداد. رمى حيدر بالكيس البلاستيكي نحوي بينما كنا نسير باتجاه السيارة، «هدية للقاضي»، قال مصراً.

في ذلك الصباح كان قد قام بمهمة نزع الحب من الرمان كما كانت تفعل أمي بقطعها إلى نصفين ثم أخذ نصفاً والبدء بضربها بملعقة ليقع كل حب الرمان في صحن تحت يديه. أصر على جلوسي وتناول الشاي بينما كان يقوم بذلك». لا أريد أن يتسخ قميصك بقطرات من عصير الرمان اليوم». قال ضاحكاً. كما ضحكت انا معه حين كان ينظف العلبة التي سيضع فيها حب الرمان والتي أغلقها بإحكام ووضعها في كيس الرمان كما وضع معها ملعقة من البلاستيك.

كانت هناك حشود من البشر عند نقطة التفتيش ـ طباخون، منظفون، حمايات، مترجمون، سواق وموظفون ـ تجمعوا عند أول طابور من العوارض الكونكريتية، يحاولون العبور بأسرع وقت ممكن خوفاً من سيارة مفخخة قد تفتك بهم وسط هذا الزحام. ولذلك انحشروا عند المدخل، ليتقاطروا الواحد بعد الآخر من الجانب الآخر من نقطة التفتيش وكأنهم نفايات رمى بهم نهر دجلة على ضفافه. والأغرب، أن هذا الكم الهائل من النفايات البشرية المرمية كحطام سفينة تغرق، كانوا محسودين من أقرانهم لحصولهم على عمل في حين كان الآخرون عاطلين. وفي الوقت نفسه كانوا يعلمون ان هذا الحسد يضعهم في خطر. تدافعوا عند نقطة التفتيش لاجتيازها بسرعةٍ، خوفاً من ان يتعرف عليهم أحد من المارة. كذبوا على عوائلهم بخصوص مكان عملهم في المنطقة الخضراء، خشية من ان تنكشف هوياتهم. رأيتهم أمامي، ثم

انحشرت بينهم إلى أن استطعت أن أقدم أوراقي للضابط. ما إن قرأ اسم عمي، حتى تغير أسلوب معاملته، وعبرت كأميرٍ في حركة السيد.

• • •

كنت محرجاً في بداية اللقاء مع القاضي، ولكن الرمان فعل فعلته. وضعت الوعاء والملعقة البلاستيكية على المكتب أمامه. ابتسم وقذف بملعقة منه بفمه متلذذاً بطعمها والذي شبهه بطعم الرمان القادم من مدينة كربلاء، ثم اصر على مشاركتي له في الأكل، وبلحظةٍ مدّ يده إلى درج مكتبه وناولني ملعقة بلاستيكية أخرى. بعدها أشار إلى كرسي وأريكة مقترحاً ان نجلس للحديث وأكل الرمان. انكسر الجمود بيننا في لحظات والباقي كان كالملاحة السهلة.

«أخبرني أبي بأنه كان يعرف والدك وجدك، وقد امتدحهم كثيراً.»

«شكراً، شكراً سيدي. أنا ممتن لك بهذا اللقاء. أتمنى أن لا أكون قد أزعجتك بإصراري على مقابلتك؟»

«أبداً»، أجاب القاضي. آباؤنا تحملوا أوقاتاً صعبة. تعازيّ بوفاة جدك، وان جاءت متأخرة. أخبرني اذن، لماذا أنت مهتم إلى هذا الحد بهذه القضية؟»

«سيدي، انا لم أعرف والدي، ولكنه كان كالمنارة الشاهقة في حياتي. قرأت وأعدت قراءة جميع الكتب التي تركها خلفه آملاً ان أعرف أكثر عن ذلك الرجل الذي كنت معجباً به منذ الصغر. قبل اربع سنوات، وعلى فراش موتها، أعطتني أمي رسالة كان قد كتبها لها الوالد من معتقله في الرضوانية. كان ذلك آخر شيء يفعله. أخبرها فيها عن أحواله وعن الآلاف مثله ممن قُبض عليهم وكيف عوملوا وكيف ماتوا.»

«متأسف. متأسف جداً... كم عانت والدتك.»

شكراً سيدي، مع ذلك لا توجد أي إشارة في الرسالة لعلاقة أبي بالسيد مجيد. لم يعط تفسيراً عن ملاحقة قوات صدام له. ولماذا أرادوا إلقاء القبض عليه. لربما لم يشأ ان يذكر تفاصيل غير ضرورية في رسالته هذه خوفاً من وقوعها بيد احد.»

«أفهم ذلك.»

«والأكثر من هذا، يوم سقوط الطاغية، في ١٠ نيسان ٢٠٠٣، خرجت مهرولاً من بيتنا في النجف لأعلم سبب الهياج والضجيج الذي كان يأتي من صحن الإمام. بعد قليل، في الشارع المجاور لبيتنا، كدت أصطدم بجثة ملقاة على الأرض. لم أشاهد جثة في حياتي من قبل. لذا مشاهدة واحدة مرمية في الشارع ككيس نفايات كان لها وقعٌ كبيرٌ عليَّ. في البداية لم أكن أعرف جثة من هذه. كان هناك مجموعة من الرجال ملتفين حولها، بعضهم من أبناء محلتنا، ولم أكن أعلم إن كانوا متطفلين أم ماذا. ولثلاث سنوات لم أكن أعلم بوجود علاقة بين الجثة التي كانت قرب بيتنا بابي... إلى حين بدأ جدي يروي لي حكاياته.»

«اي نوع من الحكايات؟»

«حكايات عن الانتفاضة في النجف عام ١٩٩١، وكيف أن أبي والسيد مجيد كبرا معاً، ومن ثم عن كيف حاولا في فوضى الانتفاضة تطبيق نداء والد السيد مجيد، آية الله الخوئي، لاسترجاع النظام للمدينة ووقف القتل العشوائي وترك الجثث مرمية في الشوارع. في نهاية تلك الأيام المضطربة، بينما كانت دبابات الطاغية تجوب شوارع النجف، اختفى الرجلان، اختفى أبي للابد، بينما ظهر سيد مجيد في لندن حيث، كما قيل لي، عمل لسنين طويلة ضد نظام الطاغية.»

«إذن ماذا تريد ان تعرف؟»

«أريد أن أرى ملف التحقيقات المتعلق بقتله.»

«ليس هناك شيء في الملف عن ١٩٩١ أو عن والدك. تحقيقاتي تتعلق فقط بمقتل السيد مجيد في العاشر من نيسان ٢٠٠٣.»

«أريد أن أعرف من قتله ولماذا.»

«هناك إضبارة مفصلة موثقة من قبل الدولة بكل ما حصل، أصدرت بإشراف أول رئيس وزراء شيعي منتخب، وكان صديقاً ورفيقاً للسيد مجيد في المنفى، وقد تبنتها حكومته الجديدة، وجميع الرجال الذين حققنا معهم ووضعوا في السجن عام ٢٠٠٣ أُعلنت براءتهم وأُخلي سبيلهم وفقاً للتحقيقات الجديدة. تلك هي النسخة الرسمية الوحيدة لما قد حصل. لم أكن مسؤولاً عن تلك التحقيقات الجديدة ولا علاقة لي بالامر. يجب أن تقرأ ذلك الملف، الذي ليس لديّ نسخة منه.»

«قرأته، سيدي. انا لا أثق بكلمةٍ واحدة فيه. أريد أن أقارنه بالنسخه الأصلية للملف الذي اعددته انت.»

«متأسف يا ابني، حتى لو افترضنا ان الملف معي، وهو ليس معي، فليس باستطاعتي ان أريك إياه. سيكون خلافاً لأصول المهنة، كالطبيب الذي يشارك معلومات مريضه مع شخص غريب.»

«على الأقل زودني بأوليات التحقيقات التي قمت بها. مثلاً، ما السبب الذي جعلك تأخذ هذه القضية في الأساس؟»

«أستطيع إجابتك على هذا السؤال. حدث ذلك صدفةً، خلال التحقيق في قضية مختلفة تماماً. كنت اقود تحقيقاً في قضية فساد في مكتب محافظ النجف.»

«هل كنت تتولى عمليات التحقيق بشكل رسمي حتى بعد سقوط الطاغية؟»

«نعم، بدأت مباشرة بعد هروبه من بغداد. حينها لا أحد كان يعلم من هو المسؤول في البلد بأكمله ولمن تقدم تقاريرك لو كان عندك تقارير. كانت الشرطة متفككة وعلى حافة الانهيار، رجالها خائفون من ان يُتهموا بما قاموا به في أيام الطاغية... خلي في بالك خائفون من المواطنين! في الواقع في تلك الأيام، كان المواطن العادي أقوى من رجل الشرطة. كانوا يخافونه! في هذه الفوضى ظهرت أحزاب سياسية لم يسمع بها أحد من قبل. لم تكن أحزاباً بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل أشخاص إدّعوا انهم أعضاء في حزب قدموا من الخارج زاعمين أنهم مدعومين من الأمريكيين أو وكلاء لهم. تصرف هؤلاء بغطرسة وكأنهم امتلكوا المكان وغير مبالين بأحد. كانوا أقوى حتى من المؤسسات القائمة في مدينة النجف، والتي كان معظمها بطبيعة الحال على حافة الانهيار. خلال أيام بدأت تصلني شكاوى من مواطنين يأتون إلى مكتبي قائلين ان المحافظ الجديد الذي عُيّنَ دون ان يعرف أحد من عيّنه كان يلقي القبض على الناس بدون تمييز، مطالباً بأموال لحمايتهم، فديات، مقتحماً بيوت الناس وسرقة ممتلكاتهم. بل انه كان يشرف عليها، كما كشفت التحقيقات اللاحقة، عن عصابة سرقة سيارات حكومية وغير حكومية تم بيعها إلى إيران. عمل المحافظ المجهول كل هذا بلا مبالاة، تاركاً أدلة بخط يده! كان دجّالاً وفي منتهى الغباء بذات الوقت! وبطريقةٍ ما كانت الشرطة تدعمه، ربما خوفاً منه، وتطيع أوامره معتقدين انه أصبح محافظاً بأمر من الأمريكيين.»

«هل حقاً عيّنه المحتل؟»

«أبداً. لا. بالأساس لم يكن الأمريكيون يعرفون من هو! كان أول

اتصال لي مع الأمريكيين هو عن طريق شاب لطيف ومؤدب قدّم نفسه باعتباره الممثل العسكري الأمريكي في النجف. لم يكن يتكلم العربية وقد عُينَ مسؤولاً عن المدينه المقدسة برمتها! سألته بوجود المترجم إن كانوا قد عينوا محافظاً جديداً، هذا الذي كان يضرب الناس عرض الحائط. قال انه لا يعرف. ثم اختفى عدة أيام للتأكد من الموضوع. لا علم لي مع من اجتمع ولكنه عندما عاد قال ان الأمريكيين لم يعينوا احداً وليس عندهم علم من هو هذا الرجل. حسب صلاحياتي كقاضي تحقيق، فتحت ملفاً رسمياً بالموضوع. يجب عليك أن تفهم أن الوضع كان غريباً جداً. هذا الرجل الذي لم يعينه احد، وأزلامه يرتدون زي الشرطة، ولا أحد من المدينه يعرفه، وبنفس الوقت الجميع يشعرون أنفسهم مضطرين أن ينصاعوا لأوامره معتقدين انه معيّن من قبل قوات الاحتلال... هذا الرجل كان لفترة قصيرة مسيطراً سيطرة كاملة على أقدس مدينة في العراق. وبقينا على هذه الحالة لعدّه أسابيع! انه وضع شاذ. هكذا كانت الأحوال في نيسان ٢٠٠٣. تذكر! في حينها لم يكن هناك شيء اسمه الحركه الصدرية، أو جيش المنتظر أو أي شيء ضد المحتل، ولا حتى كان بول بريمر قد وصل العراق!»

«فماذا فعلت؟»

«قلت مع نفسي: أنت القاضي، ولديك مسؤولية العمل نيابةً عن الشعب العراقي، عمل أنت تجيده... قم به!»

«هل باشرت التحقيق؟»

«نعم، فبعد ان تم تجميع بدايات قضية المحافظ الدجال مع كل الأوراق المتعلقة، أعطيتها لذلك الأمريكي الشاب وكان ضابطاً لا أعرف رتبته وأخذها، الله أعلم لمن، ربما لجورج بوش نفسه! لا أدري. لا

علم لي حتي هذا اليوم. على أيّ حال رجع الضابط الشاب، مع قرار من الأعلى كما قال، مفاده ان هناك حالة فساد جذّية في النجف، وطلب منّي إبداء النصيحة عن الأجراءات التي يجب اتخاذها. قلت يجب إلقاء القبض على المحافظ المزعوم والاستمرار في التحقيق. ثم جاء الضابط بقائده المسؤول إلى مكتبي، وأبلغني القائد بأنه ورجاله في خدمتي. عندها ذهبنا وألقينا القبض على من يسمي نفسه بمحافظ النجف. كانت عملية سهلة جداً. خلال التحقيق ادعى أنه عضو في حزب لم يسمع عنه احد! أظن انه جاء من الشمال، بعض الناس قالوا انه وعصابته كانوا أكراداً. لا أعرف مدى صحة هذا الادعاء. على أية حال كانوا محتالين، وليسوا سياسيين، كنت على يقين من ذلك. بدت عملية التحقيق سهلة حيث ازداد عدد الشهود وصاروا يشجعون بعضهم للشهادة الواحد تلو الآخر، ولأسبوع كامل كنت آخذ الإفادات طوال النهار. واحدة من هذه الإفادات كانت من رجل قال لي شيئاً غريباً. قال أن هذا الرجل، وكان يعني المحافظ، لم يكتف فقط بأخذ الرشاوى وإقتحام بيوت الناس بل سمح أيضاً لقتلة سيد مجيد بالهروب. حينها لم أكن أعرف من هو سيد مجيد.»

«ماذا!» قلت مندهشاً، «ألم تعرف من هو السيد مجيد!»

«كلا. لا علم لي. بالطبع أعرف والده، سيد أبو القاسم الخوئي، كان مرجعنا الأعلى، جميع أفراد عائلتي كانوا من مقلديه منذ ولادتي حتى وفاته عام ١٩٩٢. ولكني لم أسمع عن اسم ابنه إلى حين ذُكِر اسمه من قبل الشاهد في قضية المحافظ.»

«ماذا فعلت؟»

«حالما سمعت ذلك من الشاهد، وفهمت لمن يشير، أوقفت

التحقيق، وطلبت من الجميع ترك الغرفة ما عدا هذا الشاهد. كان هناك أمريكيون موجودون مع مترجمهم والشرطة ومساعِداي اللذان كانا يسجلان الإفادة. بعد أن أغلق باب المكتب، لم يبق سوانا. نظرت إلى عينيه محدقاً قائلاً لنترك اعترافك جانباً في الوقت الحاضر. أنت لست الآن تحت التحقيق. أخبرني بمزيد من التفاصيل عمّا قلته الآن. طلبت منه أن يتكلم كشخص عادي، خارج الإطار الرسمي للتحقيق، وليس هناك شريط مسجل أو أي أحد يسجل المحضر. قل لي عَمَّ تتحدث؟»

«معنى هذا انك توقعت شيئاً مهماً قد حدث؟»

«ليس فقط مهماً، يا عزيزي، بل تزلزلت الأرض تحت قدميّ! هذا الشاهد زودني بأول معلومة عن القصة كلها... إبتداء من عودة السيد مجيد إلى النجف وانتهاء بمقتله. وبالرغم من انه لم يكن بنفسه شاهداً على ما حصل، لكنني تمكنت من أخذ قائمة بأسماء الأشخاص الذين تواجدوا هناك والذين يستطيعون تزويدي بتفاصيل أكثر عمّا حدث. بعد انتهائه طلبت من الجميع العودة إلى الغرفة. وعدنا لمناقشة قضية فساد المحافظ بدون الإشارة إلى السيد مجيد.»

«وكيف مضيت قدماً بعد ذلك؟»

«الآن أصبح عندي ملفٍ لقضيتين متداخلتين. عندي قضية قتل داخل قضية فساد. بعد تحقيقات أخرى مكثفة تبين أنه ليس هناك علاقة بين قضية الفساد وبين مقتل السيد مجيد. وجب عليّ إذن أن أفصل بينهما. كانت تلك هي بداية الموضوع كله.»

«وماذا عن قضية المحافظ؟»

«استمررت في العمل بها حتى تم الحكم عليه بالسجن لخمسة عشر عاماً. وحسب معلوماتي فإنه لا يزال مسجوناً.»

«وماذا عن القضية الجديدة المتعلقة بمقتل السيد مجيد؟»

«شاهد أوصلني لآخر والاكتشاف الجديد هو ان ثلاثة أشخاص كانوا قد قُتلوا وليس السيد مجيد فقط. من بينهم رجل يُدعى الكليدار، حامل مفاتيح المرقد، ورجل آخر تبين أنه من الديوانية وخمسةٌ أو ستةٌ كانت إصاباتهم بليغة. فتشت في أرشيف الشرطة والقضاء عن أي ملف فيه ملاحظات حول القضية، فلم أجد أي شيء. سألت رئيس الشرطة، فقال نعم، حدث هناك شيء ما في العاشر من نيسان ولكنه لم يقم بأي تحقيقٍ يذكر. كانت هناك فوضى ولم يعرف أحد ماذا كان يحدث. حتى رئيس الشرطة نفسه لم يكن يعرف إذا كان لا يزال موظفاً في الدولة أم لا. ثم اعترف لي أن ما حدث كان قضية حساسة، وقد نُصِح حينها ان يغض النظر عنها. سألته، ما معنى حساسة؟ ثم سألته عن الجثث. اين كانت؟ من قام بدفنها؟ هل جرى تشريحها؟»

«ما هذه الفوضى... هل وجدت تقارير تشريح؟»

«دونوا معلومات سطحية فقط بدون أيّ تفاصيل تتعلق بالقضية؟»

«والجثث. ماذا كان مصيرها؟»

«لقد قام أشخاص بدفنهم، هكذا قيل لي. وبعد التحقيق علِمتُ ان أقاربهم هم من دفنوهم. فبحثت عنهم وأخذت إفادتهم. سألتهم إن كانوا يريدون تقديم شكوى، وجميعهم كانوا يرغبون بذلك، ولكنهم يخافون. فأخذت موافقة خطيّه منهم لتشريح الجثث والتحقيق في الحادث.»

«اين دُفِن السيد مجيد؟»

«احد أقربائه غير المباشرين قال انه دُفن في المسجد الاخضر، داخل مرقد الإمام، عليه السلام، بالقرب من والده، أبو القاسم الخوئي، وأخيه السيد تقي الذي قتل على يد صدام بحادث مرتب له

بعد فترة من هروب السيد مجيد. وعلى ضوء تلك المعلومات، وجدنا القبر مقابل مرقد الإمام. عند فتح القبر فوجئنا بوجود ثلاثة جثث ملقاة واحدة بجانب الأخرى، ومن بينها جثة السيد مجيد رحمه الله.»

«وحصلت على الموافقة بإخراج الجثث من أقدس مكان على الأرض! كيف كان ذلك؟ أكاد لا أصدق.»

«عملياً، حسب قوانين صدام، نعم، عندي الصلاحية القانونية. ولكنني لا أدعي أنني أخرجت الجثث وحدي. يجب أن تفهم ان هناك صعوبات كبيرة حول مكان الدفن، بدايةً من حسّاسية المكان ويتبعه مكان الجامع الأخضر الذي يبعد قليلاً عن بيت السيد، ومكان الجريمة. بكلمات أخرى هناك اعتبارات روحية ودينية واجتماعية وأهمها البعد الأمني، تتحكم بمسألة إخراج جثة السيد مجيد لتشريحها. لم تكن هذه مهمة اعتيادية.»

«فما الذي قمت بعمله؟»

«طلبت الموافقة من مكتب المرجع الأعلى نفسه، رعاه الله. أجاب في رسالة لنا، والتي أحتفظ بها أيضاً في ذات الملف، ذاكراً فيها لو كانت عملية التشريح ستساعد على كشف الحقيقة، كانت تلك كلماته، فإنه يعطينا موافقته ودعمه الكامل لفتح القبر، وهذا هو الذي سهل لنا إخراج جثة السيد مجيد.»

«كل هذا في الملف؟» سألته.

«هو كذلك... وكذلك الأوراق المتعلقة بالتشريح الجديد الذي أجريناه. فى اعتقادي كان هذا أدق تشريح رأيته في عملي كقاضي تحقيق.»

«وماذا كانت نتيجة التشريح؟»

«لقد أكّد التشريح أقوال الثلاثين شاهداً الذين أخذت إفاداتهم. كم كنت مندهشاً. لقد تطابقت مائة في المائة مع تقرير التشريح. جراح السكين وكيف كانت يداه مقيدتين وقطع أحد أصابع يديه وكسر عضم فكّه، والطعن المتعدد في كل مكان في جسده. كانت جراح السكين مختلفة، بعضها عميق والآخر سطحي، وبينها قاتل.»

«لم أكن أعلم بقطع الإصبع. هل كان الأمريكيون مطلعين على ما يجري؟»

«أبداً. لم يكن أحد يراهم داخل النجف في تلك الأيام. لقد أخبرت الضابط المسؤول عن إخراج جثة السيد مجيد.»

«أنا مندهش كيف لم تخف أو تتردد في ملاحقة تلك القضية.»

«كنت ساذجاً في البداية، فلم أتعامل مع مؤامرات رجال الدين من قبل، وهم العنصر الرئيسي في مدينتنا. وكانت تطلعاتي هي الحصول على عمل في بغداد. يمكنك القول أني وقعت في مستنقع، لأنني لم أكن أعرف إلى أين أنا ماضٍ. وقتها كان قد فات الأوان، فما أن تبدأ بشيء كهذا فلا عودة إلى الوراء. يجب ان تذهب حيث تأخذك الأدلة. كما أني كنت مؤمناً بعملي، على عكس ما كان الأمريكيون يعتقدون عند وصولهم. في العراق قبل السقوط كان هناك حقاً قضاء وقضاة محترفون ومحاكم. لم يكن كل شيء متأثراً بالسياسة. جاء الأمريكيون بفكرة ان كل القضاة كانوا بعثيين فاسدين يخدمون مصلحة الحزب. هذا هو الجهل. لمعلوماتك كانت هناك محاكم سياسية وموظفوها بعثيون ومحاكمات سياسية وسجون سياسية. كل هذا صحيح. ولكنها كانت تمثل نسبة مئوية ضئيلة من باقي النظام القضائي، ففي الوقت نفسه كانت

هناك السرقات والجرائم بكل أشكالها. أنا كنت جزءاً من ذلك النظام وكنت شاباً وطموحاً ولدي حلم بأن أصبح قاضياً مرموقاً في يومٍ ما.»

«هل ضغط عليك أحد للتخلي عن قضية السيد مجيد؟»

«نصحني زملاء في الشرطة والمحاكم بوقف التحقيق. أخبروني بخطورته عليّ وعلى عائلتي. قالوا ان لبيت الصدر علاقة بما جرى، وتوريطهم قد يؤدي إلى تبعات سيئة وخطيرة لا تعرف عواقبها. ولكن الغريب بالامر هو انّهم كلما كانوا ينذرونني كلما ازددت رغبة بمعرفة المزيد حول ملابسات القضية. وعندما فتحت ملفاً خاصاً بالقضية وأخذت إفادات أكثر من ثلاثين شاهداً، أدركت ان الأوان قد فات للتراجع. لقد بدا لي واضحا ان الموقف خطير، لكن وجب عليّ الاستمرار مهما كانت العواقب وخيمة.»

«ماذا حدث؟ لماذا وخيمة؟»

«كان هناك محاولتان لاغتيالي. الأولى، قنبلة وضعت خارج مكتبي، وقد أوقفت الشرطة مفعولها. والثانية، كمين وضع لسيارتي من بعيد، قاذفة صواريخ، ولكنها لم تصب هدفها.»

«متى كانت اول مرة علِمت باحتمال تورط بيت الصدر؟»

«عملياً كل الشهود ذكروا ذلك. والدة الكليدار المسنة اتهمته مباشرةً، وطالبت بالانتقام لدم ابنها. أرادت ان تقدم إفادة باتهام السيد بالقتل. لكنها لم تستطع القدوم إلى المحكمة لكبر سنها مما جعلني اذهب إلى بيتها لأخذ إفادتها. قالت انها تستطيع ان تشهد بأن السيد مجيد جاء إلى بيتهم وعندما غادر كان معه ابنها واتجها نحو مكتبه في المرقد. كما قامت أخت الكليدار، وهي طبيبة مرموقة في المدينة، بتقديم شكوى. بالطبع ليس لدى الاثنتين أيّ دليل على تورط السيد. وبمرور الوقت

سحبت هذه العوائل نفسها من القضية بسبب التهديدات التي تعرضت لها على ما أعتقد.»

«ماذا حصل بعد ذلك؟»

«زرت مكان الجريمة. ووجدت ما تبقى من الأدلة، من آثار الدم المتجمد والعيارات النارية. فصورتها جميعاً وصنفتها بالملف. وجدنا أغلفة طلقات نارية والسكاكين التي أُستخدمت في الطعن. كل شيء وضع في الملف.»

«ألم يكن زملاؤك في المكتب وفي إدارة المحكمة والشرطة خائفين؟»

«كانوا كذلك ولكن رئيس المحكمة وقف معي وأراد استمرار التحقيقات. وكان معي أيضاً محقق مساعد آخر لا يخاف من شيء، وبصراحة، كان معظم رجال الشرطة يقومون بدور ممتاز وأظهروا مهنية عالية. لعلمك، كانوا منتسبين في جهاز الشرطة السابق حيث لم يجرِ تعين منتسبين جدد بعد.»

«هل يمكن أن تخبرني المزيد عن الشهود.»

«انهم في صميم القضية. فالشبكة الأولى قادتنا إلى مجموعة أخرى تضم حوالي خمسين اسماً. هؤلاء كانوا متواجدين في مكان الحادث. ويمكن ان يصبحوا شهوداً. وبالتدريج قلصنا العدد لحوالي عشرين شاهداً مهمّاً في القضية، من بينهم اثنان كانا قريبين من حادث القتل كقربي منك الآن. كما ان شهادة كل واحد كانت تؤكد صحة الشهادات الأخرى، ويمكن من خلال ذلك معرفة من أمر بالقتل ومن قام بالضربة القاضية.»

«وماذا عن إلقاء القبض؟ هل ألقيت القبض على أي واحد منهم؟»

«بدأنا بإلقاء القبض في بداية تموز، مباشرةً بعد محاولة اغتيالي. وانتهت علاقتي كلياً بالقضية في شهر آب، عندما وصل بريمر أخيراً، وعينني في بغداد. في النهاية كانت هناك ثلاثون إفادة في الملف. وصدرت أوامر بإلقاء القبض على كل من ظهر تورطه، ومن ضمنهم شهود. معظم الموقوفين بدأوا حالاً بالاعتراف. لدينا شهاداتهم. حالما جيء بهم إلى مركز الشرطة للإفادة الأولية، بدأوا ينطقون بتورط أشخاص آخرين. استمررنا بإلقاء القبض وأخذ المزيد من الاعترافات. أصبح واضحاً ان المجموعة التي كانت ملتفة حول الجثة كانت متكونة من خليط من البشر، بعضهم تهمهم خفيفة كالسرقة، بينما آخرون متهمون بجرائم قتل. شباب بدون إيديولوجية، بلا عمل، وليس لديهم أي خلاف شخصي مع السيد مجيد، فقط أصحاب سوابق. كما كان هناك مواطنون عاديون بينهم، أخلينا سبيلهم مباشرةً. أمّا أبرزهم فقد كانوا أشخاصاً يعملون في مكتب السيد ويبدو أنهم كانوا يعطون الأوامر ويديرون الموقف. وحتى هؤلاء بدأوا بالاعتراف. بعضهم كان يسرد القصة بالتفصيل، كيف أمسكوا بالسيد مجيد ثم قيدوه، ومن أعطى الأوامر، وحتى الكلام الذي قيل حينها.»

«قيّدوه؟»

«نعم، واضعين يديه خلف ظهره وقد ربطوا الحبل حول صدره عدّة مرات. لقد كان بلا حول ولا قوة. لقد وجدت ذلك امراً غريباً فسألتهم من أعطى الأوامر بتقييد يديه. رجال السيد، هذا كل ما قاله الشهود. عندما سألتهم لماذا فعلوا هذا، كان الجواب، أنهم نفذوا الأوامر. اتفق الجميع بأنه كانت هناك أوامر.»

«ماذا كانت بالضبط تلك الأوامر؟» سألت القاضي وقد بدأتُ

أتحمّس. «من المهم معرفة ذلك. لربما كانت أوامر لحماية السيد مجيد؟»

«صحيح، هذا بالضبط ما ادّعاه أحدهم. كل المتهمين كانوا متفقين على تلقي الأوامر بإحضار السيد مجيد إلى مكتب السيد. وفجأة اندفع أحدهم وقال: (كنا نحميه من الغوغاء).»

«رأيت!» هذا ما قلته. «ذلك كان ظنّي دائماً. بالتأكيد هذا يسلط ضوءاً مختلفاً على الحدث؟»

«ليس بالضرورة... ليس بعد أن تجمع كل الأدلة بعناية»، أجابني القاضي. «تحديت هذا الشاهد في وقتها، متسائلاً، إذا كنتم تدافعون عن السيد مجيد فلماذا إذن قيدّتم يديه؟ ولماذا خلف ظهره وليس أمامه، لكان على الأقل بمستطاعته رد اللكمات الموجهة نحوه من جميع الجهات؟ ولماذا ربط الحبل عدة مرات حول صدره ما جعله غير قادر على الحركة؟ ولماذا سمحتم للناس ان يضربوه ويطعنوه بالسكاكين على طول الطريق المؤدي إلى مكتب السيد؟ لماذا قمتم بكل هذه الأعمال لو كنتم فعلاً تريدون حمايته من الحشود؟»

«بماذا أجابك الرجل؟» سألته وقد خاب أملي.

«صمت وأطرقَ نحو الأرض.»

كنت أتمتِمُ مع نفسي، ثم صمتُّ. «لقد كنت أتمنى»، قلت بصوتٍ خافت... «اللعنة! لا أدري ماذا كنت أتمنى.»

شعرتُ أن أوهامي بدأت تتبدد. قام القاضي بنجدتي حين وضع قدحاً من الماء أمامي. في ذلك الحين دخل السكرتير، ومن فتحة الباب أبلغ القاضي بمواعيد واجبة خلال اليوم ثم خرج. ظننت أنه سيستأذِنَ مني لمتابعتها، إلا أنه أكمل حديثه معي وكأن شيئاً مهماً خطر على باله:

«بالمناسبة»، قال وهو ينظر لقدحه بينما كان يصب الماء، «كل الرجال الذين ألقي القبض عليهم كانوا خائفين. أعني حقيقةً خائفين. يعلمون انهم وقعوا في عش الزنابير ولا يعلمون إن كان سيجيء أحدٌ لإنقاذهم. لا أنسى منظر الرجل الذي يرتدي العمامة. لابد انه كان شيخاً. قال شيئاً بلغة المعممين الفصيحة التي لم أفهمها. قال ان السيد طلب منا إحضار السيد مجيد (ليقول قوله فيه). لم أفهم ذلك المصطلح اللغوي، الذي في اعتقادي هو مصطلح من القرون الوسطى. اكتشفت لاحقاً أن السيد أرادهم ان يحضروا السيد مجيد لديه ليقرر مصيره.»

«كيف كانت الحالة التي آل إليها السيد مجيد عندما وصل عتبة مكتب السيد؟»

«كان بالكاد يستطيع الوقوف على رجليه وإدراك ما يحصل حوله، ولكنه كان ما يزال قادراً على التكلم وبذات اللغة العربية الفصحى التي يتكلم بها مثل هؤلاء المعممين. طلب حماية بيت الصدر له. أنت تعلم ان طلب كهذا له وقع كبير عندنا نحن العرب، ليست من شيمة العربي رفضه، بل عليه ان يعطي كامل الحماية والضيافة حتى لو كان طالبها قاتلاً. كان إثنان من الرجال الذين مع السيد قد لقيا حتفهما. لم يتمكن سوى سيد مجيد واثنين آخرين من الوصول إلى مكتب السيد. الآن جاء وقت الحساب. تُرى ماذا سيقول السيد؟»

«حقيقةً لحظة حاسمة»، قلت بذهول.

«بل لحظةً تاريخية لو فكرّت فيها»، أجابني القاضي وهو يحدق في عيني وقد توقف بالكامل عن الحركة.

«أعني، هنا إثنان لمرجعين مبجلين وكبيرين ينتميان إلى أعظم بيتين للشيعة في العالم، أحدهم جاء مع الأمريكيين لتحرير العراق والآخر

بقي وعاش طوال حياته تحت حكم صدام. كلاهما تعرض أبواهما لطغيان الطاغية، وكلاهما فقد على الأقل شخصاً واحداً من المقربين له على يد رجاله. يلتقيان في يوم سقوط بغداد بينهما باب بيت مجاور لمرقد الإمام... بيت في أقدس بقعةٍ للشيعة في العالم... أحدهما يطلب حماية الآخر. هل من الممكن تخيل حدثاً أكبر من هذا؟»

قبل الإعدام

ساد الصمت بيننا. ملكني شعور بأن شيئاً مهماً قد حدث. فات أوان المراوغة. أنا الآن في نهاية الطريق.

بدا لي أن الوقت قد أصبح متأخراً ولم أتوقع من القاضي أن يمنحني وقتاً أكثر من ذلك. من المؤكد لديه واجبات أخرى عليه القيام بها. عليّ أن أمتص أي تفصيلة إضافية بالإمكان الحصول عليها في الدقائق الباقية لي معه. «ماذا حدث بعد ذلك، سيدي القاضي؟» سألته.

انتبه من استغراقه بأفكاره، وبسرعة عاد لوضعه السابق.

«في هذه المرحلة هناك وجهان لكل ما قد حصل. الوجه الأول هو أن السيد أراد أن يحمي السيد مجيد. ولكن هذا ليس منطقياً وإلاّ لفُتِحَت الباب وأُدخل السيد مجيد إلى المكتب ولضُمِدت جراحه. ولكن هذا لم يحصل. كان هناك شاهدان قريبان جداً مما حصل ذلك اليوم وأعطياني معلومات متناقضة. لقد سمعا حقيقةً ما قال السيد، «خذوه من هنا وتخلصوا منه». والذي فتح الباب وبلّغ الرسالة هو رجل لا نعرف هويته، لِعلمِكَ، لم يكن هناك أكثر من متر أو مترين بين داخل المكتب والحشود الواقفة خارجه، وعند سماعهم ذلك، طعِنَ السيد مجيد الطعنة القاضية بسكين طويلة أغمدت في جانبه الأيسر. كانت هذه هي الطعنة التي قتلته. وقع على الأرض غارقاً بجراحه ولكنه لم يمت بعد. ومن

المؤكد انه كان هناك مجموعة من الأشخاص في الداخل يتهامسون ويتكلمون مع بعضهم في الوقت نفسه. بعد لحظات خرج رجل آخر من باب المكتب، قائلاً «يقول السيد، أتركوه جانباً، حتى يقول قوله فيه». ولكن فات الأوان، عندها كان السيد مجيد يلفظ أنفاسه الأخيرة.»

«كيف تفسر ما حدث؟»

«لو كان الشهود كافة على صواب ـ تذكر اننا نتكلم عن شهادات بشر والتي هي بطبيعتها غير دقيقة ـ هذا يعني أن السيد غيرّ رأيه لسببٍ ما في اللحظة الأخيرة، ولكن عندها كان السيد مجيد قد مات.»

«وماذا حصل للجثة؟»

«لقد رُميت ككيس مهملات في الشارع، حيث رأيتَها. عندما أصبح المكان آمناً أخذ أقرباؤه وأصدقاؤه الجثة ودفنوها قرب والده في مرقد الإمام.»

«ألم يعترض أحد؟»

«لا أحد، لقد كان سيداً وحفيد النبي وقانون السماء يمنع غير ذلك.»

«لربما أنت على حق.»

لا أعلم لماذا قلت ذلك. كلامي لم يكن في محله. شعرت بحاجة لوقت أكثر لكي استوعب كل ما سمعته فمددت يدي نحو قدح الماء وأخذت منه بضع قطرات ساحباً نفساً عميقاً واتكأت على الأريكة في مكتب القاضي. آلاف من التساؤلات خطرت ببالي بالرغم من أنني قد سمعت كل ما أردت سماعهُ. تهيأت للمغادرة وما أن وصلت الباب حتى توقفت، ونظرت باتجاه القاضي مُحرجاً.

«عفواً سيدي... هناك سؤال شخصي. لا يهدأ بالي حتى أعرف جوابه... آسف، هذا آخر سؤال لي. أعِدُكَ... كان عمّي...»

«أعرف من هو عمك، عزيزي»، قاطعني وهو ينظر بعيني لإنقاذي من المزيد من التلعثم في كلامي؛ لم يكن هناك. لم يُذكر اسمه في أي إفادة من إفادات الشهود خلال التحقيقات. أقسم بشرفي.»

«شكراً سيدي. كم محظوظ بلدنا بنبلاء مثلك.»

•••

تركت مكتب القاضي واجتزت المنطقة الخضراء مخترقاً الحواجز الكونكريتية. مررت بوزارة التخطيط المجاورة لجسر الجمهورية وأنا في طريقي لساحة التحرير. مضيت في السير بالاتجاه الشمالي الغربي من الساحة دون وعي. ربما قادتني ساقاي نحو شقتنا أنا وحيدر. لا أتذكر. كل ما أذكره هو أني واصلت المشي ورأسي متدلٍ إلى الأسفل كأنني أمعِنُ النظر في الأوساخ المرمية على رصيف الشارع. حقيقةً لم أكن أحدق بشيء، إنما امتلأ رأسي بخواطر متفرقة تدفقت من السنوات الأربع الماضية على شكل صور ومقاطع من نقاشات تحوم حول حديثي مع القاضي، كلها باحثةً عن توازن في عقلي لم يكن موجوداً في الواقع.

لماذا قال عمي أن السيد مجيد عميل أمريكي؟ كان يعلم بأنه دُفن في مرقد الإمام بالقرب من والده، وعلى بعد أمتار من أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام. كيف يُسمح لعميل أمريكي ان يدفن هناك؟ بعد حديثي مع جدي أيقنت ان عمي لم يصدق أبداً أن السيد مجيد كان عميلاً. كل ما أراده عمي هو تشويه اسمه والتقليل من أهمية الجريمة آملاً وضعها جانباً وإخفاء حجم الحدث عني بالأخص.

أمي كانت تعرف السيد مجيد جيداً وأي نوع من الرجال كان. هل كان لديها علم برجوعه للعراق قبل عثوري على الجثة؟ هل كانت تعلم

بالجثة المرمية في الزقاق في ذلك اليوم المصيري في العاشر من نيسان ٢٠٠٣؟ كانت عندها شكوك نحو عمي، تساءلتُ مع نفسي، ولكن ما هي؟ قال القاضي أن عمي ليس له يد في الجريمة. مع ذلك، كانت أمي تشك بتورطه، لم تكن تثق به أبداً. لماذا لم تخبرني أنّ السيد مجيد المقتول كان صديق والدي؟ ربما تولّى مراسيم خطبتهم أو لعله كان السيد الذي عقد قرانهم.

لم تكن أمي تريد أن تخبرني هذه الأشياء لربما كانت تخاف عليّ وعلى علاقتي بعمي. مهما كانت مشاعرها الخاصة فهي لم تشأ أن تهدم العلاقة بيننا وبين عمي منذ وفاة والدي. أكاد أراها تكلم نفسها هكذا.

يعتقد جدي أن السيد مجيد رجلٌ شريف. ولكن هل كان يعلم من قتله؟ دون أي شك كان يشك ببيت الصدر، كذلك أهل النجف، ولكن الجميع التزم الصمت. الحديث عن الجريمة كان قد يفسد علاقته بعمي التي لم تكن أصلاً على ما يرام.

أما حيدر الذي حكيت له ما عرفته، فلم يخطر بباله أن عمي كان موجوداً وقت الحادث. ولم يتساءل حتى عمّن قتل السيد مجيد ولماذا. حقيقة لا أعتقد أن الموضوع كان يهمه. لقد تظاهر باهتمامه لمجاراتي كصديق ليس إلاّ.

بالتأكيد، لم يهتم باقي رفاقي في جيش الإمام وأبناء محلتنا بهذا الموضوع. لا يبدو أن أحداً يهتم أصلاً.

ضمّ مجلس الحكم من بين أعضائه الخمسة والعشرين تركماناً وكرداً وسنةً ومسيحيين. لم يرد الأعضاء الثلاثة عشر الشيعة في المجلس أن ينشروا غسيلهم القذر أمام الآخرين. فلم يسمحوا بمناقشة موضوع قتل السيد مجيد داخل المجلس. «مسألة خاصة بهم»، قال باقي أعضاء المجلس فيما بينهم. «صحيح جميعنا نعرف السيد مجيد على أنه شخص

نبيل ولكن ما دخلنا نحن إذا كان الأعضاء الشيعة لا يريدون اتهام أحد من جماعتهم في قتله؟» أشياء أخرى أكثر أهمية من مقتل رفيقهم شغلت مجلس الحكم في تلك الأيام.

ولكن الخمسة والعشرين كانوا جميعاً يعلمون من قتل السيد مجيد.

عصابة الثلاثة عشر، كما يطلق عليهم عمي، يعلمون تفاصيل أكثر بكثير من باقي أعضاء مجلس الحكم. كانوا على علم بصحة كل ما جمعه القاضي وكذلك المستشار الأمني ورئيس الوزراء والرئيس السابق لمجلس الحكم، كلهم تفاوضوا مع المحتل حول مسألة «تجميد» أمر إلقاء القبض على السيد وإخفاء الجريمة. لفّقوا ملفاً جديداً عندما استلموا السلطة في العام الذي تلاه، ملف يعلمون أنه يضم أكاذيب لتغطية حقيقة ما حصل. قاموا بذلك مقابل صفقات مع السيد والتي تتعلق بمناوراتهم السياسية خلف الكواليس وطعنهم الواحد للآخر. كانوا بحاجة لمباركة السيد على تغطيتهم للجريمة ولجعلهم أقرب إليه.

آه لو علموا فقط مدى احتقاره لهم! ربما يعلمون، ولكنهم غير مبالين.

في أعقاب الحرب الأمريكية، والتي كانت عصابة الثلاثة عشر المستفيد الأكبر منها، خشوا على شرعيتهم في الحكم لو كُشِفت حقيقة ما حصل للسيد مجيد. سيحل العار عليهم لوعرف العالم أنهم صمتوا على ذبح واحدٍ منهم ورمي جثته في الزقاق. لو حصل هذا لتزعزعت ثقة المحتل بهم والعالم بأجمعه الذي كان حينها يراقب ما يحصل في العراق باهتمام شديد. كيف كان للمحتل أن يسّلم السلطة لرجال تجاهلوا سيادة القانون الذي نادوا به حين كان الطاغية في السلطة؟ لقد تآمر الثلاثة عشر لتغطية الجريمة، وأعدّوا ملفاً كاذباً ليظهر للعالم ان البيت الشيعي متضامن، وان لم يكن كذلك في الحقيقة.

بقي الملف الأصلي الذي أعدّه القاضي مصدر خطر عليهم. لو وقع بيد بيت الحكيم فمن الممكن أن يستخدموه لابتزاز وتشويه بيت الصدر الذين حرموهم الهيمنة على شيعة العراق. لهذا السبب إذن أراد عمي أخذ الملف من القاضي. أراد التلاعب بالإفادات والأدلة قبل أن يقع في أيادي أعدائه. لم أُخبِر عمي بزيارتي للقاضي، كما لم أُخبِره بما استجدَ عندي من معلومات جديدة. لم أكن أريد أن يؤنبني ضميري بما قد يحصل. لهذا السبب ما كان للقاضي أن يعطيني نسخة من الملف حتى لو افترضنا أنه كان بحوزته.

عصابة الثلاثة عشر ومجلس الحكم، وكل من كان في المنفى من وزراء ومستشارين في الحكومة الشيعية الأولى التي جاءت بعد الحرب، جميعهم يعرفون جيداً من هو السيد مجيد، وكانو يكنّون له الاحترام الفائق، وأعتبروا أنفسهم من بين أصدقائه المقربين، وبالرغم من كل هذا اختاروا الصمت والتغطية على حقيقة مقتله. لو فُرِضَت عليهم مواجهة الحقيقة، لناشدوا بالمثل العليا التي كانوا «مضطرين» لوضعها في الصدارة، قبل أخلاقهم الشخصية والتزاماتهم تجاه صديقهم السيد مجيد وعائلته. ففي نهاية المطاف كانوا سيقولون إنها «كذبة نبيلة»، تحملنا ذنبها نيابة عن شيعة العراق كافة. سيشيرون علينا، رجال مثلي ومثل حيدر، ويقولون «أنظروا! إنهم على قيد الحياة! لفقنا كذبة لإنقاذ مثل هؤلاء من طيش المحتل وقواته في النجف في آب ٢٠٠٤... قمنا بذلك فقط لأجلهم... من حبنا لهم، وخوفنا عليهم.»

جميعهم اتفقوا على طمس الحقيقة، والتزموا الصمت.

بالطبع كان المحتل على دراية بمن قتل السيد مجيد، أصدروا بذلك قراراً بإلقاء القبض. ثم تمّ وقف تنفيذ هذا القرار بعد أن طالبت به عصابة

الثلاثة عشر. كان القائد العسكري الأمريكي لمدينة النجف الأشرف يعرف من قتل السيد مجيد. بول بريمر كان يعرف، وفي ظني حتى جورج بوش وتوني بلير ودونالد رامسفيلد وكولن باول، جميعهم كانوا يعرفون. كان السيد مجيد قد وضع ثقته بهم. كانوا حلفاءه.

لماذا تآمر الجميع إذن على حقيقة وجود شخص ميت وحادث قتل في مرقد الإمام يوم سقوط الطاغية؟ هل ظنوا ان القاضي ساذج مثلي لا علم لديه بما يحدث حوله، وأنه لن يعتقد ان كشف الحقيقة واجبه؟

لم يدرك القاضي جسامة ما كان يقوم به حتى خلال تحقيقه بالقضية. غالباً ما تنكشف الحقيقة على يد من هم ليسوا على دراية بما يقومون. كان زملاؤه في النجف أكثر إدراكاً للواقع. كانوا الشرفاء الوحيدين في هذه القضية. لماذا؟ لأنهم كانوا يتمنون له الخير، مما جعلهم يرجونه ان لا يتعمق في التحقيق خوفاً عليه من الأذى.

كل هذا التهرب والخوف بدأ بحادثِ قتلٍ. حادث قتلٍ نتج عن حقد كان يغلي في داخل سيدٍ تجاه نظيره السيد. كلهم سادة، أحفاد الرسول.تصور! هنا ابنان لعائلتين عريقتي النسب، كما حدثني القاضي، اجتمعا في مدينة مقدسة في يوم مبارك لوطنهما ومجتمعهما. عائلتاهما الكريمتان شكلتا الحياة الروحية لنا نحن الشيعة، ليس في النجف وحده، بل في كل بقاع الأرض. هل كان القتل نتيجة لصراع حول الأموال؟ أم بسبب المشاجرة التافهة حول من باع نفسه للطاغية؟ أم نتيجة الحقد الدفين بين العرب والإيرانيين؟

لا شك ان أفكار الآباء قد سممت عقول الأبناء. فقد البيتان بعض أحبابهما على يد الطاغية. أحدهما بقي، حزيناً على أبيه وإخوته المقتولين، والآخر هرب، وقد قتل أخوه انتقاماً في السنة اللاحقة. كم

كان الأذى كبيراً. كم كان الألم عميقاً. لماذا لم يوجه كل هذا الألم خارجاً نحو الطاغية؟ لماذا لم يجمع هذا الحزن بين الرجلين، بدل من أن يمزقهما؟

كلّها أسرار لا أحد يريد الإفصاح عنها.

لقد احتشد رجال سيدنا قاطعين الطريق المؤدي إلى دار المرجع الأعلى، معترضين السيد مجيد وهو في طريقه لزيارة تلميذ والده. لماذا إذن المضي لأبعد من ذلك، ومنع السيد مجيد من التكلم داخل الصحن، حاملين مسدسات وسكاكين داخل فناء الحرم المقدس؟ لماذا قيدوه ودفعوا به كالمجرم، ثم أشبعوه ضرباً وسحبوه أمام بيت السيد؟ كيف يمكن لحفيد النبي فعل هذا لحفيدٍ آخر له؟ يأمر بالقتل أولاً، ثم يغير رأيه! يا للعار! خَدَمته أربع سنوات. الحقيقة المرّة صدمتني الآن... ووجدتها قد أصبحت عارية، وتجلى كل شيء أمامي. ما الذي سيحلّ محلها؟ من أين أستعيد الإيمان؟ ما الذي بقي أصلاً يستحق الإيمان؟

لا شيء. لم يبقوا شيئاً لنا يستحق الإيمان.

أنظر بتمعن ودقق في تفاصيل بشاعة العالم. تعمق بها، بل اغطس واغرق فيها. ماذا عليك أن تفعل بعد هذا؟ أترفضها؟ أتدير ظهرك للعالم وتمشي؟ ولكن إلى اين؟ لا مكان. لا مفر من العالم.

الكل كانوا متخوفين. عاد الخوف كما كان في زمن الطاغية. أصبح الخوف القاسم المشترك بين جميع الذين تورطوا في قصة قتل السيد مجيد. نحن الشيعة الذين أردنا بناء عراق جديد بعد ٢٠٠٣، انطلقنا يوم ١٠ نيسان على أرضية بناها الخوف والحقد، مخاوف وأحقاد ترعرعت على الآلام وتغذت على الأكاذيب، خوف أخفيناهُ عن أنفسنا بالنفاق، ثم أضفينا شرعيةً على أكاذيبنا ونفاقنا والتي تُوجت كلها بحادثٍ قتلٍ.

ما الذي كان مخيفاً في شخص السيد مجيد؟ هل كان له أعداء أو ميليشيات أو رجال مسلحون؟ كلا. يقال أنه كان إنساناً وديعاً وشريفاً. هل أصبح محط مخاوف الرجال لأنه كان وديعاً وشريفاً؟ ان الذين لا يعرفون غير سوط الطاغية، لا يفهمون الرجال الذين يعيشون تحت مظلة قوانين أخرى في الحياة... ينظرون باحترامٍ فقط لأولئك الذين يحملون الأسواط. هم يفهمونهم.

ربما لم يكن شخص السيد مجيد هو الذي أخافهم، بل كانت قصة السيد مجيد مصدر كل مخاوفهم. فبدون قصته، لضاع موته في بحرٍ من الموتى، بحرٍ أغرقَ البلاد. أيّ بلاد تسألني؟ بلادنا المنكوبة بالطبع، بلاد أحفاد أولئك الذين قُتِلوا مثل ما قُتِلَ السيد مجيد، البلاد التي لم تعرف غير لغة النفاق والقسوة والقتل. الموت وحده في مثل هذه البلاد لا يعنى شيئاً: قُصصُ الموت تعني كل شيء. نحن بحاجة لمزيد من القصص. قصصِ رجال ونساء هذه البلاد، قصص تحكى عن كيف قتلوا، ولماذا.

اختُرتُ لأكتبَ قصة السيد مجيد. أمي وأبي أرادا ذلك. لأجلهما كتبتها. يشهد الله كم عانيت في كتابتها.

تكمن حقيقة الدنيا في تفاصيلها، تفاصيل جمعها القاضي وحاك خيوطها بدقة، تلك هي الأرضية التي بنيتُ عليها قصتي هذه. هي قصة عادية في نهاية المطاف، كقصص ملايين العراقيين المنسية والتي لم تجد من يرويها. كونها عادية، وجُمِعت من تفاصيلِ صغيرة ـ وقد تكون صغيرةٍ جداً وبشعة على الرغم من صغرها ـ ولكنها تُلمِحُ إلى شيءٍ أكبر قد أُسدِلَ الستار عليه، حقيقةٌ أعظم وأهم من تلك التفاصيل التي جمعها القاضي. حتى الشرفاء من الرجال يغضون النظر عن مثل هكذا حقيقة،

هيَ مُروعة ولكنها سامية في الوقت نفسه. حقيقةٌ أكبر بكثير من الأسرار التي أحاطت بمقتل رجل شريف واحد.

حقيقةٌ كبرى كهذه تهدد أسس الأشياء، كما تهدد الأقوياء وصغار العقول وضعاف النفوس أينما وجدوا. حتى الأنظمة القضائية قد تلوي باتجاهها أو ضدها.

حقيقةٌ كهذه في إمكانها إسقاط الحكومات أو إغضاب الملايين ليجتاحوا الشوارع سلمياً باسم الحق، أو كملائكة ثائرة تمزق وتدمر كل ما يعيق طريقها.

حقيقة كهذه تشبه البرق، تضيء أعتم زوايا نفوسنا السوداء، وخاصةً أولئك الرجال مالكي السلطة على الآخرين أو الذين يبيعون ضمائرهم لأجلها ويضحون بكل إنسانٍ يقف بوجه وصولهم إليها. رجالٌ كهؤلاء، رجالٌ كالذين حكمونا بعد سقوط الطاغية يخشون الضوء، ضوءٌ ساطع يُسَلَّطُ على خفايا نواياهم التي لا يبوحون بها. يطمعون بالحكم وبالدنيا، سواء كانوا يعلمون أو لا يعلمون مدى صغرهم وخباثتهم. هؤلاء هم الذين باسمنا، نحن شيعة العراق، أنزلوا الشر على أرضنا المسكينة المشبعة بالدماء.

ان كنت على حق في تأملاتي هذه، سألت نفسي وأنا أسير بين أنقاض بغداد شتاء عام ٢٠٠٦، من هو حقاً السيد مجيد؟ لماذا غدوتُ مهووساً به؟ هل تحول موت هذا الرجل إلى رمزٍ في مخيلتي، ولكن لمن ولماذا؟ في نهاية المطاف، السيد مجيد لم يكن رجلاً واحداً منعزلاً عن العالم، تابعاً فقط لنفسه وربما لعائلته، لقي حتفه قبل الأوان كالآلاف المؤلفة من الآخرين.

من هو هذا الرجل؟ إنه نحن. إنه كلنا. إنه أنا.

الجزء الثالث

عندما تقف الأرض

يحدثُ نادراً. عندما يهدأُ الصراخُ وتسكنُ الأرضَ على مِحورها،
حتى يقف دورانها تماماً
كلُ شيءٍ ساكنٌ حينذاك: العواصفُ، البواخرُ، وحتى الغيوم المحلقةُ فوق الوديان
كلها ساكنة. حتى الخيولُ في الحقولِ ساكنةٌ، لا تُحرِكُ عضلةً واحدةً،
وكأنها جزءٌ من لعبةِ شطرنجٍ لم تنته
ثم بعد فترةٍ ترجعُ الأرضُ إلى دورانها.
تبلعُ البحارُ مياهها وتلفظها، ويصعدُ البُخارُ من الوديانِ،
وتنتقلُ الخيولُ من الحقولِ السوداءِ إلى الحقولِ البيضاء.
وتسمعُ أيضاً من بعيد صفيرَ الهواءِ يتصادمُ مع الهواء.

زبغنيو هيربرت

٣٠ كانون الأول، ٢٠٠٦

الصباح الباكر

ثلاث ساعات وعشر دقائق مضت بين تسليم الطاغية إلى السلطة العراقية وموعد إعدامه في الساعة السادسة وتسع دقائق صباحاً. لو طرحنا الخمس وخمسين دقيقة التي استغرقها المسؤولون الكبار في الحكومة - من مكتب رئيس الوزراء إلى القضاة وأشخاص آخرين لم أتمكن من معرفتهم - يتظاهرون بأهميتهم وهم يقلبون الأوراق دون قراءتها ويتكلمون بأصوات مبالغ في إرتفاعها، ثم لو طرحنا بعد ذلك خمس دقائق أخرى للسير به عبر ممر ضعيف الإضاءة إلى الغرفة التي سينتظر بها إعدامه، ستبقى ساعتان وعشر دقائق تحديداً قبل إعدامه. وإن طرحنا منها أيضاً حوالي خمس دقائق أُخرى لمسيرته الأخيرة من غرفة الانتظار إلى غرفة الإعدام، فستبقى ساعتان وخمس دقائق بالتحديد، وهو الوقت الذي قضاه تحت حماية مجموعة مختارة من الحرس المرافقين له، وأنا أحدهم.

كان الجنود منتشرين في كل أنحاء المبنى، ولكننا فقط، نحن الأربعة، قد عُينّا لمرافقته طوال الوقت. إثنان منّا خارج الباب الوحيد المؤدي إلى الغرفة، تبادل المواقع مع الاثنين اللذين معه في داخلها.

كانت غرفة الانتظار صغيرة وبدون شباك، وقد زُوِدت بكرسي يتوسط

طاولة مستطيلة عليها قنينة ماء بلاستيكية وقدح واحد فقط. لقد أُمرنا بمعاملة السجين باحترام وتقديم الشاي له إن أراد ولا شيء غير ذلك. لم يخطر ببال أحد أن يمنعنا من التحدث معه. أنا لا أعني أن مسؤولينا وافقوا على الحديثِ معه. أعني أنه في تلك الظروف الاستثنائية لم يخطر الأمر ببالِ مسؤول واحد، ولا حتى على بالنا، نحن حُراسه الأربعة.

أرض الغرفة الكونكريتية وجدرانها كانت مشققة وقد دُهِنت بالأبيض على عجل دون تصليح الشقوق. الضوء الوحيد في الغرفة كان عبارة عن مصباح عارٍ متدلٍ بواسطة سلك من السقف من دون غلاف خارجي لإخفائه. أُختيِرَت للسجين غرفةٌ قد تصلح، في ظروفٍ مختلفة، في مكانٍ آخر، أن تستخدم لأغراضٍ مرعبةٍ لا أريد أن أتخيلها.

جلس صدام، ممدداً ساقيه الطويلتين تحت الطاولة. ثم غادر اثنان من رفاقي لحماية الغرفة من الخارج.

بقينا أنا وعلي، وهو شاب يكبرُني بسنوات، نتولى حماية الطاغية داخل الغرفة. كان علي قد ترك ذقنه بدون حلاقة وكانت ملابسه غير مهندمة على الرغم من كونها جديدة. وقفنا باستعداد على جانبي الغرفة ننظر إلى الفراغِ أمامنا، بالاتجاه العام للطاولة التي كان صدام جالساً عليها. مهمتنا مراقبة كل شيء قد يفعله السجين، كمحاولة انتحار مثلاً، أو أيّ شيءٍ أسوأ من ذلك، أيّ شيءٍ قد يحصل داخل الغرفة، قيل لنا. لم أجد مبرراً لكل هذه المخاوف ولكن هكذا كانت الأوامر.

* * *

ما أن تُركنا أنا وعلي وحدنا داخل الغرفة حتى بدأ الطاغية يُحدِقُ بنا بتلك العينين التي قِيلَ وكُتِبَ عنها الكثير: كبيرتين، ومدورتين، وغامقتي السواد، والأهم من كل هذا ذات نظراتٍ نافذةٍ.

«أنتَ!» صرخَ، مشيراً إلى رفيقي عليّ، الذي كان قميصه غير مكوي. «نعم أنت، الذي تلعب بكلاشنكوفك والواقف بالزاوية مقلباً عينيك في كل الاتجاهات من الخوف. لا تتحرك! أنا أتحدث معك. ترتدي نعال؟ أين تظن نفسك يا إبني؟»

لم أُلاحِظ نعاله حتى تلك اللحظة. كان عليٌ قد استبدل بسطاله الجديد الذي زودته الدولة قبل يومين، بهذا النعال لأن جلد البسطال القاسي كان يؤلمه كما أخبرني لاحقاً.

«أنظر للقذارة المتراكمة على أصابع رجلك»، قال صدام متحدثاً بهدوء. «أظن أن رجلك لم تمس الماء منذ شهر. ألم ترتدِ حذاءً من قبل؟»

وقف عليٌ باستعداد مرتبك لا يعرف ماذا يقول أو يعمل، وعيناه تتقلّبان بسرعة فائقة.

«آه... طبعاً. أنت رجل مُحرّر الآن... نسيت ذلك.»

«اللعنة على حريتكم!» صرخ صدام فجأةً. «هذا تدهور وتخلف، وليس تحريراً.»

أكمل حديثه وعيناه تتجولان بين وجهِ عليٍّ ووجهي. ثم قال:

«لم أسمح لأيٍ من جنودي أن يقدّم نفسه بهذا المظهر... أبداً، ولا حتى مرة واحدة! علّمتهم حُبُ النظام، واحترام السلطة. أعطيت الرجال أحذيةً، جميعكم! ارتداء الأحذية هو حق وهو واجب. أصررتُ على تنفيذكُم هذه الواجبات والحقوق سواء أردتم أم لا. الجندي الذي يُؤمَر أن يكون نظيفاً ومنضبطاً، ويمارس التمارين الرياضية الصحيحة بشكل يومي، يستطيع الوقوف تحت الشمس مع سلاحه بدون تهاون لساعات عديدة. مثل ذلك الجندي، عندما يطلبُ منه، يعرفُ كيف يتصدّى

لهجوم إمبريالي، ويقوم بذلك بدون تردد... هل بمقدورك التصدي لهجوم امبريالي؟»

كان ينظر نحونا، عيونه الدائرية واسعة لا تومض. يقولون في المناخات المغبرة كبلادنا لا تتوقف العيون عن الومض. ولكن عينيه تختلفان عن باقي العيون، فهي لا تتحرك، ولا للحظة، كعيون الأفعى وهي تصطاد فأراً. أربكنا هذا، أنا وعليّ. يقال أن الرجال يجفلون عندما يحدقُ بهم صدام. التحديق وعدم ومض العين يزعزع النفوس. هكذا كان وقع الطاغية علينا في أول لقائنا الخارج عن كل ما كنت أفهمه عن حقيقة الدنيا.

استمر صدام بالحديث عندما أصبح واضحاً بأن علياً لن يجيب.

«لا، بالطبع لا... نحتاج إلى أجيال من العمل الشاق ليصبح الانضباط وحب النظام جزءاً لا يتجزأ من السليقة. ثلاثون عاماً عملت على أمثالكم... ولم تكن كافية. أنظر لسرعة تبخر كل ما قمتُ به! بقِيَ حبُ النظام على السطح، مصطنعاً، ولم ينغرس في طباعكم، حتى لم ينغرس مع أحسن رجالي، حرسي الجمهوري الذين اخترتهم واحداً واحداً. كم حاولت! كم من الوقت أمضيته في تعليمكم! كم أحببتكم وأنا أُعلِمكُم... آه احتجت وقتاً أكثر... أكثر بكثير.»

«الطريقة التي انهرتم بها كلكم في ٢٠٠٣ معيبة! يا للعار. لو تجرأ ضابط من ضباطي حتى أن يقترح إمكانية ذلك الانهيار سلفاً، لكنت أعدمته فوراً. الموضوع ليس بصحة اقتراحه أو خطئه، افهموا ذلك. واجبه إعلامي بالحقيقة كما يراها مهما كانت تبعاتها. ولكن معنويات الأمةِ بأكملها كانت على المحك، وواجبي كقائد رفع تلك المعنويات.

الضرورة دائماً مرّة، ولا تقبل الاستهانةُ بها. هي التي جعلتني أنسحِبُ من صحبةِ الآخرين، وهي التي أجبرتني على السيرَ وحيداً في هذا العالم، وبدون مشاركة حتى أفراد عائلتي. الصحبةُ بكل أشكالها تضعفُ إرادةَ الفرد، وثقته بنفسه، وعلى القائد الحقيقي إبعادها دائماً عنه.»

ثم نظر بعيداً، نظرات كأنها تخترق الجدران البيضاء المحيطة بالمصباح اليتيم المتدلي من سلكه كالتائه. ظننتُ أني شعرت بنبرة ندم حين تكلم ثانيةً. وكان صوته خافتاً لدرجة أني وجدتُ صعوبه في سماعِه.

«لربما كان على حق، هذا الضابط، حين أنذرني... مع ذلك كان على بغداد ان تقاوم أكثر، بل وجب عليها... مشاهدتها تسقط للأجنبي وتُنهب على يد أبنائها كان ذلك أتعس يوم في حياتي...»

طوى ذراعيه، وأراحهما فوق سطح الطاولة، بينما كانت عيناه تحدقان في خشب الطاولة. «ما فائدة كل ذلك الآن؟» قال محدثاً نفسه.

مرّت دقائق وأنا وعليٌ ينظر أحدنا للآخر بحيرةٍ. لقد توقف الطاغية عن الكلام. تنفسنا الصعداء وكأن غطاءً ثقيلاً قد أُزيح عنّا. وبعد لحظات، وكأننا على اتفاق، وقفنا منتصبين، محدقين للأمام، ماسكين كلاشنكوفاتنا باستعداد، آملين ان نبعد أنفسنا مما كان يبدو موقفاً محرجاً وضعنا فيه.

مرتخياً في جلسته، رافعاً رأسه نحو الأعلى، واصل صدام حديثهُ دون أن يوجه كلماته لأحدٍ منا بالتحديد.

«غثيان، آلآم في المعدة، حموضة حارقة... كلها بدأت ذلك اليوم»، قال، خافظاً صوته، في نبرةٍ كأنه يتحدث مع شخصٍ ما. «العاشر من

نيسان ٢٠٠٣، اليوم الذي انكسرت فيه سيادة العراق كغصنِ شجرةٍ يابسة، اليوم الذي هرب فيه رجال جيشي كالكلاب، ذيولهم بين أرجلهم... وثم ماذا إن فقدَتْ السوائلَ في عروقي توازُنها؟ أنا رجلٌ مُسِن... ولكن لا، أبداً لم تكن تلك الآلام لكبر سني. إنها آلامٌ أتت من كل ما كان من الممكن أن يكون، من الآمال والأحلام التي لم يقدر لها أن تتحقق، هذا هو الداء الذي ابتُليتُ به في ذلك اليوم المشؤوم.

«اللعنة! لماذا أسهِبُ في الحديث عن ذلك!» قال فجأةً رافعاً رأسه وبصوتٍ مرتفع عائداً إلى طبعه الذي ألفناه.

«لا يقع اللوم عليكم»، قال وهو ينظر إلى عليّ. بدا وجهه هرِماً، وظهرت تجاعيد التعبَ حول العينين السوداوين الكبيرتين، والتي ربما قد حاول إخفاءها بنوع من الماكياج. «قد تكون قذراً»، قال لعليّ، «ولكن على الأقل أنت تحاول أن تكون جندياً. انها ليست غلطتك. لم يحسنوا توجيهك. نفوسكم المحررة تائهة... تتدهورون يومياً، لا أحد مسؤولٌ عنكم». قال، وهو ينظر إلى نعليه وقدميه القذرتين.

«تتخيلون أنكم تتقدمون ولكنكم بالحقيقة ترجعون إلى الوراء، مسحوبين بقوى طبيعتكم البدائية، كما كان أجدادكم وأجداد أجدادكم. إلى الوراء، إلى الوراء، دائماً إلى الوراء... إلى الأرجل العارية المشققة، والتبول والتغوط في الأزقة... لا ماء نقي، لا كهرباء، كأيامي عندما كنت صبياً. أكادُ أراها قادمة... متى كان عندكم أربع ساعات متواصلة من الكهرباء؟ أو شارعٍ بدون رائحةِ المجاري؟

«خذ بكلامي! لقد سحق الأجنبي حُرمة مدنكم وتركوها مباحة لكل من هب ودب.

«اعتبروني، يا ولديّ، آخر ما تبقى من شيء كان اسمه العراق. وِلدتم وفي داخِلكم أجزاء مني غُرِست في أجسادكم لتدعم جدران

شخصياتكم الهشة. لم تعرفوا أحداً غيري. تُرى ماذا سيحلُ بكم إن لم يعد صدام حسين في حياتكم؟»

توقف عن الكلام لبرهة، وهو جالس على كرسيه. أظن انه كان متمتعاً. على الأقل لم تعد عيناه ثاقبتين كالسيف نحونا.

«هل لاحظتم ما حدث قبل أقل من ساعة؟ ربما لا... ليس هناك مبرر لذلك. سأخبركم. أحد القضاة الذين كانوا في انتظاري، ناداني (بسيدي الرئيس)... سيدي الرئيس! هل تصدقون! آه، كم أتلذذُ بنكهةِ تلكَ اللحظات. حكامكم نسوا أنهم حكام بالرغم من أنفسهم. عقلهم الواعي يستسلم للغريزة! بالأخص هذا القاضي يعرفني جيداً. أنا الذي قمت بتعيينه. اكتشفنا مؤامرات كثيرة معاً، وفي كل مرةٍ كان يورطُ نفسه أكثر من التي سبقتها... الآن لا يعرف من هو، ذلك العجوز الغبي. لكنه بسرعة استدرك الموقف... بعد فوات الأوان. استدرت ونظرت نحوه كأنما أشكره على هذه المجاملة. إحمرَ وجهه كالشمندر. كنت أقدّر موقفهُ جيداً. في الحقيقة كنت متوقعاً ذلك. ليتجاوز الإحراج الذي وضع نفسه به صرخ آمراً، بصوت عالٍ أكثر مما هو مطلوب، أن اليوم هو أسعد يوم في حياته. لماذا؟ لأنني اعدمتُ أخيه وأنا الآن آخذ جزائي العادل.

«مسكين هذا الغبي، ذو الكرش الكبير! يا للتركيبة! هل تعلمون أني وضعت مسؤولي الدولة تحت حمية غذائية صارمة خلال الحرب العظيمة مع إيران؟ ومن ضمنهم ذلك القاضي. كانوا يوزَنون بانتظام، وتُنقص رواتبهم ان لم يلتزموا. ربما لم تعلموا، كان ذلك قبل ان تولدوا.

«بالطبع أمرتُ بقتل أخيه، مع ستة عشر آخرين على ما أتذكر. كان

مباشرةً بعد حرب أم المعارك في عام ١٩٩١، أكبر صفحة خيانة وغدر في تاريخ وطننا. كيف انهارَ أخوهُ! أتذكره جيداً، حتى عند وشايته بأصدقائه الستة الآخرين. في البداية كانوا عشرة فقط، ولكن رجالي جعلوه ينهار فاعترف مما جعل العدد يصبح ستة عشر. تخيلوا، شخصٌ تافه كهذا يسبب موته بلبلة في البلد!

«كم أحتقر المخبرين!... مع ذلك، لا يستطيع أحد التخلي عنهم... الحاجة تجعلنا نخلقُ هؤلاء. ما كنت أستطيع القيادة بدون مخبرين. الألم، مجرد التهديد به، يخلق المخبرين الموهوبين. هل تعلمون أن معدن الإنسان يظهر خلال عملية التعذيب؟ المؤلم هو ان في طبيعة عملية التعذيب تفقد الجيدين ويبقى على قيد الحياة الإنتهازيون مثلَ هذا القاضي. على أية حال، أمرت بقتل أخيه رغم تعاونه معنا. أعدمنا كل المجموعة لمجرد الشك بتآمرهم ضدي. لم تكن هناك أدلة كأسلحة أو وثائق مكتوبة أو تخطيط مسبق. لا شيء! فقط تقارير المخبرين واعترافاتهم... كلها مجرد كلمات، ولكن كلمات كهذه لا يمكن غض النظر عنها.

«لماذا تظنون أنهم لم يشنقوني على عملية التعذيب والإعدام هذه، ومئات مثلها؟... آه، ربما أسأتُ التخمين... الآلاف وليس المئات. كيف فات أجهزة مخابراتي عدّهم!

«فكر بالموضوع! آلاف لا تحصى مثل شقيق القاضي لقوا حتفهم في غُرفِ التعذيب، وعلى رأس القائمة إمامكم المبجّل، عم سيدكم ومؤسس حركتكم، محمد باقر من بيت الصدر. عُذِبَ وقُتِلَ مع أختهُ في عام ١٩٨٠. هذا هو حقاً رجل، خصوصاً تحمُلِه لكل أساليب التعذيب التي مارسناها عليه. لقد أُجبرتُ على قتله. كنت بحاجة إلى اعترافه وتسليمه لرفاقه، ولكنه قاوم وظلَ يرفض التعاون. أتعلمون أنّي توليت

العملية بنفسي، وهو في زنزانته؟ لم ينفع شيء. ولكنه في النهاية انهار... كلهم ينهارون. انكسرت شوكته بعد اغتصاب أخته أمام عينيه... كان ملجئي الأخير، كنت مجبراً على القيام بذلك... أحياناً يضطر القائد إلى اللجوء لهذه الأساليب الخبيثة.

«القسوة أقل خطأً من الضعف أو الغباء. على القائد دائماً أن يعمل ما تقتضي به الحاجة. فكّروا فيّ، يا أبنائي، وكأنني جراح ماهر، يقوم بعمليات على جسد رجل مليء بالأورام السرطانية، مجتثاً وباتراً ومتلاعباً بالأنسجة كلما أحتاج الأمر... أقوم بكل هذا لماذا؟ لإنقاذ الأمة. أنا جرّاح الوطن، وسيد باقر كان المريض المحتاج إلى مهارتي. في تلك الأيام كان يقف مع الخميني. كان عليّ تكسيره. وموته، وإن كان ذلك بشعاً، كان ضرورة ماسة للبلد. للضرورة أحكام. كل هذا ليس له علاقة باحترامي الفائق للسيد باقر الذي استمر طيلة محنته.»

توقف عن الكلام، وبعد دقائق نهض من مكانه وبدأ يجول في الغرفة جيئةً وذهاباً. ثم وقف وحدق بنا، وقال:

«حتى أحسنهم ينهار. الكل ينهارون. ولكن انهيار الرجل الشجاع بالأخص يثير الاشمئزاز. هنا قائد شيعة العراق، الذي ربما كان سيصبح خميني العراق، يتوسّل وينحب ويتضرع بدموع غزيرة ومطلقاً أصواتاً ككل البشر عندما يتألمون، بغض النظر عن هوياتهم: همهمات، آهات، تمتمات وصراخ... نحن كلنا متشابهون حين ننكسر، نعود إلى غرائزنا البايولوجية.

«الألم هو الميزان، يا ابنائي، هذا هو الذي يساوي بين الرجال. الألم يمحي الفروقات بين الناس - من اللغة إلى الثقافة والأفكار، والتراث، والعلاقات العائلية - إلى أن ينكمش عالم هذا الذي نجري

عمليات التعذيب عليه ـ والتعذيب شبيه بالعملية الجراحية الطبية ـ ينكمش عالمه بالكامل كما قلت ليتحول المُعذَب إلى حزمة من المشاعر والأحاسيس الأساسية للإنسان كما هو في الفطرة. وعن طريق الألم الموجه المدروس، أقصد التعذيب، نكون قد اختزلنا الإنسان، محطمين كيانه وعالمه، لنعيد بناءها مستقبلاً بما يصلح الحزب والثورة. مع التحطيم تبدأ الأسماء والاعترافات بالتساقط... ونلتقطهم الواحد تلوَ الآخر. هل أخبروكم أي شيء عن هذا؟ أقصد قياديكم المزعومين؟ بالطبع لا. لا يريدونكم أن تعرفوا حقيقة بطلكم السيد باقر الذي انهار أمام سكاكين ومقصات جراح الوطن كالآخرين. أنا أعرف، نعم أعرف...

«الآن أسألكم، لماذا لم تجر محاكمتي على كل الفظائع التي قمت بها تجاه السيد باقر وشقيقته؟»

كان سؤالاً منطقياً. لم أنسه أبداً وليس عندي جواب له لحد هذه اللحظة.

لا أعتقد أن أحداً كان يعرف على يقين، قبل يوم الشنق، ماذا حدث للسيد محمد باقر وقتها في عام ١٩٨٠. كل الفظائع التي تعرض لها كانت إشاعات نشرها الحزب لبث الرعب فينا.

«كنت أستطيع تقديم الأدلة»، استمر صدام، «وآخذ على عاتقي أمام الملأ المسؤولية كاملة لموت سيد باقر... كلما كان الضحية مهماً، وذا مركز مرموق بين الناس، كلما كان أفضل لهم. هذا هو المفروض. لقد أخبرت قضاة التحقيق بذلك مئات المرات. ولكن حكامكم لم يشاؤوا سلك ذلك الطريق. لماذا؟ كانوا يخشون أن أُخبِر العالم ليس فقط لماذا أعدمته، بل وحتى كيف مات، مرتعشاً، باكياً تحت قدمي... عمامته لم

تستحق حتى التبول عليها أمام الناس بعد كل ما عملت به. أما هالتي، وسمعتي، بعد الإفصاح عن كيف كسرت شوكة السيد باقر، فسترتفع إلى السماء لكوني الجبروت الذي يرعب الكل، وفي الوقت نفسه يفهمون أنني كالسيف القاطع أقوم بكل ما تقتضيه الحاجة لصد الأبواب أمام البرابرة.

«هناك من يقارنني بعيدي أمين أو معمر القذافي. لقد نسوا أني هزمت الدولة التي أهانت أمريكا، أقصد إيران، وألحقت الكويت بالعراق بأسم العروبة ورميت الغاز على الأكراد بما سميناه عمليات الأنفال إلى أن سحقتهم، لأصبح أول قائد عربي يحل المسألة الكردية حلاً جذرياً. قمت بكل هذه الإنجازات بدون أيّ اعتبار لأعداد الجثث كمقياسٍ لصحة أو خطأ ما فعلتُ. أشعلت النارَ في حقولِ النفط في الكويت لألقن حكام الخليج درساً. عارٌ عليهم! دفعوا للأجنبي ليقاتل مكانهم! وإن لقنتكم درساً أيها الشيعة فذلك كان لكي لا تنسوا من أنتم في المرة القادمة. تنتفضون ضد امتكم في وقت الحرب هي خيانة كبرى! ألم أعد بناء المفاعل النووي بعد كل مرّة يتم فيها تدميره؟ لماذا لا يحق للعرب امتلاك ما هو مسموح به لإسرائيل والغرب؟ قمت بكل ذلك مهما كلف الأمر في وقتها. كل ما كان يشغلني هو العزة والكرامة لكم ولأجيال العرب القادمة.

«كم ابتهج الفلسطينيون والعرب عندما قمت بتلك الأشياء! على الأقل كانوا يدركون ما كنت أقوم به. ألهذا السبب لم يحاكمني أقزام المحتل على هذه الإنجازات؟ كانو يعلمون بأني أردت ان أبقى في ذاكرتهم نتيجة أفعالي هذه! أستحق، بل وأطالب بمحاكمتي عليها. ولكنهم فضلوا إعدامي قبل إجراء مثل تلك المحاكمات. خشيَ هؤلاء الأقزام من أن يتبين صغرهم لو قورنوا بي. وتعرف ماذا؟ كانوا محقين.

«ما السبب الذي سأشنق لأجله في النهاية؟ لمعاقبة منظمة إرهابية صغيرة قامت بمحاولة اغتيال رئيسهم وبلدهم يخوضُ حرباً ضروساً؟ بالله عليكم! كان البلد تحت القصف! ١٩٨٢ كان أسوأ عام! لقد تقدم الإيرانيون ودخلوا الأراضي العراقية... وفي هذا الظرف بالأخص يطلقون النار على موكب رئيسهم في قرية نائية اسمها الدجيل! أين كانت هذه القرية البائسة من قبل! هل أحد سمع اسمها قبل محاكمتي. ما هذا الضجيج على شيء تافه لا يسوى الذكر اسمه دجيل! الملوك قَتلوا لأسباب أقل من هذه بكثير منذ فجر التاريخ، وقد أُشيد بهم بسبب ذلك.»

* * *

كان الطاغية على حق. قام بالقتل الجماعي العشوائي لسحق الانتفاضة عام ١٩٩١. عشرات الآلاف قتلوا ودفنوا أحياء في معتقلات كالرضوانية. آخرون تم جرفهم بالبلدوزرات في قبور جماعية مثل التي تم اكتشافها قرب مدينة الحلة. أبي كان في واحدة منها. لماذا لم يعاقب الطاغية على ما فعله بأبي وآخرين مثله؟

هل من المعقول أن يُعدَم الطاغية فقط من أجل ١٤٢ شخصاً من أتباع حزب رئيس الوزراء في الدجيل بدلاً من الملايين الذين قُتلوا والفظائع التي ألحقها بالأمة؟ من الأرجح أن رئيس الوزراء أراد الارتقاء بأهمية حزبه ودخوله التاريخ باختزال كل ما لحق بالأمة بحادثِ الدجيل. لقد اعترف الطاغية أمام المحكمة بكلِ ما فعله. وكان دائماً يتحمل مسؤولية أفعاله. لقد اعترف بإعدامات الدجيل، نافياً أهمية أسماء الموظفين والحزبيين الكبار المثبتة في تقارير المحكمة... ابتهج القضاة،

معتقدين انهم اقتلعوا «اعترافاً» من صدام نفسه. ولكنهم وقعوا في الفخ الذي نصبه صدام نفسه. هذه بالضبط ما كان يريد.

في هذه الأثناء عاد الطاغية إلى الكلام.

«هل تعتقدون أن الآمريكان قطعوا نصف الكرة الأرضية مع مئات الآلاف من الجنود لمعاقبتي لما حدث بالدجيل؟ ثلاث سنوات من السجن، تحقيقات مستمرة، آلاف من الوثائق... بلايين من الدولارات أُنفقت... وكل ما لديهم في النهاية تفاهة قصة الدجيل! انه حقاً أمر مثير للسخرية.»

«الأمر بالقتل والقابلية على القسوة، أي القدرة على التعذيب بطريقةٍ علمية مدروسة خالية من أحاسيس البشر عامةً، تستدعي شخصية قوية وقابلية فذّه على القيادة. كنتم صغاراً حينها ولا تتذكرون»، قال وهو يُقلّب بصرهُ ما بيني وزميلي عليّ.

«كنا متراجعين وخسائرنا فادحة. والمخربون الإيرانيون يتجولون في كل البلاد. ليس هناك أدنى شك في أن بعض الذين أعدمتهم في الدجيل كانوا أبرياء. ولكن هل كان بإمكاني إضاعة الوقت في غربلتهم بينما مصير العراق معلق؟

«إعدامهم جميعاً على الفور في الدجيل عزز سيادة دولتكم، التي كانت تتصدى لهجمات إيرانية مرعبة. لا تظنوا أنني كنت أعيرُ اهتماماً لسلطتي الشخصية. مستقبلكم أنتم وشعب العراق كان بيدي وعلى المحك... إنها الحرب يا أولادي! هذا معنى الحرب، رفاقكم وأخوانكم يُقتلون. هل أعرّض حياتهم للخطر لأتبين من كان بريئاً ومن كان مذنباً في الدجيل المزرية؟ وماذا لو نجح أبناء القحبة في محاولتهم في

الدجيل؟ لكان الإيرانيون دخلوا بغداد خلال أسبوع، ولكان معمّموكم سيقطعون رؤوسكم لعدم ارتدائكم الملابس المناسبة!

«يدفع الرجال دماءهم لأجل معتقداتهم. هكذا كانت الأمور تجري دائماً. استعدادهم للشهادة، والقابلية على فعل ذلك بامتياز، كقراري بإعدام من قاموا بالمحاولة في الدجيل، وتنفيذ ذلك القرار بإيمانٍ مطلق ودون تردد أمام الناس والعالم، هذه موهبة هناك القليل ممن يمتلكها. سمّها القابلية على القيادة، بل وحتى موهبة القيادة. هذه صفة غير موجودة في أشباه الرجال الذين وضعهم الآمريكان في غرفة المحكمة، رجال كالقاضي، والذي أراد أن يبدو أمام رفاقه في المحكمة بأنه ينتقم لأخيه، ذلك الأخ الذي كسرناه إلى أن وشى على كل أصدقائه.

«أنت لست مثلهم... هل انت؟... نعم، أحدث كليكما». ثم قال ضاحكاً «لا تقلقوا. فأنا لا أعضّ.»

«الله، هم الآمريكان الذين لا أفهمهم»، صاح فجأةً من دون أن ينتظر جواباً، تاركاً مقعده ومتجولاً في الغرفة الصغيرة، ماشياً بخطوات متأنية. بدا لي وأنا أترقبه أن كِبر السن قد ظهر على وجههِ بالرغم من الماكياج غير المتقن على وجهه.

«ألم يخططوا لليوم الذي يلي دخولهم؟» أكمل حديثهُ مُكلّماً نفسهُ. «كيف ستدافع عن مصالحكَ كمُحتل مع أناس مثل هؤلاء؟ كانت الدول تسعى للتفوق، لتهزم الواحدة الأخرى، وللمنتصر كل الغنائم. كانت قوانين الحرب بسيطة. لقد نفذْتها عند غزوي للكويت. ابتلع، دمر، استولِ على كل شيء، ثم لقن الأنذال درساً لن ينسوه... هذه قوانين الحرب من قديم الزمان. لكن هؤلاء الآمريكان يختلفون. لا تهمهم الغنائم، التي هي على أية حال ذهبت لعدوتهم إيران.

«جاءوا بفكرة غريبة: يريدون أن يحبهم الشعب المحتل بأكمله، وأن يصبحوا مثلهم. أنهم كالإنكليز وكلابهم. تملأهم الغبطة حين يظنون أن كلابهم تحبهم وتطيعهم، وتكون مثلهم. وكم تكون خيبة أملهم كبيرة عندما يتبين لهم أن ليس جميع الكلاب تحب أسيادها.»

توقّفَ عن مشيته فجأةً، وضرب السطح الخشبي للطاولة بقبضته، محولاً نظرةُ نحونا، عيونه كالحيّةِ المنقضّةِ على طير.

«أخبرني، ما الفخر الذي يُكتسب حين يتنافسُ متشابهان؟ التباين بين الأمم هو الذي يثير الدهشة. والغريب في الأمر أن داخل أمريكا العكس تماماً هو الصحيح. كل فردٍ هو أُمّةٌ بحدِ ذاتها، والجميع متساوون بمقدار حبهم لذاتهم، وليس لأي شيءٍ آخر. الأنانية الخالصة هي الصلة الوحيدة المشتركة التي تربط رجالهم ونساءهم بالعالم... على العكس منا نحنُ العرب.

«على السطح نبدو نحن العرب كخليط متنوّع من الدول والمجتمعات والأثنيات والطوائف. أنظر لتركيبتنا المتفرقة! فرقةٌ حمقاء. ولكن في الصميم، وبالرغم من هذه الفرقة، في فترات قد تكون نادرة، تنهض أمتنا وترتقي لتصِلَ إلى قمّة مجدها، موحّدةً كالحزمةِ، الكل متضامنون في سبيلِ هدفٍ واحد، الكل يضرب كقبضة حديدٍ واحدة... آه، خُلِقتُ لأعيشَ لحظاتٍ كهذه!

«أخبرني، أيها الشاب»، قال، وهو يحدّقُ بي، «هل تُحب أمريكا؟ أو أنت»، قال ملتفتاً نحو عليّ، «أتتمنى أن تكون أمريكياً؟»

لم نقل شيئاً. مسكين عليّ، بدا وكأنه يتلاشى، ينظر بتجهم على الشقوق في أرض الغرفة كالضائع. بدا مريضاً. كان الموقف مربكاً. لم

يعطنا أحد لائحة تعليمات لنعرف كيف نتصرّف في ظروف غريبة كالتي جمعتنا بالطاغية في تلك الغرفة. بدأتُ أخشى أن يقوم عليّ بشيء غبي.

«ظننتُ ذلك»، قال صدام.

ثم قال محدقاً بنا وبصوتٍ خافت وقد بدا واضحاً لي أنه توصّل لنتيجةٍ ما: «ربما أسأتُ فهم الآمريكان. ربما لم تكن في نيتهم أمركة العراق، بل الانتقام لهزيمتهم في أم المعارك في ١٩٩١. لعلهم كانوا يرغبون في الانهيار والفوضى التي نحن بها الآن. ولذلك لم يعيروا أي اهتمام لاقتراحاتي بالتفاوض بل تماشوا مع مهزلة تلك المحاكمة.»

• • •

عاد إلى مشيه ذهاباً وإياباً عبر الأرضية الكونكريتية العارية للغرفة متفادياً الشقوق، وقد شبك يديه خلف ظهره، موازناً كل خطوة لتطابق الخطوة التي تليها، يقلبُ أفكاره. مضت دقائق من الصمت، حتى بدا وكأنه توصّل إلى قرار. ثم نظر إلى الأعلى، وطلب منّا أن نسترخي ونستريح - وهو أمرٌ ليس بالسهل علينا في مثل هذه الظروف.

هو صدام، «رئيس العراق»، كما أشار لنفسه، لديه شيء مهم يضعهُ أمامنا. كانت «شهادتهُ»، كما أسماها، والتي كان قد أعطاها لمحاميه ولديه نسخة منها في جيب معطفهُ، مسودة لخطبته الأخيرة «للأجيال»، كما أدعى. تمنى أن يلقي بخطبته هذه في قاعة الإعدام. ولكن ذلك كان قبل أن يُسَلّم للسلطات العراقية. والآن بعد أن أيقنَ أن العراقيين سيعدمونه، وليس الأمريكان، سوف لن تُتاح له الفرصة بإلقائها. مد يده إلى معطفه وتناول عدداً من الأوراق المطوية باهتمام بالغ، ثمّ فرشها على الطاولة أمامهُ.

«ماذا سأفعل بهذه؟» سألنا مبتسما وبصوتٍ هادئٍ.

بدا عليّ وكأن وجوده في الغرفة خلال حديث الطاغية كان مخالفة قانونية. استمرّ صدام مبتسماً، بطريقة مُقلقة، وقد انزاح التعب عن وجهه. لعله كان يتمتع باللهو بمشاعرنا.

انتفضتُ قائلاً، «إقرأها!»

نظر نحوي عليّ مرتعباً. لقد كسرتُ السحرَ. أعتقد كانت تلك الكلمات الأولى التي كُلِّمَ بها الطاغية منذ أن ناداه القاضي بـ«السيد الرئيس». استدار صدام نحوي مبتسماً بغموض ومتمتعاً بالحالة التي نحن فيها.

«لا... لا أظن أني سأفعل ذلك. ليس هذا المكان مناسباً»، قال ذلك مشيراً بيديه إلى الغرفة. «أنك تبدو رجلاً شجاعاً». قال محركاً رأسه نحوي. «خذ، إقرأها أنت فيما بعد. مهمتك الآن حراستي. اعتبرها هدية. وزعها بين أصدقائك. بعها إن رغبت بذلك. قد تجعلك ثرياً ومشهوراً». قال بمكرٍ ومتلذذاً بكلماته الاستفزازية. دفع بالأوراق نحوي. أخذتُها ووضعتها في جيبي، معتزماً عدم النطق بكلمة أخرى بعدها. أما عليّ، فقد بدا وجهه شاحباً.

عاد الطاغية إلى كرسيه وبدأ وكأنه أصيب بتعبٍ مفاجئ، مخفياً وجهها براحتيه، وخلال ذلك فتحت الرسالة ولم أستطع الامتناع من إلقاء نظرة على سطورها الأولى.

«هذه شهادتي ووصيتي الأخيرة. أُعلنُ فيها أنّ محكمةً غير دستورية زائفة وضعها المحتل، قد أصدرت قراراً مجحفاً بإعدامي. أمام الله أقولُ، قرار الحكم عليّ هو بالحقيقةِ حُكمٌ عليكم يا أمة العرب وعلى أجدادكم. وليكن الله شاهداً أن كل ما قمتُ به وكل ما علّمتكم إيّاه جاء

امتداداً لتعاليم الملوك السومريين والبابليين والآشوريين، ومن بعدهم رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وخلفاؤه الراشدون.»

«كيف تجرؤ!» صرختُ، ناسياً بأني قد قررتُ الصمت. «أتُقارنُ نفسك برسول الله؟»

«هذا ليس الوقت أو المكان للتواضع»، قال بهدوء، بدا مغتبطاً لمواصلتي النقاش معه. ثم انحنى إلى الأمام باتجاهي، مؤشرا للساعة التي في يدي مشيراً فيها لقرب وقت إعدامه.

«أنا حصيلة خمسة الآف سنة من تاريخك.»

شغلت نفسي باللعب بالكلاشنكوف، منذهلاً من وقاحته، متمتماً شيئاً كهذا «أخذت فرصتكَ بالمحكمة ولم تنكر جرائمك.»

قال محدقاً بي ثانيةً بتلك العيون السوداء التي لا ترف، «هل كانت محكمتك؟ أم محكمة الأمريكان؟ العدالة الوحيدة التي اعترف بها هي التي تأتي منك.»

«مني؟»

«نعم، أنت... وهو»، أجاب مؤشراً برأسه باتجاه عليّ، «وشعب العراق بأكمله.»

«هذه التي تُدعى بالمحكمة وجِدَتْ»، قال، «لأني تصديت للأمريكان وأمريكا أحتلتنا. ليست محكمتكم. لقد صُممت للإيقاع بكم، السنة ضد الشيعة، والأكراد ضد العرب. لم أعترف بها أبداً.»

«لا أحد من خارج العراق يستطيع الإيقاع بين العراقيين. نحن إخوة في الصراع وفي المعاناة.»

«الأخوّة التي تتكلم عنها هي بالأصوات والألفاظ التافهة فقط. أنظر

لنفسك! تبدو كالمهرّج حاملاً هذا السلاح. أنت لست بحاجة له. أنا أريد الموت على خشبة المسرح، أمام الشعب. الحياة التي يُضحّى بها بالطريقة الصحيحة وفي الوقت الصحيح هي حياةٌ أُنفِقت بشكل جيد.»

«أنت تستحق الموت»، قلت له.

«لماذا؟»

«لأنه ليس هناك أشياء تندمُ عليها. أنت لا تعتذر عن جرائمك ولا تطلب المغفرة من ضحاياك.»

تنفس صدام عميقاً، ودفع برأسه إلى الوراء. «هل تسامحني؟»

«بالطبع لا.»

«وإن طلبت منك مسامحتي؟»

«عن ماذا؟»

«لأن صدام خيّبَ آمالكم وآمال الأمة.»

«من أنت لتخيب آمالنا؟»

«بالموت خيبتُ آمالكم... لم يُكتب لي تنفيذ الفكرة التي عشتُ لأجلها. حال القدر بيني وبين تنفيذها، وبذلك خيبتُ آمالكم.»

«لا تدع ذلك يشغلك. لا شيء باستطاعتك قوله أو فعله اليوم سيغير رأيي.»

«شابٌ ذكي!» قال مستمتعاً، «أنظر يا ابني، أحكم عليّ كواحد قضى نصف قرن من حياته كجزء لا يتجزأ من شعبه، أكثر من سنواتك على هذه الأرض. باستطاعتي أن أعلمك أشياء.»

«أشك في ذلك.»

«من تعلّم كيف يموت لا يعرف العبودية. في داخله حرية لا تملكها

أنت الآن حتى مع كلاشنكوفِكَ هذا. أقدم لك حريتي. دعها تكن درسك الأول.»

«لا أريدها.»

«آه... الآن تقول ذلك. ولكن حقيقة دكتاتوريتي ستبقى على قيد الحياة بينكم كالهمسات، في آخر الليل، في غرفة معيشتك، عندما تتناقشُ مع أقرانك عن الفضائح اليومية التي تدور حولكم. ستبقى هذه الحقيقة على قيد الحياة من بعدي لأنها تولدُ بالمجتمع. تولدُ طبيعياً من الغريزة البشرية للوحدة، وللأمان، وللنظام. أنا أعطيتكم كل تلك الأشياء، ولكنها تلاشت إلى حد الانعدام اليوم. ولكن الرغبة في أستِعادتها سوف لن تذهب، وفي تلك اللحظة التي ستشعر بهذه الرغبة، إعلم أن روحي قد عادت، لتسير بينكم. لذلك موتي اليوم فداء لكم، وسِرُ خلاصِكُم في المستقبل.»

في إحدى كتب والدي قرأتُ عن معتقَد قديم خطر على بالي الآن، يدّعي أنّ الملك ذا السيادة الحقيقية له جسدان: واحد دنيوي، قابل للموت، والآخر خالد، لا يموت. كيف يتجرأ أن يتكلم معي هذا الطاغية، هذا المخادع المهووس بالإبادة الجماعية، دكتاتور العصر الذي لا مثيل له في العالم، عن الروحانيات والأخلاق والخلاص! هل كان يضحك على عقول ناس بسطاء مثلنا أنا وعليّ؟

«أرواح تحوم بين الأحياء... يا للتفاهة!» أجبته بصوتٍ مرتفع. «حياتك كلها بمثابة جريمة بحق هذا البلد. لو عِشتَ لهدفٍ ما لكان لتلك القصور التي ما توقفتَ عن بنائها بينما نحن محرومون تحت وطأة العقوبات.»

«وأنت، ما الذي تعيش لأجله؟»

«الحرية لأكون من أنا، ولطاعة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم.»

«إنتبه لما تتمناه. هذه الحرية المزيفة التي وهبها لكم المحتل تمهّد الطريق للسراق وضعاف النفوس. تنبع من فكرة أن كل البشر خُلقوا صالحين بطبيعتهم، ثم تمّ إفسادهم بالمؤسسات المنحطّة، كالتي وضعتها أنا لتمشية أمور البلاد. بدلاً من مؤسساتي هذه، أقام المحتل مؤسسات جديدة، تلك التي يطلق عليها اسمَ «الديمقراطية». ولكن هذه الكذبة الكبرى الي يسميها بـ«الديمقراطية»، والتي أساسها كذبةٌ أكبر اسمها «الحرية»، خُلِقت منذ مئتي سنة فقط، وهي فترة وجيزة لو قارناها بحضارة آبائكم وأجدادكم في وادي الرافدين التي ترجع إلى خمسة آلاف سنة. ديمقراطيته الزائفة لو افترضنا أنها مورست لهذه الفترة القصيرة، لم تُطبّق الا بين النزر اليسير من البشر، وبقيت محصورة بين الناس أنفسهم الذين أحتلوا واستعمروا وقسّموا وسرقوا وحكموا العالم بأكمله على حساب الأكثرية الساحقة من الشعوب. الديمقراطية والامبريالية وجهان لذات العملة المشؤومة التي من ورائها استُعبِدَت الشعوب. مبادئ المحتل، وما يسميه بحقوق الإنسان، مصممة للإيقاع بمستقبل الوطن على حساب حاضره، وكلها مبنية على تاريخ عنف أكبر بكثير من الذي مارسته أنا عليكم. أهذا هو ما تريد العيش من أجله؟»

«بالطبع لا»!

«إسأل نفسك إذن: هل وجهة نظر المحتل عن الطبيعة البشرية مُقنعة؟ أنا أقول لا. الطبيعة البشرية خُلِقت ضعيفة وميالة لأحط غرائزها، ومحاولة «خداعها» من خلال مؤسسات جديدة ابتكرها المحتل اسمها «الديمقراطية» هو غباء مفرط، وخارج عن كل تقاليدنا العربية. أنت وصديقك هناك»، أضاف فجأةً مغيراً الموضوع، «المفروض أن تكونوا

جنوداً تابعين للجيش النظامي الجديد الذي أسسه المحتل. ألست كذلك؟»

«بالطبع نحن كذلك.»

«لا تكذب عليّ، ابني»، قال، «ليس لي الوقت لذلك.»

«حسناً، حسناً... في الحقيقة، أنا لست في الجيش العراقي النظامي. لبِستُ هذا الزي اليوم حسب أمر من قيادة جيش الإمام.»

ابتسم صدام قليلاً وكأنه قد سمع نكتة ما، ثم قال، «أظن أن رؤوساءكَ رتبوا كل هذا من وراء ظهر الأمريكان؟»

بقيتُ صامتاً لا أعرف ماذا أقول. قيادتي فعلاً قد أمرتني باستبدال جيشٍ بجيشٍ ولكن ليوم واحد فقط، يوم الإعدام. قيل لي أن لا أتباهى أو أتكلم عن انتمائي المؤقت في الجيش الجديد. في السابق، كنت أتخيل الحكومة التي انتُخِبَتْ في عام ٢٠٠٥ غير شرعية، ومجرد لعبة بيدِ المحتل. الآن أصبحتُ جندياً في تلك الحكومة غير الشرعية، وإن لم أحضَ بأي تدريب عسكري حتى ولو ليوم واحد وكما لم أشارك في انتخاباتها أصلاً. حقيقة الأمر، أن أول رجل قتلته خلال حرب النجف في عام ٢٠٠٤ لم يكن أمريكياً بل شيعي مثلي، يتبعُ الجيش نفسه الذي أنا الآن أرتدي بدلته العسكرية.

«طبيعتنا نحن العراقيين»، استمر صدام بصوت فيه نبرة حزن، «أننا أكثر غدراً وحقارةً من الآخرين. بين الفلسطينيين على سبيل المثال هناك حسد، ولكنه يأخذ شكل المنافسة على من يرتقي أكثر من الآخر في تلقي المعرفة. في عراقنا الحبيب الوضع معكوس تماماً: نفضلُ تشويه سمعة من امتاز علينا. لو كان الرجل غنياً، لتمنى له العراقيون زوال نعمته. لو كان كريماً، لأصر العراقيون على أنه يقوم بذلك لمصلحته

الخاصة. بؤس الآخرين وضعفهم أمام تقلبات القدر قلّما يثير الشفقة عندنا، بل سوء النية. أي هفوة من الرجل العراقي تكفي ليصبح مُهاناً من مجتمعه مدى حياته. نجاحي في إقامة نظام ديكتاتوري مثالي في العراق لم يرتكز إلى قابلياتي في الإرهاب والقمع كما يقول الناس بقدر ما اعتمَدَ على فهمي وتعاملي مع تلك الرذائل في نفوس أبناء شعبنا...»

عمّ السكون في الغرفة. ثم التفت صدام باتجاهي سائلاً:

«ما عدد حكامك الحاليين يا إبني، وأقصد بذلك كل الذين دخلوا وخرجوا من حكومات المحتل المتالية بما فيهم أعضاء البرلمان مع كل مستشاريهم ومهرجيهم. لا تنسَ المستشارين والمهرجين، حيث لا بد أنك تعلم أن عددهم كبير. كل هؤلاء، تقريباً كم شخصاً تقدر؟»

«ليس لديّ أي فكرة.»

«أقول، حوالي العشرة آلاف. ليس أكثر. هل هذا الرقم معقول؟ هذا إذا لم نشمل السكرتيرات طبعاً والفراشين، والموظفين الصغار، وغيرهم من بين الذين ليس لهم نفوذ فعلي في تمشية أمور البلد. هؤلاء العشرة آلاف جميعهم يشغلون المناصب المهمة في المؤسسات «الديمقراطية» البرّاقة التي منحكم إيّاها المحتل... موافق؟»

رجع السكون ليدب في الغرفة... إلى أن استأنفَ صدام الكلام.

«لنفترض جوابك نعم، الآن أخبرني، تبعاً لأي نظرية يتصرف هؤلاء العشرة آلاف اليوم؟ أقصد أي نظرية تخص طبيعة البشر، طبيعتهم في الفطرة يوم ولادتهم؟ نظريتي أم نظرية المحتل؟»

«عمّاذا تتحدّث؟»

«تمهل معي إبني. ركز على سياق الحديث رغم صعوبته. حاول أن تفهم. هل ما يقوم به هؤلاء العشرة آلاف يدعمُ وجهة النظر التي تزعم

أن الإنسان بطبيعته جيد وسليم في أخلاقه؟ هذه هي نظرية المحتل. سؤالي لك الآن: إن كان الأمر حقيقةً كذلك حسب تجربتك في الحياة؟ أم، أن تجربتك تدعم وجهة نظري القائلة أن الرجال في عمق أعماقهم، ومن يوم ولادتهم، أنانيون، راغبون دائماً بالثراء على حساب أولئك الذين من المفروض أن يقوموا بخدمتهم؟»

«لا أفهم... انك تلعب بالكلمات.»

«لا بل تفهم جيداً ما أقول يا ابني، ولكنك تخاف النتيجة التي حتماً سيؤدي إليها منطق هذا النقاش.»

«وإلى أين سيأخذني؟»

«إلى حقيقة نظام حكمي الاستبدادي ـ ولاحظ ابني أنا لا أتردد من استعمال الكلمات الدقيقة لوصف الأشياء ـ والتي تعتمد بالدرجة الأولى على معرفة حقيقة جشع وحقارة البشر. تراهم الآن، العشرة آلاف، يسرقون ويكذبون ويمتصون دم البلاد بشعارات المحتل من حرية وديمقراطية وفدرالية، إلى آخره من الشعارات الرنانة الزائفة. أليس هذا ببرهانٍ ساطع على صدقِ نظريتي؟ لا تخدع نفسك يا ابني!»

لم أرغب في الاستمرار، وبدا هو أيضاً مُتعَباً. مرّت دقائق حرِجةٌ، وكأنه غاطس في أفكاره. ثم تمتم بشيء غريب مع نفسه، وبدا كأنه يناقض كل ما قاله حتى الآن:

«بين أضعف وأقسى العراقيين رأيتُ أحياناً رجالاً كالشُهبِ التي تتلألأ ذراتها وتضيء السماء ولو لفترة وجيزة قبل أن تخفت. رجالٌ قليلون هم مثل هذه النجوم، يدب فيهم حب الآخر وروح الرحمة والشفقة، هذه الروح التي تضيء سماء بلدنا الحبيب وثم تهفت... عشتُ لأمثال أولئك القلة من الرجال، يا ابني. وسأموتُ من أجلهم

أيضاً. لم أقصد أي أهانة لشعب العراق بكلامي السابق. ولكن القائد الفذ عليه أن يتعامل مع واقع الأشياء، الواقع العام لرعيته، وليس الحالات الاستثنائية. أرجوك يا إبني، لا تسئ فهمي. الا ترى أنا مثلك... وواحد منكم.»

«لم تكن أبداً واحداً منّا!» صرختُ. «أنت بعيد عنا، تركتنا نُقتل في سجونك وحروبك التي لا تنتهي.»

«المستبد الحقيقي هو بالضرورة رجل وحيد، يدفع ثمن كبت مشاعِره وأحاسيسه أمام أقرب الناس إليه بدءاً بأفراد عائلته إلى أصدقائه. يعيش وحدته العميقة كالسجين في زنزانته، فارضاً على نفسه أن لا يحب أحداً، ولا يتوقّع أن يحبّه أحد. علّمته الحياة أن أقل الناس ثقةً، دائماً هم الذين يدّعون حبهم المطلق له... غريب، أليس كذلك، كيف كل شيء في النهاية يصب بشكل أو بآخر في الحب... أتحب العراق؟»

«كحياتي، لهذا السبب أنا أحمل هذا». قلت رافعاً كلاشنكوفي، ودافعاً بها أمام وجهه. «لهذا السبب أنا هنا.»

«أجدت الحديث!... تلك كانت الفكرة التي عشت وسأموت لأجلها. وأخيراً أرى أن هناك شيئاً يجمعنا.»

«مستحيل!» صرختُ، وبدا الغضب على وجهي ثانيةً.

«لنبدأ من كوني رئيسك.»

«أنت مجرم تنتظر إعدامك. لا أكثر ولا أقل.»

«مع ذلك، كنت رئيسك. مقبول؟ وأنتم إذن كنتم أولادي، أردتم ذلك أم لا. حتى أولئك الأنذال الذين جلسوا لمحاكمتي هم أيضاً أولادي. ربما لم تحبّوني، ولكنكم تعلمون جيداً بأني قوي وكنتم تخافونني وتحترمونني. تفعلون ذلك ليس لكوني محبوباً. أنا لم أنحن

لرأي أي أحد، ولم أساوم على مواقفي لتزداد شعبيتي. لمرّة أخيرة قارن بيني وبين هؤلاء الحكام الحالين، طبقة العشرة آلاف الذين تكلمنا عنهم سابقاً. أنظر كم هم يائسون لفرض سيطرتهم. يفعلون ذلك لأن شعبيتهم معدومة بين الجماهير. هؤلاء اليائسون يتمنون أن يظهروا كأبطال أمامكم، ولكنهم يعلمون في داخلهم أنهم ليسوا أهلاً لها. القيادة في نهاية المطاف ليست في طبعهم. الكثيرون الآن في بغداد يشيدون بي، أكثر منهم. إسأل نفسك: لماذا هم مكروهون لهذه الدرجة؟ الجواب: لأن لا أحد منهم يحب فكرةً أكبر من حبّه لذاته. فكرة العراق مثلاً يجهلونها كلياً. ولذلك تراهم ينحنون بولاء أمام أعدائكم، أحياناً إيران وأحياناً السعودية ودائماً لأمريكا... الآن السؤال: ما هو العراق بالنسبة لك؟»

«وطني، أمتي، مهد الحضارات. ابتكرنا الكتابة والقانون... هل تريدني أن أستمر؟»

«أحسنت الوصف. وما هي عراقيتك في الصميم؟ كيف تصفها؟»

«لا أعرف ماذا تقصد.»

«أقول لك أنّ روح كل أمةٍ في تفردها، وكمالها، أو وحدانيتها. بمعنى أنت إمّا جزءٌ منها أو لا. إمّا أنت معها أو ضدها. لا يوجد حل وسط. موافق؟»

«نعم.»

«هذه الروح للأمة هي بالأساس مجرد فكرة، فكرة مغلفة بالأسرار. أصولها يمكن أن تكون أشياء عديدة: كذبة، أسطورة، أو ربما موروثاً لا علم لنا به الآن. تفاصيلها ليست مهمة. المهم أن لا نعتبر أبداً أن فكرة الأمة هي مادة دنيوية بحتة. ليست هناك أمةٌ في العالم، مهما كانت عظيمة، بنيت على شيء اسمه الحقيقة أو الواقع. دائماً تبدأ بفكرة،

والتي كما قلت، قد تكون كذبة. تفاصيل تلك الكذبة هي التي تميز أمّةً عن الأخرى. بحد ذاتها التفاصيل أيضاً ليست ذات أهمية. المهم تصديقها. المهم الإيمان بها.»

«الإيمان بها؟» سألت حائراً.

«نعم. الإيمان بالأمة هو أهم مكون لها. على هذا الإيمان أن يكون أعمى، لا يلين أبداً، ولا يحتاج التأمل أو التفكير فيه أساساً.»

«ما هي إذن مقومات هذا الإيمان؟»

«مشاعر، غرائز، عادات، وموروثات... هذه هيَ مقومات لصناعة إيمان كالذي أكلمك عنه، وهذه المقومات تأتي قبل المنطق والمصلحة والفائدة. ولكن تذكر إبني، كل إيمانٍ له مقومات يرتكزُ على إيمان آخر ليس له مقومات. المهم ليس هو المقومات أو أسباب الأشياء. حُب الأمة يأتي قبل كل شيء. جوهر الإيمان هو الحب. الإيمان يعني حباً بِلا حدود، ويكون دائماً عنيفاً وقاسياً في التطبيق. الإيمان يشمل الكل، هو حب غير مقيّد، أعمى. هل أنت معي؟»

«أعتقد ذلك»، قلت رغم الحيرة التي غمرتني.

«منبع حبك، إيمانك، هو تلك البئر العميقة من خصوصيات تاريخنا نحن العرب. ذلك الميراث الثري الذي شكّلَ آمالك ورغباتك. إنه أنتَ. مشكلة المحتل في العراق، أو بالأحرى الحجر التي سيتعثرُ بها ليقع في الهاوية، إنّه يتعامل مع هذه الخصوصيات كمعاملته للسلع التي تُباع في الأسواق. قد يجدها المحتل فاتنة، ولكنه كالسائح الذي ينبهر بسوق الأنتيكات المزيفة. ليس لديه القدرة على فهم أعماق فرديتكم، والتي هي أساس ما أنتَ عليه كشخص.»

«أظن أني بدأت أرى ما تهدف إليه.»

«ممتاز. أدركتُ أنك ستفهمني. الآن أطلب منك أن تنظر لهذه الأفكار من زاويةٍ مختلفة.»

«حسناً.»

«هل أنت مسلم صالح؟»

«كيف تجرؤ»، صرختُ قبل أن يقاطعني.

«إمسك نفسك يا ابني، أنا فقط أريد أن انتقلَ معك خطوة منطقية بعد أخرى، وكأننا نحلل معادلة رياضية معاً. أصبر عليّ وتمهل. قد نصِلُ لنتيجة. هل لديك شيء آخر تفعله في هذه الغرفة الكئيبة خلال الساعة أو الساعتين التي بقيت لنا؟»

«استمر.»

«إذن أنت مسلم صالح، رجل ذو إيمان مطلق. أساس إيمانك هو حُبّكَ. هذا الحب للأمّةِ هو كالروح لكل خلايا الجسد. الدم والعظام والأعضاء، كلها أشياء دنيوية ستعود للأرض. ولكن لروحك علاقة مختلفة تماماً مع الله، الذي تتمنى أن تدخل مملكته في يوم من الأيام. كذلك الحال مع الأمة التي دائماً تكونُ صفاتها الجسدية منفصلة عن روحها. إعلم أن هذه الروح حقاً شيءٌ مُدهِش. تتطور وتتغير دائماً نحو الكمال ولكنها في الأساس تبقى هي نفسها. امتداداتها وأشكالها السابقة النابعة من التاريخ أو بالأحرى من أعماق بئر تراثك، ما زالت جزءاً من حاضرك.»

«لا أرى القصد من وراء كل هذ التفلسف.»

«سترى. سبق وأن قلت إنّ الأمة هي فكرة مغلّفة بالأسرار، واتفقتَ أنت معي. سألتُك إذا كنتَ مسلماً صالحاً وأجبتني بنعم. الآن أقول لك إنّ الدليل الحي لتلك الأسرار هو الذي يجعلك مسلماً.»

«وما هو الدليل على قولك هذا؟»

«كتاب الله، القرآن، بعثهُ الله لنا نحن العرب مع نبيّ عربي وبلسان عربي. لا مكان للقدر أو الصدفة هنا، بل إنها إرادة الله. اختارنا نحن العرب من دون كل شعوب الأرض في ذلك الزمان، كما اختار الله اليهود في السابق.»

«لا يعجبني ما سيقودنا إليه هذا.»

«ولماذا؟ لأنني تطرقتُ لليهود؟ مشروعهم لخلق دولة صهيونية لا يختلف من حيث المبدأ عن مشروعنا في توحيد أمة العرب في دولة واحدة عربية وإسلامية.»

«أنت تضع الضحايا العرب مع جلاديهم اليهود في المستوى نفسه.»

«أفهم مشاعركَ. ما أريد إيضاحهُ هو أنّ رجال ديننا يريدونك أن تؤمن، خطأً، أن عروبتك وإسلامك شيئان مختلفان. في الواقع إنهما شيء واحد. المحتل يريدك أن تنسى صلة رحمكَ مع الإسلام، هذا الإسلام الذي هو أساس روح هذه الأمة. يدعون لفصل الدين عن السياسة، وأتباعهم يحاولون فعل ذلك بقطع تلك الشجرة الجبارة التي تُسمّى العراق المسلم وتحويلها إلى غصينات متناثرة يسهل كسرها، كما هو حال عراقنا اليوم.»

«ولكن حب الدين يأخذ الأولوية على حب الوطن» قلت. «إنه جوهري». ما أن أتممتُ حديثي حتى غيّر نبرتهُ.

«ألم تقل إنك تحب العراق، يا إبني؟»

«أنا لستُ إبنكَ». أجبتُ بحدّةٍ، منزعجاً من عدم قدرتي على النقاش.

«لا تكن قاسياً» قالَ، رافعاً صوته كالمدير تجاه موظفيه. «إحترم تقاليدكَ. ما صلابة حبكَ للعراق؟ اجب على سؤالي!»

«لقد سبق وأجبت.»

«فما الذي يأتي أولاً. حبّكَ للعراق أم حبّكَ للإسلام؟»

«هذا خيار زائف. أرفض المقارنة.»

«بالضبط!... لقد أوضحتَ النقطة التي كنت أحاول طرحها»، أجاب صدام بحماس.

«الأمّة الإسلامية التي كانت في الماضي هي وطننا العربي في الوقت الحاضر»، ثم أضاف، «هذه الكلمات قُطِعت من نفس القماش. ولكن كيف لمشيئة الله أن تستجاب؟ وكيف للأمةِ أن تنشأ؟ هل تظن أنها موجودة هكذا في الطبيعة، جالسة في الانتظار كالفاكهة الناضجة على الشجرة؟ بالطبع لا! يجب أن تُصنع، تخلق للوجود.»

«من قِبلِ مَن؟»

«رجال متميزون بالطبع. متميزون كرسولنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم. قابلياته الفذّة خلقت أمّةً من المؤمنين، وحدت القبائل المتناحرة وجعلتها قوة عظيمة اجتاحت العالم. في عمله هذا، أصبح نبينا أول ثائر عربي وإن لم يُطلق عليها اسم ثورة عربية في ذلك الزمان، بل سميت بثورة إسلامية.»

مندهشاً، لم أتمكن من قول أي شيء. لم أسمع أحداً يتكلم هكذا من قبل.

«هل تقولُ أن نبينا محمد كان أول قومي عربي؟»

«نعم، هو قائد أول ثورة عربية. لقد جعلته نموذجاً لمسيرتي السياسية.»

«تطلقُ على حروبك اللعينة اسم الثورة!»

«لا تغيّر الموضوع! هل كان نبينا، صلّى الله عليه وسلم، قائداً لثورتين، ثورة لنشر الإسلام وأخرى من أجل العروبة؟ أجب على السؤال!»

«أنا بحاجة لأفكّر أكثر في الموضوع.»

استمّر صدام:

«كذلك مع إسرائيل. من جعلها ممكنة؟ من خلقها على حسابنا نحن العرب؟ الامبريالية بالطبع، ولكن هذا ليس كافياً. لا تصدّق كل شيء يُقال من جماعتنا. نقول خلقت الامبريالية إسرائيل ولكننا نعلم بذات الوقت أنّ الموضوع أكبر من ذلك. كانت هناك فكرة الأمة اليهودية التي سميت بالصهيونية، مماثلة لفكرتنا عن الأمة العربية، دفع بها رجالهم المتميزيون، أنبياء في الماضي، وسياسيون بارعون في وقتنا الحاضر، أولئك الذين صنعوا الدولة اليهودية من تلك الفكرة، على حسابنا بالطبع.»

«على حساب الفلسطينيين، ملايين منهم! ظننتُ أنّك لن تتطرق إلى هذا الموضوع.»

«هؤلاء القادة اليهود حثّوا وتواطأوا وحاربوا واحتالوا على قوى الدول الإمبريالية ليقوموا بما لم يكن في مصلحة تلك الدول. الآن أسألك سؤالاً محرجاً. ألم يحاول قادتكم الشيعة خداع الأمريكان لإنشاء دولة شيعية لهم في العراق، كما أحتال عليهم اليهود منذ ستين عاماً

مضت لدعم خلق دولة أسرائيلية في فلسطين؟ هل تجد فرقاً بين الاثنين؟»

صمتُ ولم أجبه. وبعد وقفة قصيرة، قال صدام بهدوء. «هنالك من العرب من لا تدبّ بهم روح العروبة.»

«تعني أنهم ليسوا بمسلمين صالحين؟»

«على العكس يا ابني، بل مسلمون لكنهم ليسوا بعرب جيدين. أنتم الشيعة خير مثال على ذلك.»

«هل تعني بأننا لا نحب العراق؟» أجبته بغضب.

«التاريخ يشهد». قال، بسرعة، «نخبتكم، التي تطلقون عليهم بالمرجعيات، يشمون رائحة الحكومة الضعيفة كما تشم الجرذان القاذورات. في نشأة دولتنا في الثلاثينات، ثلاثة من أبرز مرجعياتكم أصدروا أحكاماً ضد العراق. قاطعوا الانتخابات وعارضوا عمل الشيعة في أي مؤسسة تابعة للدولة العراقية، من ضمنها الجيش وكل دوائر الدولة. اعترضوا حتى على دخول الأطفال الشيعة في مدارس الدولة الحكومية. الملك فيصل، ملكنا الأول، كان متسامحاً جداً معهم. ومع ذلك مرجعياتكم لم يلينوا. فمن المنطقي أن يكون عدد السنة العاملين في مؤسسات الدولة لا يتناسب مع الشيعة. عندها فإنّ اللوم كله يقع على مرجعياتكم.»

«كيف تجرؤ على قول ذلك؟ أنت أكثر مَن اضطهدنا، استهدفت علماءنا وتقاليدنا وحسينياتنا.»

«فقط عندما لم تعطوا العراق العربي مطلق ولائكم. أحياناً قمتم بذلك، كما في الحرب مع إيران، كنّا سنخسرها لولا شجاعتكم ودفاعكم المستميت عن الوطن في جبهات القتال. وأحياناً أخرى لم

تقوموا بذلك، كما في ١٩٩١، تلك الصفحة من الغدر والخيانة. لذلك، عاقبتكم بلا رحمة، وسأقوم بالشيء نفسه الآن لو اقتضى الأمر ذلك.»

«أنت رأس حربة الطائفية!» قلتُ، وقد احمرّ وجهي من الغضب. «دباباتك كانت تجوب شوارع النجف وقد كُتب عليها شعار لا شيعة بعد اليوم! بعد كل ذلك تتهمنا نحن الشيعة بعدم الولاء؟»

«لم تكن تلك أوامري. أحد ضباطي المتحمسين كتب ذلك على دبابته. لقد أنزلتُ رتبته على ما فعل. أنا أحتقرُ الطائفية.»

«كاذب»!

«لماذا أكذب عليك هنا وأنا أنتظر الموت قريباً؟... كل ما أريده قبل مغادرتنا هذه الغرفة، هو إقناعك بوحدة الأشياء الثلاثة الأساسية: كونك عراقياً وعربياً ومسلماً. ليس كقادتكم المزعومين، لا أعطي أي أهمية للطريقة التي يصلي بها الرجال سواء كانت يداه مسبلتين على جانبيه أو مطويتين أمام صدره! هل يهمكَ ذلك؟»

«لا.»

«اعتقدت ذلك. رجالٌ يتلاعبون بموعد ظهور الهلال وأول يوم عيد الأضحى فقط ليخالفوا إخوانهم السنة، هؤلاء الرجال يحطّون من قدرنا أمام العالم العربي والإسلامي.»

«كفى! لا أريد الاستماع.»

«تذكّرني أيضاً، إبني»، استمرّ صدام في حديثه متجاهلاً إياي، «أنا ذلك الشخص الذي حارب الإلحاد وعدم الإيمان في العراق، وليس علماؤكم.»

«بحق السماء، عمّاذا تتحدث؟»

«عن الحرب على الشيوعية عندما استلمنا السلطة في السبعينات طبعاً. ألا تعلم بأنكم الشيعة ـ قبل أن تولد أنت، أعني جيل أبيك وجدّك ـ في تلك الأيام كنتم كلّكم شيوعيين؟ بدأ ذلك منذ الاربعينات، عندما أدار مجتمعكم ظهره لمعمميكم، والذين تطلقون عليهم اسم العلماء، وانتمى غالبيته للحزب الشيوعي. عندما استلمت السلطة لم يكن هناك شيء يطلق عليه اسم الحركة الإسلامية.»

«ربما... كان جدّي شيوعياً.»

«أستطيع أن أقرأ على وجهك علامات جهلك بتاريخك. كان علماؤكم مرعوبين في الخمسينات عندما استيقظ مجموعة منهم ليجدوا مئات الآلاف من شبابهم يتظاهرون حاملين شعارات شيوعية. لكنهم لم يتمكنوا من فعل أي شيء. أنا الذي كسرتُ ظهر الشيوعية في العراق لأنّ الأمة كانت مهددة بتلك الأفكار المستوردة كالإلحاد والخضوع للاتحاد السوفيتي.»

«كيف أنجزتَ ذلك؟» قلت متشككا.

«بلا رحمة.»

«أعلم، ولكن كيف؟»

«قلبت الواحد ضد الآخر.»

«كيف تدعي الحبَّ وأنت قاسٍ في الوقت ذاته؟»

«هل يجوز أن نحاكِم الله بنفس القوانين التي نحكُم بها أنفُسَنا؟ ألم يُبِدْ الله أمماً بأكملها وبلا رحمة عند الضرورة؟ ألم يفضّل الله هابيل على قابيل الذي قتل أخاه، وبذلك خلق أول قاتل في تاريخ البشرية؟ كلنا ننحدر من ذلك القاتل. لقد زرع الله بذور العنف والحسد فينا. نعبدهُ ونحبه بالرغم من تلك الأعمال، أو بالأحرى لأنه قام بتلك الأعمال.

وبالطريقة نفسها، القائد الناكر للذات يقتل ويقسو من أجل العدالة. لا يمكنه التقيُّد بالأخلاق العامة. ولكن هذا القائد الذي لا يرحم، على العكس من الله، لا يتوقع محبة أحد. هو وحيد على الدوام، ويجهل إن كان محبوباً أم لا. فمن الحكمة إذن أن لا يتوقع محبّة الآخرين له. لو كرهني العراقيون اليوم، فهم يكرهونني لأن العدالة الحقيقية في أكثر الأحيان مسألة قاسية ومؤذية. منذ زمنٍ طويلٍ أيقنتُ أني سأدفع ثمن كره العراقيين الذين قمت بكل ذلك لأجلهم وبالنيابة عنهم.»

«قلتَ أنك جعلت العراقيين ينقلبون الواحد ضد الآخر. ماذا تعني؟»

«السر هو أن تجعل كل فردٍ مسؤولاً عن جميع القرارات الصعبة التي يجب على الدولة اتخاذها، مهما كانت كريهة. أقول كل عراقي، من ضمنهم النساء والأطفال والآباء والأمهات وحتى الأجداد، وكل الأقارب. عليهم جميعاً أن يتواطأوا مع ما قد أضطرُ، باعتباري الرئيس القائد، إلى القيام به. لو أراد رجل خيانة بلده، على سبيل المثال، يجب علينا أن نُعلِمَ زوجته وأطفاله كيف يبلّغون السلطات عنه، وإلا يعاقبون، ويستمر عقابهم إلى أن يكُفَّ رئيس العائلة عن خيانته. التواطؤ في عمليات الدولة هذه يخلق أواصر وعلاقات تساوي وتمحي كل الفوارق الاجتماعية الموروثة. في نهاية المطاف تُخلق المواطنة الحديثة ضمن خصوصية بلدٍ معقدٍ مثل العراق تسود فيه الخرافات والتقاليد القبلية والطائفية المتخلفة. انها طريقةٌ قد ابتكرتها في العراق لجمع وحدة الشمل داخل أمة تملؤها للأسف أتفه الفروقات الدينية والمذهبية والقومية. أنا لا أقول ان مثل هذا الاختزال والانصهار عملية سهلة. بل أقول انها ضرورية. إنها الحل المثالي الذي يجب السعي وراءهُ. علّم، ولكن عند الضرورة، أجبر بالقوة مواطنيك ان تتلوث أياديهم. قم بذلك لفترة طويلة فيصبح مواطنوك راغبين في استمرارية نجاح دولتهم كرغبتك

أنت. هذا تراثي. ستتذكرني به دائماً... الآن تعبتُ من الكلام. أريد أن أستريح.»

•••

غالباً ما أفكّر بذلك النقاش الغريب. لا يفوتني أسبوع من دون قراءة تلك الورقة التي دَسَستها في جيبي الخلفي ذلك اليوم. خدمت السيد لأربع سنوات وأتضح لي إنه هو الذي قتل أعز أصدقاء أبي، والطاغية قتل أبي. كيف تترابط الكلمات وعمليات القتل؟ ربما لا تترابط. لو كنت أبن السيد مجيد، وليس أبن أبي، هل كنت سأرى الأشياء بنظرة مختلفة؟ من هو صدام؟ من هو السّيد؟ أعني ماهي حقيقة هذين الرجلين، في الأعماق؟ هل يختلف الواحد منهما عن الآخر؟

هل من الممكن لعمي أو السيد فصل الكلمات في تلك الأوراق المطوية التي أعطاها لي صدام ذلك اليوم عن شخص الطاغية الذي كتبها؟ لنفترض أني كذبتُ قائلاً أنا من كتب هذه الكلمات، هل سيجدون خطأً ما فيها؟ لا أعتقد. سيقول عمّي: «ممتاز، إبنيّ! تُعجبني؛ حقيقةً تُعجبني!» والسيد؟ ماذا سيقول؟ سيؤيدها على الأكثر ولكنه قد يعلّق على قسوتي على الشيعة فيها. صحيح، علماؤنا قالوا تلك الأشياء طوال كل تلك السنوات الماضية، ولكنهم كانوا ينتمون لعصر مختلف. صحيح، الشيوعية تُجسّدُ الشيطان، ولكننا نحن الشيعة نعرفُ كيف نتعامل مع الشيوعيين داخل صفوفنا. «من الأفضل أن لا ننشر غسيلنا القذر علناً، ابني». كان سيقول. «أشطب المقاطع التي تتكلم فيها عن الشيعة.»

ولكن، اللعنة على ما كان سيعتقده السيد وما كان سيقوله عمّي. ماذا اعتقدتُ أنا عن حديثي مع الطاغية المجرم؟

•••

حان موعد تبديل الحرس، ولكنني لم أترك الغرفة. بقيت متجاهلاً فرصتي لتناول الشاي. لفترة دقائق بقينا أنا والطاغية وحدنا في الغرفة، ومن ثم بادر مجددا بالكلام وأدلى أمامي بأغرب حديث سمعته منه تلك الليلة.

مهما مرّ الزمن سيبقى ما قاله حياً في ذهني كما سمعته أول مرة.

«ثقافتك لا بأس بها»، ابتدأ فجأةً، وبنبرة من يريدُ الاستمرار في الحديث.

«ما اسمكَ، يا إبني؟» كنا وحدنا في الغرفة، والباب مغلق.

لا أرادياً أجبتُهُ.

«همم... هل أعرف والدك؟»

«أمرت بقتله في معسكر الرضوانية في ١٩٩١.»

«إذن كان واحداً منهم.»

«ماذا تقصد، واحداً منهم؟ مِن مَن؟»

«واحداً من الذين حملوا السلاح ضد وطنهم خلال تلك صفحة الخيانة والغدر عام ١٩٩١ والتي تطلقون أنتم الشيعة عليها اسم الانتفاضة.»

«لم يكن أبي يحمل السلاح عندما اقتحم رجال الأمن الخاص الباب وألقوا القبض عليه.»

في النجف، حسب ما أتذكر، أليس كذلك؟ أمسكوا به في سرداب، في بيت ملاصق لبيت المرجع المُسِن الذي توفى في ١٩٩٢، الخوئي، أظهرناه بعد فترة قصيرة على التلفزيون لتهدئة الناس.»

صُعِقتُ. كيف عرِف ذلك؟

«تسأل نفسك كيف تذكرت ذلك. آه... لعقود جعلت هذه مهمتي، يا ابني، ذاكرة مثل ذاكرتي تحتاج إلى عملٍ دؤوب. أحاول أن أعرف كل عائلة على تربةِ بلادنا، من أقرب المقربين لهم، إلى أولادهم، وكيف ومع من تصاهروا أو تزوجوا، تفاصيل عشائرهم، قابليات أولادهم، وتحت من خدموا في جيشي، ما هي أنواط الشجاعة التي قُلّدوا بها، من أحبّوا ومن كرهوا، ولماذا دائماً كنت أريد أن أعرف لماذا يقوم الرجال بأفعالهم ـ نواياهم الخفية، دوافعهم، إلى آخره من تفاصيل رعيتي. هل أصبحوا أعضاء في حزب البعث عن إيمان أم لأسبابٍ انتهازية؟ أريد أن أعرف كل هذه الأشياء ليس لمعاقبتهم، بل لمعرفتهم ولاستغلالها وقت الحاجة. طبعاً كل هذا مستحيل لكافة المواطنين ولذلك اخترعت أسلوباً لتبويبهم حسب الأهمية، مستخدماً بطاقات مرتبة منتظمة أحتفظ بها حسب الحروف الأبجدية وبالأسماء. لن تكون هذه البطاقات كالعشرات من الملايين من الملفات التي يحتفظ بها أولئك الحمقى من أفراد أجهزة مخابراتي، الذين لا يستطيعون إيجاد أيّ شيء منها وقت الضرورة. كنت أصمم وأرسم شجرات العوائل في رأسي، واضعاً خريطة لكافة العلاقات البشرية في البلد. تخيلَ جمالها! إلى اليوم أستطيع تخيلها ولكنها نهبت بالتأكيد! مع الوقت قلّت حاجتي لهم شيئاً فشيئاً... بالطبع أتذكر قضية والدكَ. أصلاً هي راسخة في دماغي.»

«ماذا تتذكّر؟»

«لماذا وضعناه في الرضوانية، وما حدث.»

«هل مات هناك؟»

«طبعاً يا إبني. ماذا تتوقع؟»

«كيف مات؟»

«تركت مثل هذه التفاصيل بيد أبن عمّي. كان مسؤولاً عن المعسكر. أنا فقط أتذكر الأشياء التي أريد أن أتذكرها. لقد كبرتُ وللطبيعةِ حدود، كما تعلم. ولكن إطمئن، مات ميتةً جيدة. ويمكن أن تفتخر به.»

«لماذا تقول ذلك؟ ماذا تعني؟»

«حسب ما أتذكر والدك كان رجلاً مبدئياً كسيد محمد باقر الصدر الذي تكلمنا عنه سابقاً. تتذكر كيف مات؟»

«أتذكر. ليس هناك حاجة للتكرار.»

«لقد حارب والدك بشجاعة فائقة في الحرب ضد، الخميني. تقدّم بي العمر وأصبحت ذاكرتي صدئة، ولكني أتذكر قلدته بوسام أو حتى وسامين عندما تصدّى كالأسد في الجبهة خلال معارك الفاو الضارية، بينما ضباطٌ أعلى رتبةً منه هربوا في تلك الأيام، من بينهم تكارتة من مدينتي، فروا كالكلاب المذعورة أمام أمواج المراهقين الهائلة من الإيرانيين الذين رماهم الخميني على خطوطنا الأمامية باسم الشهادة. كم كان القتالُ شرِساً تلك الأيام! ألقيت القبض على هؤلاء الضباط التكارتة للعلم، وأعدمتهم جميعاً وإن كانوا من تكريت.»

«واحد من أولئك التكارتة لم تعدمه»، قلت.

«كيف تعلم ذلك؟»

«لأنّه خدمَ تحت يد ابن عمّك في معسكر الرضوانية، وهو الذي هرّب رسالة والدي لأمي.»

«هذا كلامٌ مثير. لم أكن أعلم ذلك». قال وقد تجمعت حول شفتيه ابتسامةٌ كخيط من الدخان.

ثم أطلق ضحكة صغيرة وقال: «ربما لم يهرب من المعركة، ولم يكن هناك سببٌ لإعدامه. ولكن والدك كان شيعياً، والأكثر من ذلك أحد أبناء مدينة النجف المقدسة. هل تعرف أنني أردتُ تقليده بوسامِ شرفٍ، كما أردت أبناء مدينته أن يشاهدوني أفعل ذلك.»

«لماذا تقلّدُ ضابطاً صغيراً بالرغم من أنك رفضت مراراً ترقيته إلى مرتبة أعلى في الجيش كما كان يستحق؟ بسبب أنه شيعي؟»

«آه... ماذا بكم أنتم الشيعة! لا تفرحون بشيء! معكم دائماً كنت حذراً. عندما أُقلِد أحدكم بوسام شرفٍ كبير، أفعلُ ذلك على جرعاتٍ صغيرة وبعناية. إخترتُه للتكريم، فوق الآخرين عام ١٩٨٨ لشجاعته ولأنها كانت لفائدة الأمة في حينها. على كل حال، كان حقاً شجاعاً وقد أنقذ الكثيرين على الجبهة». ثم بعد مهلة سأل: «ماذا كان محتوى رسالته إلى والدتك؟»

«كتب أنّ أحداً غدر به، ولكنه لم يكن يعرف من.»

«بالطبع كان مغدوراً! أولئك البرابرة الذين تسمُّونهم بالثوّار كانوا يقطعون رؤوس أبناء محلتهم، تصفيةً للحسابات. كانوا يقتلون ويذبحون بالجملة. كيف كان لي أن أجد أحداً في دار مجانين كهذه بدون مخبر؟»

«من؟» تساءلتُ حابساً أنفاسي بترقّب، «من أخبرك عن مكان وجود أبي؟»

توّقف صدام ونظر لوجهي مليّاً قبل أن يستمر في الكلام. وبدا كأنه يختار كلماته بعناية فائقة.

«كان هناك رجلان مع والدك ذلك اليوم. كنا نستهدفهم بالأخص، وليس والدك. واحد منهم كان ضابطاً كبيراً في الحرب الكبري مع إيران. لم أكتشف اسمه الحقيقي الا لاحقاً، في أواسط التسعينيات عندما ظهر

في لندن. كان موجود في المخبأ بمثابة حماية لرجل ثالث، وهو الذي كان هدفنا الرئيسي في العملية، رجل يكّن له والدك تقديراً كبيراً.»

«اسمه، ما اسمهُ؟»

«مجيد، ابن المرجع الأعلى أبو القاسم الخوئي. الثلاثة كانوا يخططون لعبور خطوطنا الدفاعية وطلب المساعدة من الجيش الأمريكي الذي كان على بعد بضعة كيلومترات عنهم. كان الأمريكان جالسين على كومة من السلاح الذي تمنّى الخونة وضع أيديهم عليه. مجيد وذلك الضابط المجهول تمكنوا من العبور قبل وصول رجال الأمن، ولكن والدك تأخر عنهم بدقائق في البيت، على ما أظن كان يريد التغطية على آثارهم واتلاف الوثائق التي تُدينهم وجماعتهم - في تلك الآونة وهو يحرقُ الأوراق ألقينا القبض عليه. لو وصل رجالي قبل عشر دقائق فقط لألقينا القبض على الثلاثة. على أيّةِ حال، ذلك الذي لم أستطع تنفيذه في ١٩٩١، أنت وجماعتك قمتم به نيابة عَني في شهر نيسان ٢٠٠٣.»

«عمّاذا تتحدث بحق السماء؟ ومن أخبركم بموقع البيت؟»

«أتحدث عن جريمة القتل في الصحن الكبير للإمام عليّ عليه السلام، في النجف، في العاشر من نيسان، في نفس اليوم الذي قررت فيه أن أرتب انسحابي المؤقت من بغداد لأقود المقاومة ضد المحتل. مصادر موثوقة أعلمتني كيف قُطّعَ جسده على يد جماعتكم الشيعة، سيِدُك ورجاله، مَزقوه ورَموه ككيس من القمامة في الشارع. يا للعار! ولكن يجب الاعتراف بأنكم، قمتم بهذا العمل نيابةً عنّي وإن جاءت العملية متأخرة ثلاث عشرة سنة.»

«من غدر بأبي؟ أرجوك يا سيدي! أعطني اسمه.»

تلك ال «سيدي» نطقت بها سهواً. يا للعار! خرجت من فمي قبل أن

أعرف ماذا أقول. لو استطعتُ رفس نفسي، لفعلت بذلك. يطغى عليّ الشعور بالخجل كلما تذكرتُ زلة اللسان تلك...

«ألا تعرف؟ يا للعجب! عمك، بالطبع. كان يعمل معنا لسنوات.»

لابد أنّ صدام قرأ التعابير على وجهي الآخذ بالاصفرار.

«آه... فهمتُ» قال بصوتٍ خافت... وشبح ابتسامة لاح على وجهه الذي بدا لي أنه ينتفخُ ويزدادُ بشاعةً.

«ظننتكَ تعلم، يا ابني... وبالأخص بعد التحاقك بجيش السيد.»

من دون خاتمة

بغداد اليوم.

فتحت أفكار الطاغية أبواباً، فدخلناها. سقط الطاغية، فأصبحنا مدمنين على إرثه: الخيانة.

خيانات بلا نهاية... بين الطوائف وداخلها. تارةً يخون الجلاد ضحيتهُ وتارة يخون الضحية جلاده. وينقلب السحر على الساحر ليصبح الجلاد هو الضحية والضحية هو الجلاد... وكلهم دائماً ضحايا وجلادون في الوقت نفسه، في داخلَ نفوسهم وضمائرهم وأجسامهم. الكل دائماً يخون. المنفيون السابقون يخونون رفاقهم وأصدقاءهم، والكل من الداخل والخارج يخون الوطن. الأصدقاء، والعوائل، والبيوت الدينية المرموقة، وحتى الأخوان، الواحد دائماً يطعن الآخر في ظهره.

أسمعتم شيئاً كهذا من قبل؟

على من يقع اللوم؟ هل نلوم الطاغية؟ أم جميعنا مُلامون؟

ربما نحن شيعةَ العراق ولِدنا ضحايا كما وُلِدنا خونة، يوم تخلينا عن الحسين بن علي، ابن عم الرسول، صلى الله عليه وسلم. تركناه وحيداً فريسةَ أعدائه. ومنذ الف عام وحتى يومنا هذا في كل عام نبكي، ونضرب صدورنا، ونجلد ظهورنا، ونطبر رؤوسنا المحلوقة بالسيف إلى أن يسيل الدم على جباهنا. لماذا كل هذا؟ أهيَ دموع الحزن أم دموع من

يشعر بالذنب وثم يبكي على حالته؟ اخترنا الخيانة، أم هيّ متأصلة فينا وهيّ التي اختارتنا؟

لربما الخيانة أقدم حتى من مقتل سيدنا الحسين، عليه السلام. لربما ترجع إلى الأصول، أصولُ الجنس البشري بأجمعه عندما غدر قابيل بأخيه هابيل ودب العنف بإرادةٍ إلهية من القاتل ليتأصّلَ في طبيعة الإنسان.

هكذا هيّ الخيانة، أصولها إنسانية.

اخترنا الخيانة أم أُجبِرنا عليها، بالرغم من الطبائع الحسنة فينا؟ لا أدري. ربما كُتِبَت علينا نتيجة الحرب التي غيرت نفوس كل العراقيين. حروبٌ كثيرة... أيّ حرب منها؟

لا بد أن تكون الحرب الأخيرة، الحرب التي كان من السهولة أن لا تقوم. الحرب التي لو لم تكن لبقِي الطاغية. ولبقِيّ المنفيون في لندن مشغولين بمشاحناتهم في دهاليز قاعات اجتماعاتهم في فنادق أوروبا رغم أنهم يعيشون على صدقات الدول المستضيفة لهم. ولو لم تكن تلك الحرب الأخيرة لبقيّ السيد الذي التحقتُ به قابعاً في دار أبيه في النجف، عارفاً قتلة أبيه وصامتاً رغم ما يعرفه، صمتٌ انكسرَ لأول مرة عندما مزق جثمان نجل بيت آخر من البيوت الشيعية النجفية المرموقة... ابن المرجع الشيعي الأعلى، الابن الذي لم يصمت... ولم يخن.

بالعكس، أنا الذي خنتهُ، هذا الذي كان أعز أصدقاء والدي. يا للعار! نعم، كلنا نحن شيعة العراق خناهُ. وبخيانتنا له، خنا أنفسنا. لتنزل رحمة الله على نفوسنا على فعلنا هذا. أغفر لي يا سيد مجيد خدمتي لذلك البيت الذي أهدر دمك. الجهل لا يعفي المرء، خاصةً عندما

تكون خيانة ذلك الرجل هي لبُّ كل الخيانات الأخرى في عراق ما بعد صدام حسين.

• • •

أبي... هل خانوك أنت أيضاً؟ وأنت يا عمّي، هل صحيح أنت الذي خنته؟ هل أثق بكلمات الطاغية المسمومة؟ ربما هددوكَ بالقتل؟ ربما قمت بحساباتك الخاصة لتأخر وصول قوات الطاغية إلى البيت الذي كانوا مختبئين به. ربما اعتقدتَ أن أبي سيستطيع الهروب مع السيد مجيد قبل وصولهم. خَطَطتَ لهذا لكنه لم يتحقق. قل لي إن هذا ما حدث! كنت دائماً تمشي على حافة سكين. كان هذا عالمك: الحياة أو الموت. أعلم ذلك.

ولكن يا عمّي... كان سيدنا بين يديك، كما كان والده من قبله. مؤسساته أنت بنيتها، وأشرفت على بناء مدينة النجف بعد الانتفاضة. من دفع تكاليفها؟ من أشرف عليها من بعيد في بغداد؟ من يلعبُ بالحبال من وراء الكواليس حتى يبقى مسيطراً علينا وعلى مدينتنا المقدسة، حتى بعد موته؟ عمّي، كنت هناك. دائماً أنت هناك. في المكان الصحيح وفي الوقت الصحيح... تملُك كل القابليات، حلاّل كل المشاكل، مُنفّذ بارع، اليد اليمنى للجميع.

حتماً إنه أنت. يجب أن يكون أنت. من غيرك؟ كم كنت أعمى. لماذا لم أر ذلك؟

عند الوقوف، عند السكون المطبق، عند الصمت المستميت، كل الأشياء تقع في مكانها الصحيح.

أعلم أن العالم ممتلئ بالغموض. العالم الذي بناه الطاغية غيّر حتى

معنى الكلمات، غير الخيانة. أعرف هذا ما ستقوله يا عمّي. ستقولُ، عندما يصبح الجميع خونة، ربما لم يتبقَّ هناك خائنٌ يستحقُّ الاسم. وبهذا فَقَدَت الكلِمةُ معناها. ولا أحد خائن. أعلمُ أنك ستقولُ ذلك. بل وَجَبَ عليك قول ذلك. ليس هناك شيءٌ آخر يمكنك أن تقوله.

ولكن اليوم لم يعد هناك طاغية. بات العالم عالمنا وليس عالمه. نعيش فيه لوحدنا، لا غير. لا يمككنا وضع اللوم عليه للأبد. لم يعد مسؤولاً عن عالمنا أوعنا. ذنوبه أصبحت ذنوبنا. لقد ورثناها عنه. فمن هو المسؤول عن الخيانة إذن؟ هل كُتِب علينا أن نبني دوماً دولاً وحكومات لا أحد مسؤول فيها؟ هل من الممكن تخيل مثل هكذا عالم؟

•••

تغيرت الأشياء يوم الشنق. كانت أيامنا وأشهرنا وحتى السنوات بعد الشنق كلها بلا أمان بلا استقرار. وحتى الذين لم يولدوا بعد في هذه الأرض الملعونة سيدخلونها مدركين الألم الذي عليهم تحمُله. لا نستطيع لومهم. الفشل ليس فشلهم وإنما هو فشلنا وهو مقياسٌ للهاوية التي سقطنا فيها. يومياً، شيئاً فشيئا، أزحف نحو تلك الزوايا المؤلمة، كأنني بحاجةٍ إلى الذوبان فيها. ليس في استطاعتي التوقف، آمال الآخرين تشابكت بقلقي، وسحبتني نحو الهاوية التي ما زلت أتصارع مع نفسي للخروج منها. إذا كان هذا الظلام الذي وقعت فيه أنا بذاتي بعد الشنق، فالوطن بأكمله قد وقع في ظلام آخر، أكثر سواداً من ظلامي.

ماذا حدث ذلك اليوم؟ لم أعلم حينها، ولكنني أعلم الآن. تغلبني الشك. شكٌ آتٍ من الأعماق، شك جذري من الصنف الذي يعترف بأنه ليس بالمقدور فهم أيّ شيء، حتى الحقائق لا يمكنها أن تتكلم عن

نفسها. شك كهذا يصعب احتماله على المؤمن، المدافع عن حق الله، الجندي في جيش الإمام المنتظر، المسلم الشيعيُّ المدافع عن حقوق طائفته، ويصعب على الرجل المؤمن المطيع لإرادةِ رب العالمين. من الصعب جداً لو انطبقت عليّ إحدى هذه الصفات، فماذا لو التقت جميعها فيّ؟

إنني إنسان ميئوسٌ منه.

نحن المؤمنين علينا الاستسلام لمشيئة الله. الاستسلام هو الإسلام، الاستسلام لمشيئة الله. هذه تركة رسولنا على هذه الأرض ولا يمكن لأي إنسان التغاضي عنها. لكنني اتساءل: هل هناك مكان للشك أمام كل هذا الاستسلام المطلق؟ هل يحقُ لي أن أشك واستسلم في الوقت نفسه؟

أبو الأنبياء، نبينا إبراهيم، خليل الله، لم يراوده الشك أبداً، ولا للحظة، عندما أمره الله بالتضحية بابنه ـ هكذا كان إيمانه عظيماً. كنت أظن أنّ صفة أبراهيم النبيلة كانت خضوعه التام للإرادة الإلهية. ولكنني لم أعد واثقاً من ذلك. اليوم، كم أتمنى لو دخل الشك عند أبو الأنبياء. اريد أن أعرف هل ارتعشت في الهواء تلك اليد التي حملت السكين؟ هل ترددت، ولو للحظة، قبل أن يوقفه الله عن غرسها في صدر أبنه؟ يخبرنا كتاب الله بأن الشك لم يدخل قلبه. استسلام النبي ابراهيم لربه كان مطلقا. لم يجفل ولم ترتعش يداه. رباه أخبرني أنني على خطأ! أتوسل إليك! لا تلعنني بالعيش معلقاً في الفجوة ما بين ما قام به إبراهيم وما أتمنى لم يكن بمقدوره القيام به.

• • •

يقولون أنّ البرابرة يطرقون أبواب المدينة. هل ذلك ممكن؟ هل لديّ الوقت للتخبط في الشك والبرابرة على الأبواب؟ هل من المناسب إضاعة الوقت على الأقلام والأوراق ورواية الحكايات؟ عارٌ عليّ!

يقولون أنّ المدينة لن تقاوم. ستسقط المدينة. مدنٌ كثيرة قد سقطت من حولي. مقاطعات بأكملها يُطلق عليها أسماء جديدة لا أعرفها. بغداد مُحاطة. إنهم في أبو غريب. احتلّوا الموصل. لم تعد هناك دولة، هذا ما يقولون. العلماء يصدرون فتاوى لحمل السلاح والجهاد. «دافعوا على أماكنكم المقدّسة»، ينادون من أعلى السطوح، «إحملوا سلاحكم!»

وفي الوقت نفسه مازال سياسيونا يتناقشون، ما زالوا يتزاحمون الواحد مع الآخر على الكرسي، ما زالوا يلقون الخطب ويظهرون على شاشات التلفاز، ما زالوا يصدرون البيانات ويعقدون الصفقات، ما زالوا يعدون، ما زالوا يرتشون.

لماذا لا يحملون السلاح وينطلقون لجبهات القتال؟

ولكن أين هي جبهات القتال؟ وأين هم أولئك البرابرة؟ كيف أُميزُ بينهم؟ أنهم يشبهونني. من المؤكد أنهم خارج المدينة. أسمع دوي أسلحتهم. ربما هم الآن داخل المدينة. سيارات مفخخة تنفجر كل يوم. إذن هم في الداخل. وهم في الخارج أيضاً. أين هم؟ من هم؟

لا أسوار تحمينا من أنفسنا، لا متاريس، ولا حتى خطوط أمامية في الزوايا المظلمة الغارسة في نفوسنا لندافع عنّها. سأكون بحاجة لكلاشنكوفي في الوقت المناسب. لا شك في ذلك. سيلاحقونني. أنا واثقٌ من ذلك. إنها النهاية التي لم تنتهِ بعد.

•••

كلمة شكر واعتذار

في كتاب جمهورية الخوف الذي نشر لأول مرة في عام ١٩٨٩، كتبتُ أني مدينٌ لعددٍ من العراقيين الذين لا أستطيع ذكر أسمائهم للأسباب المعروفة حينذاك. مع الأسف الشديد، وبعد أكثر من رُبعِ قرنٍ مضت، أكتُبُ ثانيةً أنني لا أستطيع ذكر مجموعة من الأسماء رغم موت الطاغية. والأشخاص الذين لم يكن بودهم ذكر أسمائهم للأسباب التي سيعرفها القارئ فور انتهائه من قراءة النص، كلهم قاموا بكل رحابة صدر بإعطائي من وقتهم ووضع ثقتهم بي حين زودوني بمعلومات شديدة الحساسية. بطبيعة الحال هم ليسوا مسؤولين عن أيّ شيء ذُكر في هذه الرواية. أنا وحدي أتحمل المسؤولية الكاملة عمّا ورد فيها.

من بين هؤلاء الذين أستطيع ذكر أسمائهم: معد فيّاض، وكامران كرداغي، وسالم الجلبي، ومصطفى الكاظمي، وحسن منيمنة، وأحمد ناجي، وحارث حسن، وأزورا كاربو، ولورا كروز، وآلن وباملا بركر، ولورنس وشلر، ونغمة سهرابي، وسيروز صايغ، وروجر أون.

لقد استعنتُ بعدد من الأعمال الصحفية والأدبية التي يجب ذكرها هنا. أدين بالشكر لدكستر فيلكنس وورزر جاف على ما نشروه عن حرب النجف، حيث كلاهما كانا هناك طيلة صيفية ٢٠٠٤. كما أنا مُدين لهما حول ما ذكرتُ في الكتاب حول خروج مقتدى الصدر خِلسةً من بيت المرجع الأعلى، والحمار الميت وصاحبه الذي قتل من قبل قناص كما

ذكر فيلكنس في كتابه الذي أعتبره من أروع ما كتب عن حرب ٢٠٠٣ (**الحرب الأبدية**، ألفريد كنوبف، ٢٠٠٨). من بين الأعمال الأخرى التي اعتمدت عليها، **الرحلة العلاجية لسماحة السيد السيستاني وأزمة النجف**، للمساعد الأول لآية الله السيستاني، حامد الخفاف (الطبعة الخامسة، بيروت ٢٠١٣). كما لم يكن بمستطاعي كتابة فصل، أسماء الأشياء، بدون الاستعانة بالبحث المفصل عن المليشيات المسلحة في العراق خلال ٢٠٠٦، للسيد علي الحسيني والذي نشر عبر شبكة الانترنت بعنوان **خارطة التنظيمات المسلحة في العراق**، في عام ٢٠٠٥ أولاً ثم أعيد نشره عبر الانترنيت في ٢٠٠٧.

أما الأفكار التي تداولت في الأوساط الشيعية عن المهدي المنتظر ونهاية العالم خلال التسعينات والمتعلقة بالسيد محمد صادق الصدر، فأنا ممتن لكتابات روي مُتحِدة وعلي المعموري والنقاشات المطولة والرسائل الالكترونية المتبادلة بيني وبين الأخ والزميل في بناء مؤسسة الذاكرة العراقية، حسن منيمنة. أشكرهم جميعاً.

مصادر أخرى من بينها، مقالة جودث شكلار المهمة، «غوامض في ظاهرة الخيانة»، والذي نشر في كتابها **الخطايا العادية** (جامعة هارفرد، ١٩٨٤).

على العموم، الجزء الثالث من هذا الكتاب، النقاش الخيالي بالكامل بين الطاغية، صدام حسين، وبطل الرواية غير المسمى، فانا مدين لرواية دستويفسكي الشهيرة **الأخوة كرامازوف**، وبالأخص الفصل المعنون «المحقق العظيم». وعليّ في هذا الخصوص ذكر رواية جورج ستاينر، **سفرة هتلر إلى سان كريستوبال** (١٩٨١) والذي فيه ورط هتلر الحضارة الغربية بأكملها في ظهوره وما تمثلها أفكاره، كما صوّرتُ صدام فيما قاله عن الحضارة العربية الإسلامية.

استعنتُ أيضاً بالوصف الفذ للظلام الدامس في الطبيعة البشرية لكورماك ماكارثي، الذي جاء أحياناً كدواء كلما فكّرت في مآسي العراق. كذلك، حياكة شيموس دين لمعاناة العوائل في الأوقات المضطربة سياسياً، وخاصة روايته، **القراءة في الظلام** (١٩٩٧)، وسرد فازيلي كروسمان، الروائي الروسي، لمعركة ستالينكراد في رواية **الحياة والقدر** (طبعة ٢٠٠٦). الشيء نفسه يُذكر عند قراءة شعر ناظم حكمت، و.هـ. أودن، وزبكنيو هربرت، والذين آراؤهم من خلال شعرهم تتوغلُ على الدوام خلال صفحات هذا الكتاب. كما وأشكر لورنس وشلر، الذي تأتي كتبه كإيحاء لي، وهو أول من عرّفني على هربرت والشعر البولوني بعد الحرب العالمية الثانية، الخاص بالمجتمعات التي تعرضت إلى الأنظمة المتعجرفة الشمولية، قوميةً كانت أم شيوعية.

وفي النهاية، أقدم فائق شكري لزوجتي ولادة الصراف التي آمنت بهذا الكتاب، وعاشت كل مِحنه من أولِ وهلة، وكانت في ذات الوقت الناقد الأول والأهم لكل ما فيه. حبها وإخلاصها لي ولهذا المشروع الصعب (والمؤلم في نفس الوقت) عبر سنوات صناعته، هو في نهاية المطاف سبب وجود هذه النسخة بين أيديكم.

•••

وبعد الشكر حان وقت الاعتذار.

أعتذر أولاً من الشعب العراقي، وثانياً من الطائفة الشيعية، لأنني لعبتُ دوراً قبل حرب ٢٠٠٣ لإضفاء الشرعية الدولية والعالمية على أولئك الذين كنا نسميهم طيلة التسعينيات «المعارضة العراقية»، وهم الذين حكموا العراق بعد ٢٠٠٣. هؤلاء لا يستحقون وصفهم بمعارضين لنظام البعث، ولا يستحقون أن يحكموا أحداً. التاريخ سيسجل أنه ليس

هناك تجربة سياسية فاشلة بحجم فشلهم، وخاصةً المتشيعين منهم، فشلٌ ستضربُ به الأمثال لأجيال، فشلٌ لا مثيل له لا في القرن العشرين ولا هذا الذي نعيشُ مآسيه الآن، ولا حتى في أي بقعةٍ من القارات الآسيوية والأفريقية والجنوب أمريكية.

عمّاذا أعتذر؟ أنا لا أعتذر عن مواقفي السياسية الداعمة لتحرير العراق من نظام البعث. وأنا لا أعتذر عن كتبي السابقة، من **جمهورية الخوف** إلى هذا الكتاب الذي بين أيديكم. أعتذر عن دعمي السياسي والمعنوي الذي لم يعنِ شيئاً في حينه للعراقيين داخل العراق، ولكنه كان يعني الكثير لآخذي القرار في الخارج.

المحتويات

هذا الكتاب

من الذي قتل السيد في النجف يوم سقوط الطاغية؟ هل كان له أعداء أو ميليشيات أو رجال مسلحون؟ كلا. يقال أنه كان إنساناً وديعاً وشريفاً. هل أصبح محط مخاوف الرجال لأنه كان وديعاً وشريفاً؟ ان الذين لا يعرفون غير سوط الطاغية، لا يفهمون الرجال الذين يعيشون تحت مظلة قوانين أخرى في الحياة... ينظرون باحترامٍ فقط لأولئك الذين يحملون الأسواط. هم يفهمونهم.

رسمة الغلاف: جواد سليم



